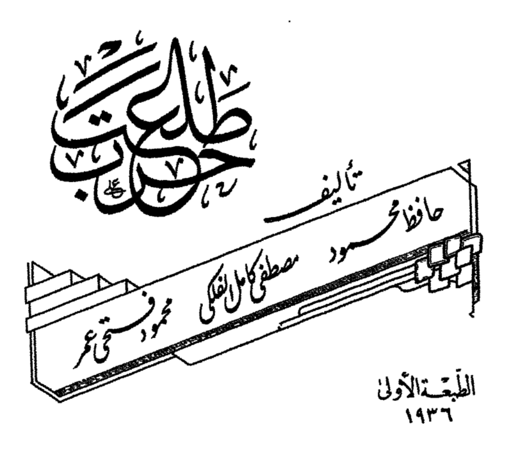

طلعت حرب
تأليف
حافظ محمود
مصطفى كامل الفلكي
محمود فتحي عمر
الطبعة الأولى
١٩٣٦



الطبعة الأولى
١٩٣٦

القاهرة
مطبعة مصر ٤٠ شارع نوبار باشا (سابقا شارع الدواوين)



محمد طلعت حرب باشا — أكثر أبناء مصر برًّا بمصر

صورة مستعارة من الأستاذ
محمود خاطر بك مدير شركة مطبعة مصر

الافتتاحية

« بسم الله الرحمن الرحيم »

كان القدماء يفتتحون كتبهم ورسائلهم بحمد الله على منة من المنن . والكاتب مهما تطرف فى جدته وتجديده يجد أحياناً أن خير ما يقال فى موقف من المواقف هو ما قاله القدماء . . ونحن حيال إنشاء كتاب فى « طلعت حرب » نجد أن خير ما يفتتح به هذا الكتاب هو حمد الله على أنه قد اختص مصر بهذا العلم الذى يخفق على ربوة عالية من المجد ، كلها جهود جبارة موفقة لاسعاد المواطنين

أجل ، لقد أصبحت حياة محمد طلعت حرب باشا كتاباً حياً ، منشور الصفحات ، أمام المصريين ، وأمام الشرقيين ، وأمام الكثير من الغربيين أيضاً : يقرأ الناس فى هذا الكتاب الحى أعماله ومآثره ونهضاته جميعاً . . . ومهما يكن من عظمة هذه الأعمال والمآثر والنهضات ، فان لطلعت باشا ماضياً روحياً متصلا بحاضره ، يفيد الناس عامة ، ويفيد الشباب خاصة أن يتبينوه ، وأن يتوجهوا بتوجيهه إلى أعز ميادين النشاط فى حياة الفكر والارادة والعمل

لهذا عنينا فى كتابنا بأن نكشف عن ساحات النشاط التى كان طلعت حرب باشا يرتادها بفكره وروحه وإرادته ، ليجنى منها لمصر أطيب الثمرات وأشهاها ، لا فى الحياة الاقتصادية وحدها ، كما يحسب الكثيرون ، بل أيضاً فى الحياة الاجتماعية ، وفى دوائر السياسة ، وفى ميادين الثقافة العامة — هذه النواحى الجليلة ، التى تكاد تبتلعها زعامته الاقتصادية فى الأذهان

على أن هذه الزعامة الاقتصادية الكبرى التى عقد لواؤها لطلعت حرب ، هذه الزعامة التى جاءته مختارة تجرجر أذيال الفخار بكفاءته ، هذه الزعامة العملية ما كانت لتنتهى اليه لولا أنه كون ماضيها بغرس يديه ، وسقى غرسها

بسيل مبارك من عزمه فى كل دور من أدوار حياته العزيزة

هذه الأدوار هى التى نجلوها فى هذا الكتاب ليتبين فيها القارىء وجهاً جميلا من وجوه البر بالوطن والعمل على إسعاده فى كل ناحية

على أننا حرصنا على أن نصل بين حياته الخاصة وحياته العامة ؛ وإنا لنشهد الحق أننا لم نلق فى هذا عسراً ؛ فما يكاد الباحث يتخطى الدور الأول من حياة «طلعت حرب» ، حتى تلتق عند البحث حياته الخاصة بحياته العامة ، وحتى لا يجد الكاتب مايقوله عنه إلا ويجد أن كل مايقال إنما يتعلق أو يتصل أو يختص بناحية من نواحى المجتمع ؛ وإن هذا لشأن العظيم — لا يعدو كتابه أن يكون دراسة لمسائل اجتماعية عامة !

***

لقد نشطت الأمم المجيدة كلها إلى تمجيد عظمائها ؛ ولام اللائمون أننا فى مصر أحيانا لا نلحق بهذه الأمم فى تمجيدها لرجالها العظماء . ولقد اتخذ روّاد التربية الوطنية الاستقلالية من عظماء بلادهم حافزاً للأجيال الجديدة ، ينشطون شبابها ، ويرسمون أسباب نهضتها بتفاصيل حياتهم ، وقيل أننا فى مصر أحياناً لا نحفل كثيراً بهذه المثل العليا التى تبعثها السماء فى نفوس المختارين من الرجال ..

فاليوم ، ونحن نقدم إلى المواطنين الأعزاء كتاب « طلعت حرب » ، إنما نريد بهذا الذى نقدمه أن نؤدى واجبا وطنياً - لا إلى محمد طلعت حرب باشا بل إلى الأمة العريقة التى أنجبته وأخرجته إلى ميادين العبقرية والنبوغ .. نريد بهذا الذى نقدمه أن نمحو عن النفسية المصرية صفة من صفات النكران التى تتهم بها باطلا أمة كانت على الدوام مثلا من أمثلة الاعتراف بالجميل

إن حياة العظيم ، أو البطل، أو المجاهد ، أو العبقرى فى وطنه هى جميل من الله لهذا الوطن ؛ فالتحدث بهذه الحياة إنما هو تحدث بنعمة الله ليس غير .. ولقد محت النهضات العالمية الحديثة من الوجود فكرة إرجاء هذا التحدث إلى بعد انتقال الأبطال إلى العالم الآخر حتما ، فترى المطابع الأوربية تخرج كل يوم كتاباً عن عظيم من عظماء العالم الأحياء . . . ذلك أن العالم فى هذا الطور

من حضارة السرعة والانتقال، إلى حياة مثالية عالية هو أشد ما يكون حاجة إلى رجال مثاليين أحياء، تملأ حياتهم حياة بلادهم كبرياء ونهضة

لكل رجل مهما جاهد أو عظم نقصه بصفته إنساناً تقصر جهوده دون الكمال.. أما الأبطال من الرجال فنقصهم لأنفسهم، ومجدهم لبلادهم.. وإذن فليس مديحاً ما نكتب عن فضائل «طلعت حرب»، إنما هو تحقيق لفكرة وطنية أن يشعر كل مصرى أن بلاده لم ولن تجدب مطلقاً من المجاهدين المخلصين. وإذا كانت مطابعنا ومكاتبنا قد ازدحمت بتراجم عظماء الغرب وأبطاله، فقد آن الوقت الذى تجلى فيه دراساتنا لرجالنا جيش التمجيد لرجال غيرنا. ولعله توفيق من التوفيق أن تكون دراسة الرجل الذى ساهم بأكبر نصيب عملى فى رفع مكانة المصرى إلى مستوى غيره — أو إلى أرفع من مستوى غيره — فى مقدمة هذه الدراسات

***

الذين يقدمون هذا الكتاب هم ثلاثة من الشباب اختلفت ثقافاتهم كماً ونوعاً، لكن هذه الثقافات المختلفة قد اتفقت واتسقت فى حياة «طلعت حرب» التى شملت بوفرتها ألوان مختلف الثقافات، فقد غدا «طلعت حرب» علماً يرفرف على مدينة من النور، فيها الطائر والسابح والكاتب والحاسب والعامل والتاجر والمدير والمؤلف فى كل فن من فنون العمل والتأليف

لقد أصبح اسمه نشيداً وطنياً لا يتعلق بشخصه بقدر ما يتعلق بعمله وصحابته فى عمله ومواطنيه المعجبين بهذا العمل.. فلما أنشأنا هذا الكتاب وتواردت فى خواطرنا شتى الأسماء لعنوانه، لم نجد له عنواناً أجمل ولا أبلغ من هاتين اللفظتين الوجيزتين اللتين تجريان مجرى الأناشيد: «طلعت حرب»

فتفاؤلا بهذا الاسم، وتيمناً بتوفيق الله لهذا الاسم، واعترافاً بتقدير الأمة لهذا الاسم، قد اتخذناه عنواناً لكتابنا، آملين موقنين أن سيكون لهذا الكتاب من النفع بعض ما كان لصاحب اسمه من الأثر فى الحياة **المؤلفون**

تقـــدمة

بقلم أحد المؤلفين

تفتح لاسمه قلبي ، ونشأت مؤمناً بعظمة الرسالة العمليـة الكبرى التى يؤديهـا لوطننا العزيز ، فقـدرته قدراً يزداد يوماً عن يوم فى نفسى ، وكنت دائماً أتحدث بحديث أعمـاله الخالدة ، وأتندر بنوادر صفاته الغراء دون أن ألقاه أو أنعم برؤياه : ذلك هو صـاحب السعادة « محمد طلعت حرب باشا » زعيم مصر الاقتصادى

فلما أدنتنى الأيام من ساحة أعماله ، رأيته عن كثب ، وشهدت جلائل عمله وعلمه وخلقه عن قرب ؛ فازددت إيمـاناً به ، وبأننى لم أكن أقدره على كثرة تقديرى له إلا دون ما يستحقه من التقدير

لقد ملأ طلعت حرب باشا تفكيرى وخواطرى بجهوده الوطنيـــة العملية المتواصـــلة ؛ فتمخضت هذه الخواطر عن فكرة كتاب عظيم ، يليق بتاريخ هذا الرجل العظيم .. وتواردت خواطرى مع خواطر صاحبيّ الفاضلين: الأستاذ حافظ محمود الكاتب الاجتماعى المعروف ، والأديب محمود فتحى عمر الوطنى الاقتصادى الشاب

وجدتنى أتتبع خطاه ، فأفكر فيه ، وأكتب عنه كتابة نفسية حارة ؛ ووجدتهما يتتبعان خطاه ، فيفكران فيه ويكتبان عنه كتابة نفســية حارة . وسيجد القراء فى نهاية هذا الكتاب نماذج من المقالات التى كتبناها منذ زمن بعيد قبل أن تستوى فكرة هذا الكتاب ؛ وفى هذا تأييد قوى لمـا أقول

اتفقنا وعقدنا العزم ثلاثتنا على إخراج هذا الكتاب ونشره بين الناس ،

ليكون وثيقة من وثائق الشرف فى تاريخ عظماء المصريين ... ولقد كان لا بد لتحرير هذه الوثيقة التاريخية من ثلاثتنا مجتمعين

***

فأولنا حافظ محمود ، هو الكاتب الذى تلخصت فى قلبه آمال الشباب المصرى وعزماته ، فصاغها بقلمه أفكاراً هى الوحى الذى أوحى به إلى جماهير الشباب فى مصر هذه المشروعات الاقتصادية والاجتماعية كلها ، التى تدعو المصريين إلى سبل الاصلاح — فما من مشروع من مشروعات الشباب فى الأدب أو العلم أو الاقتصاد أو الاجتماع — إلا وكان لحافظ فيه رأى يوجهه، أو وحى يوحيه ، أو فكرة يبثها ، أو يد يقدمها من وراء ستار، ناكراً شخصيته ليعطى للمجاهدين مثلا من المثل العليا

وثانينا محمود فتحى عمر ، هو الشاب النابه الذكر الذى ساهم فى كل مشروعات الشباب الاقتصادية بقسط هو القسط الوفير ، وكان فى كل جهاد من جهود الشباب الوطنية فى مقدمة العاملين ، حتى أصبح اسمه بين شباب كلية التجارة علماً على العمل والجهاد . فلما تخرج فيها كان أول المغامرين المكافحين بكدهم وجهدهم وساعدهم فى ساحة الأعمال الاقتصادية العامة

وثالث هؤلاء الثلاثة كاتب هذه السطور ، وحسبى بين زميلىّ أنى جندى فى جيش الاستقلال الاقتصادى ، وهبت روحى وقوتى وشبابى للخدمة تحت لواء الزعيم ، والمساهمة فى تحقيق المثل الأعلى الذى رسمه لشباب هذا الجيل

فبفكرة صائبة ، وأسلوب صادق ، وإرادة مستقلة قد أخرجنا للناس هذا الكتاب سوياً ، ليكون رمزاً للرجولة العاملة ، والعظمة الصامتة الخالدة

مصطفى كامل الفلكى

بطل الإصلاح الاجتماعى

فى صبح الحياة — يقظة الجهاد — الدفاع عن التقاليد — زعيم المعتدلين
فى قضية تحرير المرأة — رأيه فى ثقافة النساء — وحى الايمان

فى صبح الحياة

يحكى من قصص التاريخ أن نابليون بونابرت حينما أرسل إلى المدرسة الحربية ليتثقف بثقافتها كان فتى صغير السن ، رقيق الحال ، ضعيف البنية ، سخر زملاؤه منه ، ومن أن يكون هذا الضعيف الرقيق ذا مستقبل عسكرى رائع ، مثل المستقبل الذى يتخيله لنفسه كل منهم

لطالما شكا بونابرت طالب الحربية هذه السخرية بأمره من إخوانه إلى أمه فى رسائله ، بل لطالما بكى فى رسائله إلى أمه . لكن هذه الدموع التى سالت من عينيه قد فتحت فى قلبه مجرى لسيل دافق من العظمة — العظمة الحربية ذاتها ، التى حلم بها لأنفسهم الذين سخروا منه ، ولم يستطيعوا أن يحققوا منها لأنفسهم شيئاً

كذلك انتظم الشاب « محمد طلعت حرب » فى صفوف مدرسة الحقوق ؛ ودراسة الحقوق كانت بين أبناء الجيل السابق هى غاية الغايات من الدراسة ، ووسيلة الوسائل إلى منصات الحكم والقضاء ، وكراسى الرياسة والصدارة فى حياة المجتمع المصرى

فكان الطلبة تشغلهم أحاديث جاههم وثرواتهم ؛ ولم يكن لصاحبنا ما يشغله إلا دروسه المتواصلة

وإذن فقد أحسّ الطالب طلعت حرب إحساس الطالب نابليون بونابرت، لكن عظيم مصر لم تبكه وحدته النفسية — وحدة العبقرى — بين الطلاب كما أبكت هذه الوحدة عظيم فرنسا فى صباه؛ ذلك لأنه خلق ذا نفس مؤمنة مطمئنة. إلا أنه قد عرف طريقة مباشرة إلى مغالبة الأيام ومهاجمة نقصها بوثبات صادقات إلى الكمال، فاذا التاريخ يشهد أن هذا الطالب الحقوقى قد غدا أكثر زملائه مالا، وأعزهم جاهاً ومجداً!!

تخرج «محمد طلعت حرب» فى الحقوق سنة ١٨٨٩. وكان طبيعياً — وهو فى مقدمة المتخرجين، ومن أنبههم ذكراً. وأصغرهم سناً، وأميلهم عن الاشتغال بمهنة المحاماة — أن تتهافت عليه الوظائف؛ فاشتغل فى قلم قضايا الدائرة السنية مترجماً؛ وسرعان ماتدرج النابغة فى مدارج هذا العمل حتى أصبح مديراً لأقلام القضايا بهذه الدائرة، خلفاً للمغفور له محمد فريد بك

لو قلناهنا أن طلعت حرباً اشتهر بالدقة فى عمله، لما كنا قدجئنا بجديد بعد أن عرف العالم أن أدق رجل من رجال الأعمال فى مصر هو «طلعت حرب»؛ لكن هناك واقعة معينة تقدم البرهان المادى على ما عرف به من الدقة مبكراً

كان برش باشا مفتشاً عاماً للدائرة السنية، ثم اختير عضو مجلس الادارة المنتدب لشركة كوم امبو. وكان برش باشا فى عهد تفتيشه بالدائرة السنية قد عرف طلعت، وعرف فيه كفاءته الفريدة الممتازة. فلما تطلبت الشركة — شركة كوم امبو — مديراً كفؤا لمركزها الرئيسى بالقاهرة[1]، لم يتردد فى اختيار طلعت حرب لهذا المنصب الكبير الخطر، الدقيق المسئولية

لم يقف اعتراف الزمن بدقة طلعت حرب وكفايته منذ صباه عند هذا الحد فى عهد شبابه، بل إن الشركة العقارية المصرية (التابعة لبنك إخوان

---

(١) ظل المترجم له قائماً بهذا المنصب حتى عام ١٩٠٩. ثم عاد الى الشركة بعد حين عضواً فى مجلس إدارتها إلى عام ١٩٣٦ حيث استقال لتكاثر أعماله المختلفة

سوارس ورولو وقطاوى ومنشه وغيرهم) قد اختـــارته فى الوقت نفســه ليتولى إدارتها (١)

كذلك حولت يد الأقدار الساحرة مجرى حياة طلعت حرب من ساحة القانون إلى ساحة الاقتصاد ؛ وكذلك بزغت شمس الزعامة الاقتصـادية من بين يديه ، فأخذ يهتدى بهديه فى حياة الأعمال كل من اتصل به من الناس — أخذت كفاءته الادارية طريقها إلى الدوائر العملية جميعاً ، فاستغاثت بمؤهلاته وخبرته دوائر كثيرة ليقيل عثراتها ، ويصلح ما أفسد الدهر من ماليتها . وإنا لنذكر منها على سبيل المثال دائرة سلطان باشا

كان عمر سلطان باشا من أغنى أغنياء مصر ، وكانت دائرة أعماله لسعتها تتطلب إدارة قوية غيرعادية . وكان الرجل صديقاً حميماً لمحمد طلعت حرب ، فدعاه للاشراف على أعمـال دائرته ، فتولى هذا الاشراف بلا قيد ولا شرط ولا مقابل

وكان فى أسرة سلطان باشا شـاب قد اجتذبته يد طلعت الذهبية إلى سـاحة الحياة الاقتصادية الفسيحة ، فسـار فيها رائداً ويداً يمنى للزعيم ، ذلك هو المدير القدير الدكتور فؤاد بك سلطان

هذا هو الدور الذى لعبه طلعت الشاب فى العقد الأول من حياته العمليـة . وهو دور بارع البداية ، عجيب الأثر ، قوى النتائج فى حيـاة أراد صاحبها أن يصل بين نفسه وبين المجتمع صلة أساسهـا الاصلاح ، فكان له ما أراد

---

(١) لا يزال طلعت حرب باشا قائماً بادارة هذه الشركة إلى اليوم ، وكان له فضل تمصيرها

يقظة الجهـــاد

« هل كان فى وسع الاسلام أن يعلى كلمته أو يرفع رايته بحد الحسام ، ولم يكن القائمون به إلا بضعة آلاف من العرب ؟ ؟ »

***

تثور بالعظيم من الرجال نفسه لتنبهه إلى أنه قد خلق ليكون قائداً أو زعيما ، ويظل كل عظيم فى فترة التكوين من حياته يسائل نفسه عن معدات قيادته أو زعامته حتى يعثر بها فى زوايا روحه خلالا وكفاءات نفسية خاصة ، شاخصة إلى مثل من المثل العليا يستمسك به ويقطع العمر فى تحقيقه للعالم

فما هذه الوظائف وما هذه الأعمال الفردية التى كان فيها طلعت حرب ؟ لقد أثار نفسه أن يكون فى هذا الموقف من الحياة فحسب

إنه يشعر بقبس من العظمة فى نفسه لم يكن قد اكتشفه بعد . . إنه يشعر أنه لم يكن رجل نفسه ، وأنه لابد له أن يكون رجل أمة بأسرها . . إنه تواق إلى المثل العليا ، إلى الاصلاح ، إلى إضاءة المشعل أمام مواطنيه ، ليسعدهم ويسعد بسعادتهم . . إنه كان ما يزال يتلفت لفتات الحيرة فى يقظة الروح !!

وبينما كانت النفس العظيمة تبحث عن مثلها ومعداتها للجهاد فى الحياة ، بينما كانت هذه النفس فى حيرة من أن تكون قوة أمة كاملة قد انصبت فى هذا الفرد الموهوب ، وإن هذا الفرد الموهوب له من روحه وعقله وإرادته غنى عن كل سلاح — بينما كانت نفس طلعت حرب فى هذا الدور الأول من أدوار يقظتها ، إذ وقعت فى يده نسخة فرنسية من رسالة تقدم بها

المرحوم عثمان بك كامل سكرتير السلطان ، خليفة المسلمين ، إلى مؤتمر المستشرقين بباريس فى سنة ١٨٩٤ ، وعثر فى هذه الرسالة على السؤال الذى وضعناه على رأس هذا الفصل

أعجب طلعت حرب بهذا السؤال ذى المعانى العالية ، واستجابت نفسه للجواب عليه ، فقد أجاب المؤلف بقوله :

« كلا فان البطل الهمام أتيلا (١)، ومعه ملايين من أقوام الخون أو الهون (Huns) لم يتيسر له أن يتغلب على البلاد المتاخمة لمملكة الرومان ؛ وغاية ما توصل إليه بعد الجهد والعناء أنه تمكن من العبور بها مع جيوشه الجرارة من غير أن يتم له إخضاع أهلها »

« أما الاسلام فلم تكن لديه تلك الملايين من النفوس ، ولا تلك العدد الحربية التى كانت عماداً للفرس والروم فى حروبهم ، بل إنه كان لا يذكر بجانب خصومه من حيث العدد والقوة والنظام ؛ فما هى إذن تلك القوة التى تيسر بها للاسلام أن يخضع العالم المتمدين فى أقل من خمسين عاماً ؟ ! »

« لعمرى إنها حرية الأديان والمساواة فى الحقوق والاخاء بين المسلمين مهما كان جنسهم ، من غير تمييز . ولم تك هذه المبادىء الشريفة اللازمة للكمال الانسانى والتمدين الحقيقى معلومة قبل الاسلام ، فظهرت بظهوره . وفضلا عن ذلك فان صلح الحديبية (٢) يشهد بأن محمداً عليه الصلاة والسلام هو الذى أمضى أول معاهدة دولية فى العالم »

« ولما حاصر المسلمون بيت المقدس فى خلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، خاف النصارى المحصورون أن تكون حرية الأديان والعدالة التى وعدهم بها المسلمون خدعة وحبالة ، فاشترطوا لتسليم البلد حضور الخليفة بنفسه إليهم ، ليوقع أمامهم على معاهدة الصلح والتسليم ، فلم يلبث أن بارح

---

(١) أتيلا ملك من ملوك آسيا الصغرى فى القرن الخامس ، دوخ العالم كله فى الحروب
(٢) صلح الحديبية كان هدنة بين جيوش النبى وجيوش قريش لمدة أربع سنين

عمر المدينة ؛ وجاء بيت المقدس؛ ووقع على المعاهدة الشهيرة التى تم بها دخول هذه المدينة فى حوزة الاسلام[1] »

« فاستبشر المسيحيون من آريين ونسطوريين بهذا الفتح ؛ واستقبلوا الاسلام كاستقبال الأسير تفك قيوده ؛ وفتحوا أمامه أبواب المدائن؛ ودخل أكثرهم فى الدين الاسلامى الحنيف . أما النصارى واليهود ، الذين حافظوا على دينهم ، فقد عاشوا فى ظل دولة الاسلام فى هناءة ورغد عيش؛ لم يروا شيئاً منهما فى عهد الدولة الرومانية ؛ فلم يأسفوا على زوال حكمها وذهاب أيامها »

نقل الأستاذ « محمد طلعت حرب » هذه الرسالة من الفرنسية إلى العربية تحت عنوان « كلمة حق عن الاسلام والدولة العثمانية » ، فى هذا الأسلوب الحى الذى تحس بحياته فى هذه الفقرات التى قدمناها إليك

نقلها إلى مواطنيه فى العقد الأخير من القرن الماضى، حين كانت الدولة فى الشرق للاسلام ، والصولة للمسلمين ؛ وحين كان النفوذ الروحى للاسلام فى الشرق يحنق الغربيين ومن على شاكلتهم ؛ وحين كان المحنقون من الاسلام والمسلمين يذيعون الدعوات الضعيفة أو الباطلة ضد هذه الوحدة الروحية فى سبيل الاستعمار

فطن « طلعت » الشاب إلى خطرين مهوبين يتسربان إلى حياة الشرق خلسة : خطر انقلاب الحقائق الروحية عند الشرقيين فى نظر الغربيين، وخطر تعصب الشرقيين تعصباً قاسياً عنيفاً لعقيدتهم الدينية . . فجاء بترجمة هذه الرسالة يدفع هذين الخطرين عن مواطنيه . وهو يقول فى نهايتها بهذا الأسلوب الحى مدللا على الاخاء والعدالة والتسامح والمساواة فى الاسلام :

« أرونى مدينة واحدة خربها الاسلام ، أو مذبحة واحدة أمر وقام بها الاسلام. ذلك ليس فى الامكان ، اللهم إلا فى مخيلة أمثال فولتى ورينان[2]

---

(١) هذه هى صورة المعاهدة : « إنكم آمنون على دمائكم وأموالكم وكنائسكم ، لاتسكن ولا تخرب إلا أن تحدثوا حدثاً عاماً »

(٢) كاتبان من فلاسفة الفرنسيين

« إن كانَ الاسـلام يقضى بعدم التسـاهل مع الأديان الأخرى أو بابادة معالمها ، كما يدعون ؛ فلمَ لم يخرب طليطلة وقرطاجنة وشريش حينما كان حاكماً على أوربا مدة ستة قرون . . . .؟؟ »

. . . وكان هذا هو الجهد الأول لطلعت حرب فى ميدان الاصلاح الذى غدا فيه على مر الزمان قائداً من أعز قادته وأنفعهم للناس

الدفاع عن التقاليد

ظهرت فى سنة ١٨٩٤ حملة غربية ضد العالم الاسلامى ، دبرها قادة الاستعمار الفكريون ، على اعتبار أن العالم الاسلامى هو الشرق الجميل الذى يطمعون فيه

فقد وقفنا فى الفصل السابق على الرسالة التى تقدم بها سكرتير السلطان إلى مؤتمر المستشرقين فى سنة ١٨٩٤ ، ونقلها الأستاذ محمد طلعت حرب إلى العربية . وليس شك أن هذه الرسالة لم تكن إلا رداً من ردود الحملة التى شن غارتها الغربيون على الشرقيين . . . وفى هذه السنة بعينها تصدى كاتب فرنسى هو « الدوق داركور » لنقد الحضارة الاسلامية فى بلاد المشرق ؛ واتخذ وسيلته إلى هذا النقد حياة المرأة الشرقية المسلمة ، وما هى عليه من حجاب أو احتجاب

كانت حملة الدوق داركور قاسية عنيفة ؛ فتصدى للرد عليه فى سنة ١٨٩٤ رجل من رجال مصر الذين تثقفوا فى فرنسا ، هو المرحوم قاسم بك أمين . ومع أن ردود قاسم على داركور كانت ردوداً سديدة محكمة ، إلا أن مخالطته الغربيين ، والأخذ والرد بينه وبينهم ، وتأثره بثقافتهم — هذه العوامل كلها جعلته ينقلب بعد الفراغ من رده على كاتبهم إلى القيام بثورة فكرية ضد الحجاب ، وما إلى الحجاب من تقاليد قديمة

كان قاسم أمين فى دعوته بريئاً ، لكنه لم يكن قد تدبر خطر ثورته ؛ إذ لم تسبقها المقدمات التى تهيء الجو للانقلاب العصرى الجديد . . . فمن لهذا الخطر الجديد يدرأه عن مصر ، ونساء مصر ، وأبناء مصر جميعاً ؟

إنه هذا الشاب الذى تيقظت روحه على رنين الأجراس السماوية الداوية

الداعية إلى الاصلاح . . إنه طلعت حرب الشاب الذى أحس بأنه ملهَم، وبأنه مسئول . . . إنه المصرى الشرقى المسلم الذى أحس بخطر المفكرين الغربيين على بلاده ، فنقل لمواطنيه رسالة «كلمة حق عن الاسلام والدولة العثمانية» . هو هو الذى اندفع يؤدى واجبه الذى يعتقده حقاً نحو الله والوطن إزاء الثورة على الروح الشرقية فى عالم المرأة

فما أن ألف المستشار قاسم بك أمين كتابه «تحرير المرأة» فى سنة ١٨٩٨ حتى أدركه المصلح « طلعت حرب » بكتابه « تربية المرأة والحجاب »

تحس أنت من هذا العنوان ، الذى اتخذه طلعت لكتابه ، إزاء كتاب « تحرير المرأة » أنه لم يكن يرمى به إلى الجدل العقيم ، إنما كان كتاب كاتب عف نزيه ، يقرر المبادىء السليمة لبنات الوطن وأبنائه

ذلك لأنه قد وضع كتابه بدافع اجتماعى كريم . وهاهو ذا يشرح لك هذا الدافع بقوله فى مقدمة كتابه : « أخذنا نسأل ونتساءل ، ونبحث ونتناظر ، حتى علمنا أن معظم هياج الرأى العام على حضرة المؤلف (يقصد قاسم أمين بك) ناتج مما رسخ فى أذهانهم ، من أن رفع الحجاب والاختلاط كلاهما أمنية تتمناها أوربا من قديم الزمان لغاية فى النفس، يدركها كل من وقف على مقاصد أوربا بالعالم الاسلامى . »

أرأيت أنه كان مشغولا بمسألة أعظم من السفور والحجاب ؟

. . . . إنه كان مشغولا بسلامة الوطن الاسلامى من نوايا المستعمرين من الغربيين . وقد أبى الرجل النبيل أن يتقدم بكتابه إلا بعد أن ساءل وتساءل، وبحث وتناظر، كما يقول .. فلما اقتنع ضميره بأن هناك واجباً لازم الأداء نحو المجتمع، بادر إلى أدائه . . وكان فى أدائه كريماً حكيما ؛ فوضع حداً فاصلا بين خصومة الناس لقاسم أمين ، وبين الحقيقة البريئة التى يجب أن تكون.

قال فى جرأة الرجل المؤمن المطمئن فى مقدمة كتابه : « إنى أجل حضرة الفاضل قاسم بك أمين عن أن يكون له غاية من وضع

كتابه خلاف حب الخير والارتقاء بالأمة ، كما هو ظاهر من كلامه على تربية المرأة ؛ فانه وصف حالتها اليوم أحسن وصف ، وقال بوجوب تربيتها تربية تهذب أخلاقها ، وتقوم نفسها ؛ فلحضرته جزيل الشكر على ذلك ؛ وسيرانا فى هذا الكتاب داعين إلى مثل دعوته ، رافعين صوتنا مع صوته ، علّ دعوتنا تخترق تلك الآذن الصماء ، فيهتم القوم بأمر هذه التربية ، وننال ضالتنا التى ننشدها ، وهى تحسين حالنا ، وما ذلك على الله بعزيز . وإننا مع موافقتنا لحضرته على هذا المبدأ ، نخالفه فى غيره ؛ فنستميحه العفو عما يجده خلال بحثنا من المخالفة والمباينة فى الرأى والفكر ؛ لحضرته حر ، ولا نخاله إلا أن يحب كل فكر حر »

وضع طلعت حرب بهذه المقدمة حدًّا فاصلا بين الحقيقة والباطل ، وفرق فيها بين لغو الخصومة وأسلوب الاصلاح . فلأنصار الحجاب فى كتابه صفحة مجيدة من الدفاع ، ولأنصار حرية المرأة فيه صفحة ناصعة من الانصاف ، وفيه للذين حرروا أفكارهم من التحيز لبعض الرأيين صفحة كريمة من الحكمة . .

وهكذا ما كان طلعت بهذا الكتاب يصلح إصلاحاً اجتماعياً فحسب ، بل كان يصلح إصلاحاً أدبياً أيضاً !

يريد أن يعدل من آراء قاسم ؛ وهو واثق بأن قاسما متأثر بالثقافة الغربية فى آرائه ، فلا يبادئه النقاش بتفكيره ، ولا يواجهه بفكر بعيد من أفكاره ، بل إنه يقدم إليه آراء الغربيين وقادة الغربيين أنفسهم ، فيقدم إليه وإلى الجمهور الشرقى قول الفيلسوف الانجليزى « جون سيمون » إذ يقول فى مقال له بمجلة العلماء عن المرأة الأوربية التى أراد الثائرون للمرأة المصرية أن تقلدها:

« المرأة التى تشتغل خارج بيتها تؤدى فى الحقيقة عمل عامل بسيط ، ولكنها لا تؤدى عمل امرأة ..... نعم إن الرجل قد صار يستفيد من أجر امرأته ، ولكن بازاء ذلك قل مكسبه لمزاحمتها له فى عمله »

بل لقد أبى نبوغ طلعت إلا أن يقدم لصاحبه دليلا من إنجيل اليسوعيين ذاته ؛ إذ جاء فى كتاب العهد القديم بالاصحاح الثالث عشر من سفر التكوين : « وإلى رجلك يكون اشتياقك ؛ وهو يسود عليك »

وكأن مؤلفنا الاصلاحي قد خشي أن يرد أحرار الفكر بأن هذا ما لا ينطبق على حياتنا العصرية ، فأدرك قوله بقول عائشة أم المؤمنين: « لو علم النبي صلى الله عليه وسلم ما أحدثت النساء بعده لمنعهن من الخروج »

على أن طلعت لم يبغ بدعوته أسر النساء ، ومنعهن من الخروج إلى تثقيف أو تهذيب ؛ بل كان فى دفاعه يربأ بالمجتمع الشرقى أن يكون فى ماضيه مجتمعاً ظالماً ؛ فأخذ يقدم الدليل بعد الدليل على عدالة الأوضاع الاجتماعية التى كانت أساساً للحياة المنزلية فى الشرق . ومع هذا الدفاع القوى عن الناحية القومية فيما يتعلق بالثورة الاجتماعية التى أعلنها قاسم أمين فقد سار طلعت المصلح جنباً إلى جنب مع زعيم هذه الثورة إزاء تثقيف المرأة وتهذيبها . وامتاز المصلح الرصين على المصلح الثائر بأنه طالب بتعليمها تعليما ينفع المرأة ولا يضر الرجل

فانظر إلى طلعت حرب مؤلف « تربية المرأة والحجاب » يقول فى صريح عبارته : « قال قاسم أمين : أرى هم الناس موجهة إلى التعليم ، ولا أرى أحداً يلتفت إلى تربية النفوس؛ وأرى أن الحرص على التعليم منحصر فى تعليم الذكور ، مع أن تهذيب الأخلاق مقدم على التعليم، وتعليم البنات مقدم على تعليم الذكور — فهذا كلام كله حكم ونوافق عليه حضرة المؤلف جهدنا، ولكن لا يؤاخذنا إذا كنا نخالفه فى أمر واحد، وهو أننا نعتقد أن التهذيب واجب للذكور والبنات معاً، لا تقديم للبعض على الآخر[1] »

***

ما كتاب « تربية المرأة والحجاب » لمؤلفه محمد طلعت حرب إلا رسالة من رسالات الاصلاح ، أحسن المؤلف وضعها ، وتنسيق آرائها ، والدفاع

(١) ص ٤٣ من كتاب تربية المرأة والحجاب

عن قضيتها . . . ومع أن هــذا الكتاب قد ظهر قبل بداية القرن العشرين بسنوات ثلاث تقريباً ، فانك لتقف منـه على أسلوب فى البحث جديد : فيه تبويب، وفيه تقسيم وتفصيل لايوفق إليه إلا عقل رفيع. وإذا كنا قد أفصحنا فى هذا الفصـل عما فى أسلوب كاتبـه العظيم من أدب عال فى المنـاظرة لا يكاد يعرفه إلا المصلحون ، فان فيـه منطقاً عالياً يضطر النصير والخصيم أن يعترف بسلامته

انظر إليه يرد حجة مؤلف تحرير المرأة عليه قائلا :

« يقول حضرة محرر المرأة : إن البرقع والنقـاب غير معروفين فى الاسـلام — وهذا قول يدفعه ما جاء فى نفس كتاب تحرير المرأة من أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى المحرمة عن لبس القفاز والنقاب . . وهل لذلك معنى سوى أن النقاب كان موجوداً ومعروفاً ، وأنه كان معمولا به وواجباً ، وكان النساء يستعملنه حتى فى وقت الاحرام، فنهاهن النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فى هذه الحالة فقط »[1]

ثم انظر إليـه يقول : « قال محرر المرأة فى مبـدأ كلامه عن الحجاب ما يأتى بالحرف الواحد : ربما يتوهم ناظر أننى أرى الآن رفع الحجاب بالمرة لكن الحقيقـة غير ذلك ، فاننى لا أزال أدافع عن الحجاب وأعتبره أصـلا من أصول الأدب التى يلزم التمسك بهـا ؛ غير أننى أطلب أن يكون منطبقاً على ما جاء فى الشريعة الاسـلامية . . . . . ولسنا هنا نطلب إلا تنفيذ ما جاء فى هذه العبارة »[2]

فلعل فى هذا التعليق البسيط البليغ الذى علق به طلعت على هذه الفقرة المختارة من حديث قاسم أقوى دليل على قوة منطقه ، وسداد حجته ، ونفاذ بصيرته فى كل قضية إصلاحية وكلَ نفسَه للدفاع عنها

(١) ص ٨٥ من كتاب تربية المرأة والحجاب
(٢) ص ١٠٤ من كتاب تربية المرأة والحجاب



زعيم الاستقلال الاقتصادى إلى جوار زعيم الاستقلال السياسى يحيون أم المصريين على ظهر الباخرة كوثر، وهما الى يسار عصمتها ، وإلى يمينها صاحبة العصمة حرم الرئيس الجليل وحولهم كبار الساسة من وزراء وشيوخ ونواب

زعيم المعتدلين
فى قضـــية تحرير المرأة

أصبحت قضية « تحرير المرأة » قضية اجتماعية عامة ذات مذاهب ثلاثة: مذهب المتطرفة ، وعلى رأسهم قاسم أمين ؛ ومذهب المعـارضة ، وزعماؤه كثيرون ؛ ومذهب المعتدلة ، وعلى رأسهم طلعت حرب . ولقد ظلت هـذه القضية تشغل الرأى العـام فى مصر منذ منتصف الحلقة الأخيرة من القرن الماضى إلى بداية الحلقة الأولى من القرن الحاضر

اشتدت الخصومة بين المتطرفين والمعارضين حتى خرج قاسم عن هدأته مرة أخرى ، وأخرج كتاب « المرأة الجديدة » يؤيد به رأيه فى كتاب تحرير المرأة ، وأصبح لابد لحسم هذه الخصومة من مصلح نابغ يعدل بين الرأيين ؛ فلم يكن هذا المصلح النابغ سوى طلعت حرب !

اعتقد طلعت أن قاسما يغالى فى سبيل الدفاع عن رأيه ، ورآه مع هذه المغالاة يتبرم بنضال الخصوم عن رأيهم ، ثم لمح أن أولئك الخصوم قد أفسحوا المجال بينهم وبين صاحبهم للمآخذ والردود التى قد لا يستقيم وإياها الاقناع ؛ فأخرج كتابه الثانى « فصل الخطاب فى المرأة والحجاب » ، غير متخذ فيه أسلوباً من أساليب الجدل ، بل إنه قد جمع فيه أقوال قاسم أمين بذاتها فى رده على الدوق داركور ، وهو رد كله دفاع عن الأوضاع الاجتماعية الشرقية التى نشأت عليها وعاشت فيها نساؤنا

فهما يكن من رأيك إزاء هـذه القضية ، فأنت لست بمستطيع إلا أن تسلم بقوة هذه الحجة التى استلها طلعت حرب ســلاحاً يحسم النزاع بين

الجانبين ، ولا سيما وقد احتاط الرجل الحريص من أن يحاوبه قاسم بأن الأيام كانت كفيلة بتغيير رأيه ، فتراه فى فاتحة مؤلفه يقول :

« فلا نلام إذن إن نحن رددنا فى سنة ١٩٠٠ وسنة ١٩٠١ صدى قوله — أى قول قاسم أمين — فى سنة ١٨٩٤ ، لأنه لم يشر فى الكتابين الحديثين إلى أنه كان فى رأيه الأول مخطئاً !! خصوصاً ونحن لم نبلغ شأوه فى الفضل والعلم والتفقه والممارسة والتجارب كما يعلم ذلك من نفسه . . ولماذا يؤاخذ المعارضين له إن تأثروا من كتابيه فظهر التأثر على لهجة بعضهم، وهو لم يملك نفسه حين قرأ كتاب الدوق دار كور ، بل مرض عشرة أيام كاملة لزم الفراش فيها من هول ما قرأ ، وسوء ما رأى فيه — انظر ص ٢٨٨ من كتاب الرد على الدوق دار كور »

ترى ما هذا القول الذى قاله قاسم أمين فى سنة ١٨٩٤ وتسقطه طلعت فى سنة ١٩٠٠ ؟ !

انظر كيف يهبط طلعت حرب بالهامه على الحجج الدامغة من حديث صاحبه ، حيث كان قاسم قد أجمل رده على الدوق دار كور بقوله :

« وبالجملة فان كل ما نفعله نحن معشر الرجال يمكن نساءنا أن يفعلنه، وهن فى الواقع يفعلنه ؛ وكل ما هو جائز لنا عمله جائز لهن ، كما أن كل ما هو محرم علينا محرم عليهن . فمن ذلك أنه محظور على الرجال الاختلاط بالنساء، فيظهر لى أن من الطبيعى كذلك أن النساء يحظر عليهن الاختلاط بالرجال . وإنى أعيد هنا لهذه المناسبة أن حالة المرأة مساوية فى ذلك لحالة الرجل ، ومع ذلك لم يقم من الأوربيين واحد أخذته الشفقة على الرجل المصرى ، وهزته الرأفة ، فرثى لحاله كما يرثى لحال المرأة — إن كانت الحالة تدعو إلى الشفقة والمرحمة »[1]

لم يكتف طلعت الجبار بهذه الحجة من مناظره ، يقدمها إليه ليناهضه

(١) « فصل الخطاب فى المرأة والحجاب » ص ٢٤

بها فى رصانة وهدوء، بل أبى جبروته إلا أن يقبض ببداهةقوية على اعتراف من قاسم أمين بأن المرأة الشرقية المسلمة تستمتع بمدى أوسع من حرية المرأة الغربية، حيث كان المستشار يقول فى رده على الدوق داركور :

« هذا، وسبق أنى قلت أن لنسائنا مطلق الحرية فى كافة أفعالهن ؛ وأزيد الآن أننا لو نظرنا من جهة أخرى للحالة التى جعلتهن عليها الشريعة الاسلامية الغراء لوجدناها أحسن ما يمكن أن تطمع فيه نفس امرأة ؛ فانها، وهى زوجة تتمتع بكافة حقوقها المدنية، ثم هى مكلفة شرعاً وأهل للتصرف بكامل أوجه التصرفات التى تقتضيها إدارة أملاكها ؛ فلها بيعها بدون أن يكون هناك أدنى احتياج لاذن المحكمة أو لتصريح من الزوج . . وهذه الأهلية تابعة لحريتها الشخصية، وسلطة الزوج عليها فى ذلك ليست إلا سلطة معنوية . فالمرأة المسلمة لا تطيع إلا رائد عقلها فيما تريد أن تجريه من بيع أو شراء أو هبة أو قبض أو مقاضاة، إلى غير ذلك ؛ بخلاف المرأة الفرنساوية مثلا التى لا يمكنها أن تعمل عملا ما من هذه الأعمال إلا إذا رضى به سيدها والمسيطر عليها فى أعمالها، ورخص لها بعمله »

إلى أن قال قاسم :

« ولا خلاف فى أن المرأة الفرنساوية عندما تتزوج تصبح إنساناً غير تام، إذ ترجع لعهد الطفولية، وتعود عليها الولاية لما تقضى به عليها قوانين بلادها من عدم الكفاءة والأهلية، وتضربها بنوع من الأسر والاستعباد (Capitis Dimutio) وتحرمها من التصرف فى أموالها وإدارة أملاكها بنفسها .. تلك هى أمور لا يمكن للرجل المسلم أن يفهمها، كما أنى لم أفهمها أنا أيضاً، رغماً عن جميع الأدلة التى كان يسردها علينا معلمنا فى مدرسة حقوق مونبلييه بفرنسا »(١)

لم تقف قوة طلعت حرب المنطقية فى شبابه عند هذا الحد من إلزام

(١) من كتاب فصل الخطاب فى المرأة والحجاب ص ٢٤

مناظره الحجة فى تفاصيل القضية التى كانا يتنازعان الرأى فيها ، بل إنه استطاع أن يظهر الناس من حديث قاسم فى رده على الدوق داركور على رأى برفض التقاليد الغربية عن الشرق دفعة واحـدة ، حيث كان المستشار يقول : « قلنـا ونقول: إن آدابنا فى الشرق كانت محفوظة ، وأعراضنا مصونة ، إلى أن دهمنا الأجانب بخيلهم ورجلهم ، واختلطنا بهم ، وتوجهنا إلى بلادهم ، وجاءوا بلادنا بالتغلب أو للتجارة ، فأدخلوا فى بلادنا من مسميات مدنيتهم الغربية ما ذهب بتلك الآداب أو كاد يذهب بها تماماً ، وارتقت حاجياتنا ، وغرتنا تلك الظواهر الخلابة ؛ فأصبحنا كما نحن اليوم ، فى حالة يرثى لها العدو قبل الصديق ـ كل ذلك لم يكن لولا اختلاطنا بالأجانب ، وتقليدنا لهم فى كل ما يضر لا ما ينفع تقليداً أعمى ؛ فصرنا لا نتقدم خطوة نحو المدنية الغربية ، إلا تأخرنا خطوات عما كنا عليه من الفضائل »

إلى أن قال :

« ولست أنا أول من تجاسر على القول بذلك ، فانى قرأت كتابين شهيرين عن البلاد التركية، أولهما كتاب عنوانه « داء الشرق » ، والثانى « تركيا الرسمية » . وفى كلا الكتابين قد جاء بصريح العبـارة أن المسيحيين (مسيحى الغرب) هم الذين أفسدوا المسلمين . ولا يمكن أن يرمى مؤلفا هذين الكتابين بالتحيز الى الأتراك ومراعاة جانبهم ؛ وهذا أيضاً ما يشعر به ويقوله كثير من أصدقائى الأوربيين ؛ فانهم مجمعون على أن الذين بذروا الفسـاد بين المسلمين، هم هؤلاء الدجالون المزورون المجرمون المرابون وأرباب الحـانات وغيرهم من أمثالهم العديمى الذمة الذين يراهم الانسان بين المستشرقين والأوربيين أنفسهم [1] » .

جاء طلعت حرب مؤلف « فصـل الخطاب فى المرأة والحجاب » بهذه النصوص من حديث مناظره ، ثم علق عليها بطريقته الجبارة قائلا:

---

(١) عن «فصل الخطاب فى المرأة والحجاب» من ص ٣٦ الى ٤٦

« هذا ما قاله حضرة محرر المرأة فى سنة ١٨٩٤ ، وقد رددنا صداه فى سنة ١٩٠٠ » [١].

فى هذا التعليق كفاية عن كل تعليق ، فان الفقرات التى اختارها طلعت عن قاسم ، والتى اخترناها نحن عن مختاراته ، تدل فى وضوح جلى على وجهة نظر طلعت المصلح إزاء ثورة تحرير المرأة

---

(١) عن « فصل الخطاب في المرأة والحجاب » ص ٤٧

رأيه فى ثقافة النساء

ليس شك أنك واجد فى المناظرة بين المصلحين الكبيرين المرحوم قاسم أمين ، والكاتب الاجتماعى طلعت حرب لذة هى لذة الفكر الحر بين مساجلة منطقين جبارين ، يحمل كل من صاحبيهما لواء من ألوية الاصلاح

ونحن نخشى أن تكون لذة الفكر فى هذه المناظرة التاريخية الكبرى قد أخذتك عن أن تكون الرأى المستقيم عن مبدأ طلعت حرب المصلح فى حياة المرأة وتثقيفها ، وما هى أهل له فى الوجود

فطلعت حرب المصلح كان قد رأى بثاقب فكره أن الخلاف الذى أقامه السفوريون لم يكن من الخلافات التى تستحق هذه الضجة كلها ، بدليل أننا كما قال طلعت : « قد رأينا رجالا فى غاية الأدب والكمال يشعرون ويتألمون ، بعيدين عن جمود الجنان ، ثابتى العزيمة — ولا يمنعنا التباين فى الرأى من التصريح بأن حضرة قاسم أمين بك وبعض أنصاره من بين هؤلاء — وكلهم كانوا أبناء لأمهات محتجبات ، وأزواجاً لزوجات محتجبات ، وآباء لبنات محتجبات ! » [1]

فاذا كانت النهضة النسوية الأخيرة قد اقترنت فى نظرنا بعدم احتجاب المرأة ، فان هذه سمة من سمات التطور العصرى ليس غير . أما نهضة المرأة فى ذاتها فلم تكن متعلقة إلى هذا الحد بالحجاب أو السفور ؛ بدليل أن عائشة التيمورية الأديبة الشاعرة المصرية بلغت هذه المكانة المعروفة لها فى حياة مصر الأدبية وهى محتجبة ، وأن باحثة البادية « ملك حفنى ناصف » الأديبة الكاتبة الخطيبة المصلحة بلغت هذه المكانة من حياة مصر الاجتماعية بالذات

---

(١) ص ٥١ — ٥٢ من كتاب فصل الخطاب فى المرأة والحجاب

وهي غير سافرة هذا السفور الذي عرفناه واعتدناه من حياتنا المصرية العامة إنما كان هم المصلح الشاب «طلعت حرب» منصرفاً إلى تثقيف المرأة.

وإذا لم يكن هو وحده الذي عني بمسألة تثقيفها فقد تفرد هو بتحديد لون الثقافة التي تقيها خطر ما ذهب إليه المتطرفون في دعواهم، فها هو ذا يقول:

«التعليم الذي لا بأس به أن يشترك البنات بالاشتغال فيه والانتفاع به متى آنس الانسان منهن رشداً واستعداداً له هو عبارة عن تعليم القراءة والكتابة ضمن تعليم القرآن الشريف وأمور الدين، لتعرف البنت ما يجب عليها وما يجب لها من الحقوق والواجبات ومبادىء الحساب والهندسة والجغرافية ومختصر تاريخ بلادهن، فان هذا يزيدهن أدباً وعقلاً، ويصلحن به لمشاركة الرجال في الكلام والرأي، فيعظمن في قلوبهم، ويعظم مقامهن لديهم»[1]

لن يكون هذا الرأي في تعليم الفتاة لرجل جامد يناهض حرية المرأة المعقولة، إنما هو رأي لرجل ناضج يسابق إحساسه تفكيره في الوقوف على ما هو صالح لبيئته التي يعيش فيها .... والواقع ماذا كان يمكن أن تحتاجه الفتاة المصرية من العلم في سنة ١٨٩٤ أكثر مما حدد لها طلعت حرب !!..

ومع هذا فان حرباً بعد أن ينصح بالحذر والحرص في تعليم المرأة وتثقيفها، وبعد أن يشرح ما ينبغي أن تكون عليه المرأة من العلم بالتدبير المنزلي، يعود فيقول في لهجته الاصلاحية الصريحة:

«.... على أن لا شيء يمنع المرأة من التوسع في العلوم والمعارف إذا وجدت عندها قابلية من نفسها، وكان وقتها يسمح لها به؛ كما أن لا شيء يمنعها عند اقتضاء الحاجة من أن تتعاطى من الأعمال بعض ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقتها»[2]

---

(١) ص ٥٧ «تربية المرأة والحجاب»

(٢) ص ٥٩ «تربية المرأة والحجاب»



في سباق الطيران

الآنسة لطفية النادى الفائزة في سباق الطيران في انتظار جائزتها من طلعت حرب باشا ، وقد ظهرت الي يساره وإلي جوارها السيدة هدى هانم شعراوى

الخصومة الفكرية التى تزعم طلعت طرفاً من أطرافها فى قضية تحرير المرأة لم تكن خصومة على التحرير الأدبى الصحيح للنساء ، إنما كان موضوعها فى نظره هذه الطفرة الطارئة التى لا مبرر لها فى حياة نسائنا ، وما وراء هذه الطفرة من شر يستغله الدخلاء والغرباء عنا فى مصالحهم المعنوية والمادية معاً

آية الشرف والرجولة فى هذه الخصومة أن أحد مؤلفى هذا الكتاب[1] كان قد اقترح على الاتحاد النسائى أن يحتفل فى أبريل سنة ١٩٢٨ بالذكرى العشرينية لوفاة قاسم أمين ، ولبى الاتحاد هذا الاقتراح . فما أن طلبت السيدة الزعيمة هدى هانم شعراوى إلى طلعت باشا إقامة حفلة ذكرى قاسم بمسرح حديقة الأزبكية، حتى بادر باجابة هذا الطلب دون تردد

أما الحقوق الاجتماعية أو الطبيعية للنساء فقد كان المصلح طلعت حرب

(١) حافظ محمود

فى مقدمة الذين يحققونها عملياً بعيداً عن المهاترات . وليس أدلّ على هذا من أن حرباً كان يشرف ذات يوم على تنظيم حفل من محافل بنك مصر، فلما ظن المنظمون أنهم أشرفوا على الكمال فى تنظيمهم ، نظر طلعت حرب قائلا :
« وأين مكان السيدات ؟ »

.... وإذن فقد أصبح تقليداً من التقاليد فى حفلات البنك واجتماعاته أن تشترك فيها المرأة اشتراكا فعليا بفضل زعيم مذهب المعتدلة فى الاصلاح الاجتماعى « محمد طلعت حرب »

وحى الايمان

« . . . إننا لا نكتب طمعاً فى أن ننال تصفيق الجهال وعامة الناس ، وإنما نكتب انتصاراً للحق وخدمة للدين »

كلمة قالها طلعت حرب حينما زج بنفسه فى ميدان الاصلاح الاجتماعى ... كلمة بليغة حقاً، لكن ما بال طلعت حرب الذى يشتغل بالحساب والقانون ويدبر الأموال ويديرها — ما باله يبدو كأنه أشد حرصاً فى أمور دينه عن شئون دنياه ! ؟

لا يتسع هذا الكتاب لشرح ما بين المبادىء المحمدية والحياة الاجتماعية، وما بينها وبين المبادىء القومية من صلات وثيقة ؛ لكننا نستطيع هنا أن نفسر موقف طلعت فى نقطتين اثنتين : —

أولا — أن الدين هو عماد الايمان ؛ والايمان هو سلاح الزعيم

ثانياً — أن الغرب قد انتهى فى نهاية القرن التاسع عشر إلى أن فى المبادىء الدينية المحمدية قوة روحية للشرقيين ؛ ولا بد لغزوهم أدبياً ومادياً أن تتزلزل أركانها

وآية هذا أن المسيو هانوتو وزير خارجية فرنسا ، وهو رجل فى منصب رسمى مسئول، أخذ ينشر الرسائل الجسة ضد العقائد الشرقية الاسلامية. وقد استطاع الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده أن يحفظ بردوده كرامة الاسلام والمسلمين ؛ وقد وجدت ردود الامام من يترجمها لهانوتو . . لكن هذا المجال كان ينقصه رجل قريب الثقافة من الغربيين ، يجيد لغتهم ويحذق أساليبهم ، ليرد لهانوتو حجته عليه . . . ولقد تهيب الكثيرون من أبناء الجيل الماضى أن يزجوا بأنفسهم فى هذا الموقف الخطير إلى أن ظهر المصلح

الشاب طلعت حرب على مسرح الحيـاة ، وكتب رده الفرنسى الشهير على المسيو هانوتو، فأوغر برده صدوراً وشرح صدوراً . . .

فلعل هذا الموقف فى حياة طلعت حرب — موقف المدافع الحق عن روحية قومه وكرامتهم الاجتماعية — لعل هـذا الموقف التاريخى النبيل هو الذى أوحى إلى نفس طلعت بايحاء الدين ، هذا الايحـاء الذى نلمسه فى كل موقف من مواقفه ؛ لا ينسى فيه اسم الله، ولا كلمة الله ، ولا مشيئة الله تعالى

ولعل لفظة « تعالى » هذه من أحب الألفاظ إلى نفس طلعت حرب، وأكثرها سبباً إلى التفاؤل فى نظره . فقد صادف أن وقع لطلعت حرب باشا بصفته مديراً لبنك مصر تقرير كتبه أحد كبار مرءوسيه ، ووقع منه على كلمة « إن شاء الله » ؛ فما كان من المصلح الكبير إلا أن أمسك بقلمه وأضاف اليها لفظة « تعـالى »

* * *

ترى هل هذا الرجل الراسخ العقيدة فى دينه ذو عصبية صماء إزاء الآخرين؟ لو لم يكن طلعت حرب قد غـدا زعيمنا الاقتصادى ، ولو لم يكن هو الذى يعامل الناس سواسية من كل دين ومن كل عصبية وجنسية ، ولو لم يكن هو الذى تعرف له عـدله واعتداله كثيرات من الدوائر الأجنبية فى الحيـاة العمليـة العامة فالتجأت اليه فى إدارة شئونها — لو لم يكن هـذا الرجل هو طلعت حرب لصعبت إجابة هذا السؤال . على أن الباحث لا يستطيع إلا أن يعترف لهذا الرجل الحريص أكبر الحرص على شئون دينه بأنه حريص على سماحة هذه الديانة السامية ذات العصبية المعتدلة المبصرة . وإن الباحث المخلص ليطمئن إلى هذا الاعتراف بعد أن يجد هذا الرجل فى فجر حياته منذ اثنين وأربعين عاماً يتمثـل بروح التسامح الذى جبل عليه السلطان الاسلامى العظيم «صلاح الدين » ، هذه الروح التى ظهرت حتى فى الحروب الصليبية ذاتها حيث يقول :

« ومع ما كان بين المسلمين والنصارى من اشـتداد الخطب واحتدام

الخصام، فان صلاح الدين الأيوبى لم يغفل طرفة عين عن العمل بقواعد حقوق الأمم التى جاء بها الكتاب المجيد؛ فانه كان حينما يعقد الهدنة، كان يدعو خصمه ريكاردوس — قلب الأسد — لتناول الطعام معه، كأنه لم يكن بينهما نزال ولا قتال، حتى إذا رجعا إلى اشتباك الأسنة كانا يستميتان فى القتال » [1]

هذه هى الشرعة الخلقية التى أحسن طلعت حرب فهمها على أجمل وجوهها منذ فجر الحياة، فاتخذها غاية ومثالا عالياً للهدى فى إصلاحه الاجتماعى.

---

(١) ص ١٦ من « كلمة حق عن الاسلام والدولة العثمانية »



الحساب فى حياة طلعت حرب — ساهر على مصالح مصر — تحقيق تاريخى فى مشروع قناة السويس — تحقيق سياسى فى إنشاء القناة — تحقيق اقتصادى فى شركة القناة — الدفاع عن حق الوطن

الحساب

فى حيـــاة طلعت حرب

ننتقل الآن إلى الدور الثانى من حياة طلعت العملية العامرة بجلائل الأعمال؛ فاذا هو رجل قد اشتهر بالأمانة المحمدية، والادارة النابغية، تتقاسم وقته الدوائر والشركات — وكذلك ينبىء ماضى الرجل عن مستقبله!

وقفنا فى الدور الأول إلى طلعت حرب فى حياته العملية الخاصة، مديراً لمركز شركة كوم امبو الرئيسى بالقاهرة، ومديراً للشركة العقارية المصرية أيضاً

وقفنا إليه ودوائر الممولين تستغيث بفضله وخبرته، لتوجيه دفتها إلى ما فيه صلاحُ شئونها... وها نحن أولاء نلتقى به فى هذا الدور وقد ترأس جمهوراً من موظفى النواحى التى يديرها، اشتغالهم كله بالحساب.. وها هو ذا يلمح من مرءوسيه بضعة شباب من الفتية الذين نبغوا فى العمليات الحسابية، فيتكشف أمام الرجل الملهم أفق جديد من الحياة، هو أفق الحساب...

إن هذا الحساب شىء عجيب!!.. إن عملية حسابية واحدة قد تكون سبباً فى إنقاذ موقف خطير

لقد جرب طلعت قيمة العملية الحسابية بنفسه ، حينما طلب إليه أن يشرف على دائرة صديق من كبار أصدقائه . . . كان هذا الكبير كريماً مسرفاً . فأراد طلعت — فيما يروى الرواة — أن يحد من إسرافه . فقال له : يا صديقى ، إن لى — بصفتى مشرفاً على إدارة أموالك — طلباً واحداً منك . قال : ما هو ؟ . . . . قال : أن تدون لى فى نهاية كل يوم ما تكون قد أنفقته فى سحابة يومك ، ثم ترسل إلىّ بهذا البيان المدون

فلما عمل صديقه الباشا بما أشار به عليه المدير ، أحس على مر الأيام بالخجل يخالج نفسه ، من تكرار إثبات أرقام معينة كبيرة فى أغراض معينة تافهة ؛ ولم يجد مناصاً من أن يصدف عن هذه الأغراض التى كانت تضطرب لها ماليته العظيمة أحياناً . . . وإذن فقد نجحت العملية الحسابية فى عالم الاصلاح نجاحاً كبيراً

آمن طلعت حرب بالحساب ؛ وكيف لا يؤمن طلعت بالحساب والله ذاته جل جلاله يحاسب الناس عن كل كبيرة وصغيرة ؟ . ولقد كان لهذا الايمان العملى أثر عميق فى حياة الزعيم

أحس الرجل الذى حفلت به الدنيا أنه ليس رجلَ نفسِه بقدر ما هو رجل الأمة ، وأن لزاماً عليه أن يوفق بين هذه الصفة وبين حياته العملية الخاصة ؛ فكان مكتبه فى الواقع أول معهد من معاهد الحساب فى مصر ، ولقد مارس المحاسبة فيه شباب غدوا قدوة المحاسبين فى بنك مصر وشركاته فيما بعد . . . وكانت لمنشىء هذا المعهد طريقته الحسابية المثلى فى معاملته لأولئك الشباب :

كان يوزع عليهم الأعمال بنسب متساوية ، ويوزع أجورهم وتكاليف مكتبه على دوائر العمل التى يشرف عليها أو يديرها — كل دائرة بما يتفق مع نطاق عملها

بهذه الطريقة الحسابية الطريفة كان يخفف عبء العمل عن الموظفين ،

وكان يخفف عبء المصروفات عن أصحاب رأس المال

على أن عقلية طلعت الحسابية قد لعبت فى حياته دوراً أخطر من هذا الدور ، وأثرت فى حياة بلاده أثراً من الآثار المقطوعة النظير ، يوم أن وقفت شركة قناة السويس وطبقة المستعمرين فى جانب ، والأمة المصرية وطبقة المجاهدين فى جانب ؛ وكان لابد لفض المشكلة التى بينهما من حساب عظيم . . . الشىء الذى أنت موشك أن تطالعه فتعجب به كثيراً . .

ساهر على مصالح مصر

فى يناير سنة ١٩١٠ كانت شركة قناة السويس قد تطلعت إلى مد مدة امتيازها أربعين عاماً فوق التسع والتسعين سنة التى لها ، والتى تنتهى فى نوفمبر سنة ١٩٦٨ . . ولقد أيد هذا الطلب المستشار المالى « الانجليزى » بوزارة المالية المصرية بمذكرة مسهبة يبرر فيها مد زمن الامتياز المطلوب للشركة

عرض هذا الطلب مصحوبا بمذكرة المستشار المالى على مجلس النظار فى ٢٧ يناير سنة ١٩١٠ ، فأصدر فيه قراراً بالرفض رفضاً فيه شبهة القبول ؛ إذ أجاز المجلس قبول مشروع مدّ الامتياز بعد إدخال تعديلات أهمها أن الحكومة تستحق نصف أرباح الشركة بعد سنة ١٩٦٨ التى تنتهى عندها المدة الأصلية لامتيازها ، وأن الحكومة لا تكون مسئولة عن معاشات موظفى الشركة فى سنة ٢٠٠٩ ، أى فى آخر المدة المحددة لنهاية الامتياز

كان هذا الموضوع هو شغل الأمة الشاغل وموضع حيرتها سنة ١٩١٠ ؛ وكان لابد من معبر صادق أمين يجلو الحقيقة فى مرآتها ، ويخرجها من حيرتها إلى يقين الدفاع عن حقوقها . . . ولقد شاءت الارادة السماوية العليا أن تكل الدفاع عن حق الأمة فى هذا الموقف إلى رجل أدخره ضمير الوطن لركن من أركان الزعامة ، منذ فجر حياته : هو محمد طلعت حرب باشا

حمل وكلاء الأمة حملاتهم الشهيرة ضد هذا المشروع فى الجمعية العمومية التى كانت لها بعض الصفات البرلمانية إذ ذاك . على أن طلعت ، الذى لم تكن تقيده السياسة ولا المناصب السياسية . قد استطاع أن يكون سباقاً إلى لون فعّال جديد من الدفاع

درس طلعت التاريخ المصرى دراسة قوية على ضوء علمه ووطنيته وثقافته الاقتصادية الجديدة الحرة ، التى تتلمذ فيها على وحى عبقريته . فلما حشد الاستعماريون حشدهم داعين إلى مدّ امتياز شركة القناة ، هذه الشركة التى ربحت من مصر كل شىء ، وخسرت فيها مصر كل شىء تقريباً ، تطلعت أنظار مصر إلى رجل غزير المادة ، قوى اليقين ، يظهر الناس على الحلقات المفقودة من تاريخ هذه الشركة ، ويبين للناس حسابها وحظ مصر المفقود من هذا الحساب . . وبينما كان الناس يتلفتون ببصرهم وبصيرتهم عن هذا الرائد ، الذى يدل قومه على مواطن الخطر فى هذا الموقف ، ويلزم خصومهم الحجة الدامغة إزاء حججهم المزعومة — إذ برز إلى الميدان هذا القائد المصلح ، الذى شهدناه فيما فات واقفاً بالمرصاد إزاء نوايا الحركة الفكرية الاستعمارية فى حياة المجتمع المصرى ، ذلك هو « محمد طلعت حرب » !

لقد انتفع طلعت حرب من تجاربه « الحسابية » الجديدة ، لكن مجده الوطنى أبى إلا أن ينفع بهذه التجارب وطنه ؛ فبعد أن كان متجهاً فى إصلاحه هذا الاتجاه الأدبى الذى نلمسه فى دفاعه عن التوازن الاجتماعى فى قضية تحرير المرأة ، إذا بنا نراه قد اتجه فى اصلاحه اتجاهاً علمياً عملياً فى دفاعه عن الحقوق الوطنية فى مسألة قناة السويس

أخرج « محمد طلعت حرب » دفاعه فى كتاب « قناة السويس » الذى طبعه ونشره على المواطنين فى أوائل سنة ١٩١٠ ؛ وهو كتاب اقتطفه كاتبه من شجرة الخلد ، فكان الوثيقة القوية فى يد الذين دافعوا المشروع وعارضوه ثم رفضوه ، وما يزال الوثيقة الحية التى ينبغى أن تحفظها الأجيال المتعاقبة ؛ ليعرف منها الشباب المصريون مالهم وما عليهم فى الركن الخطير من قضية الوطن

هذه الوثيقة هى القصة الحقيقية الرائعة لقناة السويس التى سجلها طلعت حرب فى كتابه تسجيلا علمياً وطنياً دقيقاً أميناً ، يحمل من روح الجبار طابعاً ،

لا يستطيع الكاتب أن يصور لك حرباً من غير أن يسجل فى صورته هذا الطابع القوى الجميل . . . وها نحن أولاء نقدم لك فى الصفحات التالية موجزاً مختصراً من رسالة « قناة السويس » ، لتعرف كيف كان المصلح يعالج أخطر دور اصطدمت فيه الوطنية الاقتصادية بالسياسة الاستعمارية فى تاريخ مصر الحديث

تحقيق تاريخى فى مشروع القناة

كتب الفيلسوف الألمانى ليبنتز (Leibnitz) تقريراً للويس الرابع عشر ملك فرنسا يقول فيه :

« إذا أردت أن تضرب هولندا فى مقتلها ، فأمامك مصر : فانك تنال منها فيها ما لا تناله ببلادها نفسها ؛ لأن هولندا أمة تجارية ، وحياتها فى بقاء تجارتها ؛ فاذا زحفت على مصر وأخذتها ، وحفرت ترعة السويس ، احتكرت لبلادك جميع التجارة ، وأمتّ هولاندا وغيرها ، وأصبحت سيد الهند وبلاد الشرق ، وقطعت طريقها على من عداك . وزد على ذلك أنك تنال أجراً كبيراً عند الله وعند النـاس ، إذ تخلص هذه البقعة المباركة من أيدى المسلمين الذين لا يليق بالأمم المسيحية أن تسكت على بقائها فى أيديهم »

أصبحت هذه الغـاية التى رسمها ليبنتز هدفاً من أهداف الجهاد فى نظر الفرنسيين ، واتخذ هـذا الهدف لوناً من القداسـة حتى تعرضت لتحقيقه فى أوائل القرن التاسع عشر جماعة السان سيمونيين[1]

كان نابليون بونابرت قد تأثر بهذا الهدف ، وأوعز إلى بعثته العلمية التى وفدت معه الى مصر أن تدرس مشروع فتـح قناة السويس . ولقد أشـارت هذه البعثة إلى هذا المشروع فى كتابها « وصف مصر » ، ثم فصلت هذا المشروع بهذا الـكتاب تفصيلا فنياً دقيقاً . . . إلا أن الأيام لم تتح لنـابليون أن ينفذ هذا المشروع

---

(١) السان سيمونيون جماعة من الفلاسفة المسيحيين ، كانوا يدعون إلى إسعاد الانسانية بايجاد الروابط عن طريق تخطيط المواصلات الجديدة لربط العالم كله برباط واحد . فضلا عن أنهم كانوا من أول الذين نادوا بالاشتراكية فى العالم

فلما استقر الحكم فى مصر لمحمد على باشا الكبير ، وكان محمد على صديقاً للفرنسيين ، أرادت جماعة السان سيمونيين — وعلى رأسها الأب «أنفانتين» — أن تعمل على فتح القناة ، وجاء رئيسهم بالفعل إلى مصر لهذه الغاية . لكن صفته الدينية فى سائر أعماله كانت فى مقدمة العوائق التى جعلت فكرة هذا المشروع تهبط فى عهد محمد على وابراهيم وعباس الأول

ثم جاء دور «فردينان دلسبس» . . . وفردينان دلسبس كان رجلا من رجال فرنسا الذين شغلوا مناصب سياسية رفيعة فى الخارج ، ثم انتهى إلى المشروعات العامة التى تجمعت برأسه وتلخصت فى مشروع فتح قناة السويس

قرأ فردينان كل ما كتب عن القناة المنشودة ، وزار مصر وعاين بنفسه وبواسطة بعض خلصائه من المهندسين الموقع الذى ينبغى أن يكون للقناة ؛ وسعى السعى الحثيث ليستصدر من صاحب مصر أمراً بشقها ،ففشل كما فشل غيره إلى عهد عباس الأول

. . . . وذات يوم من أواخر أيام سنة ١٨٥٤ تسلم فردينان دلسبس خطاباً بوفاة عباس الأول فجأة ، وانتهاء الحكم فى مصر إلى سعيد باشا ؛ فرقص قلبه تفاؤلا وطرباً ، لأن «سعيد باشا» كان رفيق صباه فى عهد التثقيف بباريز ، كما كان هو رفيق شبابه بمصر حين زارها فى عهد محمد على باشا الكبير . . . وإذن فقد كتب إلى سعيد والى مصر يهنئه بولايته ، ويتواعد وإياه على اللقاء لتقديم فروض التهنئة شخصياً

جاء دلسبس إلى مصر من فوره للزيارة ، لكن هذا الزائر لم يبرح الديار ، ولم يبرح ظله ظل الوالى يوماً واحداً !! . . . . كان دلسبس على قوة الصلة التى بينه وبين سعيد باشا وجلا من مفاتحته بمشروعه ، إلى أن كانا ذات صباح فى نزهة خلوية من نزهات الصيد على ظهور الخيل . وفى معيتهما طائفة من كبار الضباط وشرذمة من الجنود

هناك أدهش دلسبس الجميع بعدوه وقفزه بجواده فوق الحواجز العالية وإصابة الهدف الذى عجز الجند عن إصابته ببنادقهم . ويقول بعض المؤرخين : إن هذا الحادث العرضى جعل من فرديناند دلسبس رجلا ثقة فى نظر رجال الدولة ، فعادوا يتمدحون بعبقريته ورجاحة فكره ؛ وكان الرجل نهازاً للفرص ، ففاجأ سعيداً بمشروعه فى أسلوب شاعرى أراد به أن يقنع والى مصر بانسانية هذا المشروع وعظمته التاريخية . وما زال بالأمير يبثه خياله وأحلامه المعسولة حتى استهواه المشروع ، ووافق عليه موافقة مبدئية

أعد دلسبس بيده فرمان مشروع قناة السويس ، ووقع عليه سعيد باشا فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ ؛ لكنه علق إعطاء الصفة النهائية لمشروعية فتح القناة على تصديق الباب العالى على هذا الفرمان

بادر دلسبس بالسفر إلى الآستانة ؛ وكان هناك سفير انجلترا بالمرصاد لهذا المشروع . وظل الرجلان يتساجلان لدى الدولة العلية ؛ والدولة حائرة بين إرضاء انجلترا الحليفة ، وبين حجة فرنسا أن الانجليز لم يتدخلوا لدى الباب العالى بصفة رسمية ضد المشروع ؛ وبين هذين وبين إرضاء سعيد باشا الذى لم يتوان عن إمداد السلطان بالمال والرجال فى حروبه المتواصلة

طالت إقامة دلسبس بالآستانة ، وتكررت زيارته لها ؛ فاكتفى بأن يحصل على كتاب من الصدر الأعظم يتضمن عدم كراهته مشروع قناة السويس أو عدم معارضته ؛ وعاد إلى مصر ، فسبقته الرسائل إلى واليها من بعض كبار رجال الدولة العثمانية تحت تأثير إيحاء السفير البريطانى ، وكلها مهاجمة للمشروع وتفنيد لفكرته ؛ وكانت هذه الرسائل سبباً من الأسباب فى إقالة الصدر الأعظم !

جاء دلسبس إلى مصر مرة أخرى يحمل جعبة كبيرة من الاغراء للأمير كى يأمر بالتنفيذ ، وما زال دلسبس يرسم الخطط لتنفيذ مشروعه ... وكان فى مقدمة هذه الخطط السفر إلى لندن ، وتكوين رأى عام عن طريق الصحافة لمصلحة المشروع ضد رجال الدولة الانجليزية الذين يعارضونه معارضة

شديدة . . . وأخذ دلسبس يلقى الخطبة تلو الخطبة ، دعاية عن مشروعه ، إلى أن بلغت خطبه عشرين خطبة . . . ثم استعان بتصريح من « مترنيخ » رئيس حكومة النمسا ، شيخ سياسيي العالم فى زمانه ، لتأييد المشروع

لم يكتف الرجل بهذا كله ، بل ألف لجنة من كبار مهندسى العالم مختلفة أجناسهم ، وجاء بهم إلى مصر ، واستكتبهم تقريراً بوجاهة فكرته فنياً وجغرافياً ودولياً ؛ واعتبر هذا التقرير الصادر من رجال فنيين ذوى مراكز عالية فى مختلف الأمم الأوربية سنداً عظيما للتنفيذ . . . فخلف معارضة انجلترا الشديدة جانباً واستصدر ـ تحت تأثير الالحاح العاطفى على سعيد باشا ـ فرماناً جديداً بالتنفيذ ؛ وكرر تاريخ الحوادث نفسه ، فأبى الأمير إلا أن يجعل الصفة القطعية لهذا القرار متعلقة بالباب العالى

فلما لم يبد الباب العالى اعتراضاً أو موافقة ، اعتبر فردينان دلسبس أمر هذا الفرمان نافذاً ، وشرع فى تشكيل الشركة التى تنفذه ! . . . وخلص الله الأمير سعيداً من ورطة الخلاف الدولى على تشكيل هذه الفكرة بأن ضمه إلى فسيح جواره فى يناير سنة ١٨٦٢

توفى سعيد باشا بعد أن كان دلسبس قد اعتمد على تصريحاته ، فبادر بتنفيذ مشروع شركة فتح القناة بالفعل ، وأعلن تأسيس الشركة وافتتاح الاكتتاب فيها على أساس كونها شركة مساهمة رأس مالها ٢٠٠ مليون من الفرنكات ، مقسمة إلى ٤٠٠ ألف سهم ، قيمة السهم الواحد ٥٠٠ فرنك

حارب الانجليز هذه الشركة فى صحفهم حرباً عواناً أخاف الكثيرين من أرباب الأعمال فى سائر بلاد العالم أن يكتتبوا فى أسهمها ؛ لكن دلسبس الذى لم يكن ليهدأ باله قبل تنفيذ مشروعه ، استطاع أن يجعله اكتتابا شعبياً . وتعصب الفرنسيون لمواطنهم ، فاكتتبوا وحدهم فى ٢٠٧١١١ سهماً . وأسفرت نتيجة الاكتتاب عن توزيع باقى الأسهم كما يلى : —

٤٠٤٦ اكتتب بها الأسبانيون ؛ و ٢٦١٥ اكتتب بها الهولانديون ؛

و ١٧١٤ اكتتب بها التونسيون ؛ و ١٣٥٣ اكتتب بها الايطاليون ؛ و ٩٦٥١٧ اكتتب بها سعيد باشا باسم مصر والدولة العثمانية ؛ و ٨٥٥٠٦ كان دلسبس قد تركها لسائر الأمم ، فلم يكتتب بها أحد ، فأضيفت إلى حصة مصر ؛ وقد أصبحت بعد هذا ١٧٧٦٤٢ سهماً ، أى أن حصة مصر قد أصبحت توازى خمس أسهم الشركة تقريباً ، وهى الحصة التالية لحصة فرنسا مباشرة . ولم تكتتب بقية الأمم الأخرى إلا فى ١٠٤١ سهماً ، اكتتب بها سبعة بلاد من أقطار أوربا !!

كان طبيعياً أن الانجليز أصحاب رءوس الأموال الكبيرة لم يكتتبوا فى سهم واحد . وكان هذا الامتناع من جانبهم طبيعياً بعد أن ظلوا خمسة عشر عاماً يحاربون المشروع حرباً جدية . ومع أن الامتناع كان ضربة قوية ضد دلسبس ، ولاسيما أن المبالغ المكتتب بها لم تكن هى القيمة الكلية للأسهم ، ولم يكن حملة الأسهم أنفسهم من أصحاب المال الذين يطمئن صاحب المشروع إليهم — مع هذه الضربة القوية سار الرجل فى تنفيذ خطته جباراً عنيداً ؛ واعتمد على إذن سعيد له باجراء الأعمال التحضيرية ، فتدرج من الأعمال التحضيرية إلى صميم أعمال الحفر !

هال الانجليز ما يعمل دلسبس ، فاحتجوا لدى سعيد باشا ، فأرسل وزير خارجية مصر إلى دلسبس يحتج بدوره على هذه الأعمال التى تعدت إذن الوالى . . . لكن دلسبس كان قد نسى الصداقة والعرف السياسى وراءه معاً ، فأجاب على الوزير بأنه لن ينقطع عن عمله بعد أن تألفت للمشروع شركة مالية مساهمة ، لفرنسا المصلحة الكبرى فيها ؛ وأنه إذا اتخذت الحكومة المصرية أى إجراء لتوقيفه عن العمل ، فسوف يحمل سعيد باشا (صديقه الحميم) كل الخسارات الفادحة التى تترتب على الايقاف

كانت هذه هى أول مكافأة قدمها فردينان دلسبس إلى الأمير ، لكن الأمير كان فى طريقه إلى الله . . .

تحقيق سياسى فى انشاء القناة

ولى اسماعيل باشا الحكم وهذه هى الحال إزاء مشروع قناة السويس . وقد تدخل الباب العالى فى الأمر ، فامتنعت حكومة مصر عن توريد العمال ، وتعطل العمل فى حفر القناة حيناً ؛ لكن مياه البحر كانت قد وصلت إلى بحيرة التمساح ؛ ولم يستطع رجال الشركة التقهقر ، فتقدموا بمطالبهم إلى الخديو اسماعيل أمير مصر الجديد ؛ فاستند اسماعيل على كون الشركة لم توف العمال المصريين أجورهم ؛ وبما أن فى هذا إخلالا بالعقد الذى بين الأمير السالف وبين الشركة، فهو لا يرى مانعاً من إخلال الحكومة المصرية هى الأخرى برغبات الشركة . . . وأضاف إلى هذا أنه مع كل الذى حدث ، يقبل تحكيم نابليون الثالث صاحب فرنسا فى هذا الأمر

أجل ... لكن هذه القضية كانت قد أخذت ـ بصفة غير ظاهرة تماماً ـ عصبية دولية فى فرنسا ؛ فلما احتكموا إلى نابليون الثالث — وكان هناك ثمة خلاف آخر بين الشركة وحكومة مصر على الأراضى التابعة لميادين المشروع بالصحراء وبمديرية الشرقية ذاتها — حكم صاحب فرنسا بالزام مصر بدفع ٨٤ مليوناً من الفرنكات للشركة ! !

كان الخديو اسماعيل ، قبل أن يعرف نوايا فرنسا ، قد قبل هذا التحكيم ؛ فأصبح الحكم نافذاً . . . وكانت حالة مصر الاقتصادية تنتقل كل يوم من سوء إلى أسوأ ، فلم تكن لديها المالية التى تسدد منها هذه الغرامة أو هذا التعويض الفادح ، وبقيت حصة الحكومة فى يد الشركة ضامنة لديها ، ولم تستفد الحكومة من أرباح سهومها خمسة وعشرين عاماً ! !

مهما يكن من شىء فقد افتتحت القناة رسمياً فى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩.

وقد احتفل الخديو اسماعيل بهذا الافتتاح احتفالا رسمياً مقطوع النظير ، تكلفت له خزائن مصر مليوناً ونصف مليون من الجنيهات ؛ وقد حضر هذا الاحتفال من ملوك أوربا وملكاتها وأمبراطوراتها الكثيرون

افتتحت القناة ولم تكن حالة الشركة المالية فى السنين الأولى من افتتاحها إلا حالة عسرة ، لكن الشركة استطاعت أن تعقد القروض واحداً بعد الآخر حتى سار دولاب أعمالها سيراً حثيثاً إلى الأمام ، وأخذت الأرباح تزيد سنة عن أخرى

ذلك بينما كانت مالية مصر تزداد سوءاً سنة عن سنة ، حتى اضطرت الحكومة المصرية فى سنة ١٨٧٥ أن تطلب قرضاً من الخارج ، وأراد فرنسيو شركة القنال أن يعقدوا لها هذا القرض من بنوك فرنسا ؛ لكنهم لم يفلحوا . وهنا تحفز الانجليز وتدخلوا فى مسألة استدانة مصر ، وقدموا إلى الخديو اسماعيل ١٠٠ مليون فرنك أو يزيد ، وتسلموا منه أسهم مصر فى قناة السويس

لعل أدل الأدلة على قوة رغبة الانجليز فى السيطرة على شركة القناة التى كانوا يعارضون فى فتحها ، أن الحكومة أتمت هذه الصفقة ، وعقدت مع بنك روتشيلد بلندن قرضاً لاتمامها قبل أن يصدق البرلمان الانجليزى على إجرائها !

تحقيق اقتصادى فى شركة القناة

لم تبق لمصر إلا أرباح حصتها التأسيسية . . . لكن ما كادت تجىء سنة ١٨٨٠ حتى كانت الحالة المالية قد اضطربت ثانية ؛ فباعت حصتها نظير ٢٢ مليون فرنك للبنك العقارى الفرنسى ، الذى أسس لاستغلال هذه الحصة شركة كان نصيبها من الربح عام ١٩٠٨ فقط ١٠ر٧١٧ر٧٧٤ فرنكا

ثم جاءت سنة ١٨٨٢ ، وجاء معها الاحتلال البريطانى على أثر الثورة العرابية فى مصر ، فاحتل الانجليز قناة السويس احتلالا عسكرياً . ولم يكن هذا الاحتلال بمانع للملاحة التجارية ؛ إلا أن الدول الأخرى ـ وفى مقدمتها فرنسا ، قد هالها الأمر ، وأرادت أن تكون القناة منطقة دولية محايدة ؛ وعقد لهذه الغاية مؤتمران : مؤتمر باريس سنة ١٨٨٥ ، ومؤتمر بالآستانة سنة ١٨٨٨ . وقد قرر قرار المؤتمرين على حيدة القناة وعدم احتلالها أو احتلال الأرض التى حولها إلى بُعد ثلاثة أميال احتلالا عسكريا

وقد ظلت انجلترا السنين الطوال ترفض التصديق على هذا القرار إلى أن جاءت سنة ١٩٠٤ ، وتم الاتفاق الاستعمارى فى الشرق بين الانجليز والفرنسيين ؛ فصدقت انجلترا على هذا القرار . . . لكن بعد أن كان الانجليز قد أصبحوا من ذوى المصالح والنفوذ الأكبر فى القناة وشركة القناة

« هذه هى مجريات حوادث شركة القناة إلى الآن ؛ تتلخص فى أنه بعد أن كادت الشركة تقع فى الافلاس فى أول عهدها ، وهبطت أسهمها إلى ١٦٠ فرنكا بدل ٥٠٠ ، أصبحت الآن تباع أسهمها بسعر مائتى جنيه ؛ وبعد أن كانت حصة التأسيس فيها لا قيمة لها ، أصبحت الحصة الواحدة تباع وتشترى بنحو مائة ألف جنيه ؛ ولغلوها قسمت الواحدة إلى ألف جزء »

«وبعد أن كانت تصدر بونات بدل الكوبونات المتأخرة ، وتدفع عليها فائدة ٥ فى المائة ، أصبحت توزع أرباحا بواقع ١٥١ فرنكا عن كل سهم ، و٧١٤٨٩ فرنكا عن كل حصة تأسيس»

«وبعد أن كان دخلها لا يفى بمصروفها ، أصبح يربو على المائة وعشرين مليوناً من الفرنكات. أما مصر فلم يبق لها فيها لا سهم ولا حصة ؛ واستفاد كل العالم من القناة إلا هى ، حتى إن الحكومة الفرنسية تقبض كل سنة الملايين من الفرنكات رسوما على الكوبونات والأرباح التى تصرف فى بلادها»[1]

* * *

وإليك بياناً عما سلف بالأرقام . ونحن وإن كنا لم نورد فى جداولنا التفاصيل الحسابية الفياضة التى أثبتها المصلح العظيم فى كتابه «قناة السويس» ؛ إلا أننا أردنا أن نعطيك بهذا البيان صورة حيّة من الجهد الجبار الذى بذله لاظهار حق الوطن على حجج المعتدين. ونحن والبيانات التالية إنما نقيم الدليل على أن طلعت قد ارتفع بتجاربه الحسابية الجديدة عن مصالح الأفراد والشركات والجماعات إلى مصلحة أمة بأسرها

---

(١) ص ٩٨ من كتاب قناة السويس

ميزانيـــة الشركة　　　　أصـــول

سنتيم	فرنك	
٨٧	٦٢١٫١٩٧٫٩٧٩	تكاليف القناة وما صرف فى تحسينها حتى آخر سنة ١٩٠٧
١٥	١٢٫٣٥٠٫٠٨١	صرف عام ١٩٠٨
٢	٦٥٫٢٤٣٫٩٤٥	موجودات الشركة من أدوات ومهمات حتى آخر سنة ١٩٠٨
١	٨٩٫٣٢١٫٨٤١	نقدية بالصندوق أو البنوك وأوراق وذمامات مطلوبة حتى آخر سنة ١٩٠٨
٠٥	٧٨٨٫١١٣٫٨٤٧	

سنتيم	فرنك	
—	٢٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠	رأس مال الشركة وهو ٤٠٠ر٠٠٠ سهم فى ٥٠٠ فرنك
—	٩٩ر٩٩٩ر٩٠٠	سلفية سنة ١٨٦٧ — ١٨٦٨ وقدرها ٣٣٣ر٣٣٣ سنداً قيمته الاسمية ٥٠٠ فرنك وسعر إصداره ٣٠٠ — ٥ ٪ على قيمته الاسمية
—	١٢ر٠٠٠ر٠٠٠	سندات سنة ١٨٧١ مقدارها ١٢٠ر٠٠٠ أصدرت بسعر ١٠٠ فرنك وتدفع بسعر ١٢٥
—	٣٤ر٠٠٠ر٠٠٠	بونات، بدل متجمد الكوبونات المتأخر، ٤٠٠ر٠٠٠ سند سعر ٨٥ فرنكا فائدة ٥ ٪
٨٥	٢٦ر٩٩٩ر٩٦١	سلفية سنة ١٨٨٠ قدرها ٧٣ر٠٢٦ سنداً ٣ ٪ (أول دفعة) أصدرت بسعر ٣٧٠ فرنكا وتستهلك بسعر ٥٠٠ فرنك
٣١	٩٩ر٩٩٩ر٥٣٧	سلفية سنة ١٨٨٧ قدرها ٢٣٨ر٩٦٤ سنداً ٣ ٪ (ثانى دفعة) قيمة السند الاسمية ٥٠٠ فرنك وقيمة الاصدار ٤١٤
—	٨٤ر٠٠٠ر٠٠٠	متحصل من الحكومة المصرية بناء على تحكيم نابليون الثالث
—	٣٠ر٠٠٠ر٠٠٠	متحصل منها بدل كوبونات أسهمها مدة ٢٥ سنة
٣٠	٣٧ر١٧٤ر٣٠٧	إيرادات مختلفة قبل فتح القناة كفوائد ناتجة من تشغيل النقود المتوفرة وثمن أراض وغير ذلك
٤١	٤٩ر٨٣٧ر٦٤٧	حاصل الاستهلاكات
٤٦	٢٩ر٨٦١ر٨٢٩	الاحتياطى القانونى
٨٨	٨٤ر٠٥٩ر٣٦٤	مطلوبات من الشركة باقى أرباح سنة ١٩٠٧ ، سنة ١٩٠٨ تحت الصرف
٨٤	١٨١ر٢٩٨	مترحل للسنة المقبلة
٠٥	٧٨٨ر١١٣ر٨٤٧	

القيمة النقـــدية للقناة

فى نهـاية سنة ١٩٠٩

	فرنك
١) أسهم رأس المال أصلها ٤٠٠ر٠٠٠ سهم وباق منها بعد الاستهلاك ٣٨٠٥٥٤ وذلك حتى يوم ٣١ ديسمبر سنة ١٩٠٩ ببورصة باريس ٥٠١٠ فرنكات فيكون الثمن	١ر٩٠٦ر٥٧٥ر٥٤٠
٢) أسهم انتفاع قدرها ١٩٤٤٦ سعر الواحد منها ٤٢٦٥ فرنكا	٨٢ر٩٣٧ر١٩٠
٣) حصص تأسيس أصلها ١٠٠ وقسمت كل الى ألف قسم ثمن القسم ٢٢٤٨ فرنكا	٢٢٤ر٨٠٠ر٠٠٠
٤) حصة الحكومة المصرية التى تنازلت عنها للشركة المدنية قسمت إلى ٨٤٥٠٧ أجزاء كل جزء قيمته ٣٥٢٠ فرنكا قيمة سندات الديون الباقية بدون استهلاك لغاية آخر سنة ١٩٠٩	٢٩٧ر٤٦٤ر٦٤٠
٥) سلفية سنة ١٨٦٧ أصـــلها ٣٣٣ر٣٣٣ مستهلك منها ٢٠٨ر٤٩٥ ١٢٤ر٨٣٨ ثمن كل سند ٦١٤	٧٦ر٦٥٠ر٥٣٢
٦) باق ثمن الوثنات لسنة ١٨٧٥ بدل متجمد أصــله ٤٠٠ر٠٠٠ استهلك منه ٢٢ر٧٢٧ ٣٧٧ر٢٧٣ فى ٨٩ فرنكا	٣٣ر٥٧٧ر٢٩٧
٧) باق من سلفية سنة ١٨٨٠ أصــله ٧٣٠٢٦ أستهلك منه ٩٠١٤ ٦٤٠١٢ فى ½ ٤٧٥ فرنك	٣٠ر٤٣٧ر٧٠٦
٨) باق من سلفية سنة ١٨٨٧ أصــله ٢٣٨٩٦٤ استهلك منه ٥٥٧٨ ٢٣٣٣٨٦ في ½ ٤٦٩ فرنك	١٠٩ر٥٧٤ر٧٢٧
	٢ر٨٠٢ر٥٨٠ر٩٩٢

هذا المبلغ يساوى ١٠٨ر١٠٩ر٥٦١ جنيها و ٧٦٦ مليا

خسارة مصر فى المشروع

إلى سنة ١٩٠٩

		فرنك
ثمن الأسهم التى كانت لها وعددها ١٧٦٦٠٢		٨٨ر٠٠٠ر٠٠٠
التعويض الذى حكم به على مصر نابليون الثالث		٨٤ر٠٠٠ر٠٠٠
ثمن حقوق وأبنية تنازلت مصر في نظيرها عن كوبونات أسهمها ٢٥ سنة		٣٠ر٠٠٠ر٠٠٠
فوائد بسعر ١٢ر١٤ ٪ وخصم وعمولة للحصول على دفع المبالغ المذكورة للشركة		١٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠
نفقات حفلة افتتاح القناة حسب تقدير على باشا مبارك		٣٨ر٠٠٠ر٠٠٠
ماهيات لموظفين ساعدوا فى أعمال القناة وأجر النقل وتكاليف الترعة الحلوة من القاهرة وما صرف فى الآستانة بخصوص القناة وما تبرع به سعيد باشا قبل تأسيس الشركة . . الخ		٦٠ر٠٠٠ر٠٠٠
مادفعته مصر إلى انجلترا فائدة على ثمن الأسهم بدل الكوبونات التى كانت قد تنازلت عنها للشركة مدة ٢٠ سنة :		
فرنك	١٠٠ر٢٠٩ر٨٦٠	
ناقص المبلغ الذى تنازلت مصر في نظيره عن الكوبونات	٣٠ر٠٠٠ر٠٠٠	٧٠ر٢٠٩ر٨٦٠
		٤٧٠ر٢٠٩ر٨٦٠
يخصم من ذلك		
قيمة ما قبضته مصر من انكلترا ثمن أسهمها	١٠٠ر٢٠٩ر٨٦٩	
قيمة ما باعت به مصر حقها فى الأرباح بواقع ١٥ ٪	٢٢ر٠٠٠ر٠٠٠	١٢٢ر٢٠٩ر٨٦٩
		٣٤٧ر٩٩٩ر٩٩١

وهذا المبلغ عدا الخسارة التى خسرتها مصر من رسوم وأجر مرور بضائع بيلادها لو لم تنشأ القناة

الدفاع عن حق الوطن

لعلك الآن توافقنا، بعد هذا كله، على أن كل وصف أو تعليق على الوثيقة التاريخية العظيمة التى كتبها طلعت حرب تحت عنوان « قناة السويس » لم يكن يؤدى إلى الغاية التى وصلنا اليها بهذا التلخيص، فبهذا التلخيص وحده نستطيع أن ندلك — ليس فقط على الجهود الطلعتية فى هذه القضية، بل إننا ندلك أيضاً على الأسس التاريخية التى حققها الرجل، وبنى عليها دفاعه المجيد وتفنيده المنطق الجرىء لمزاعم المستشار المالى الذى نثبت أخطر جوانبه فيما يلى :

١ — مناقشة مذكرة المستشار المالى

اعتبارات عامة (١)

ليس من غرضنا أن نتحرى السبب الذى جعل جناب المستشار المالى يفتى بفائدة هذا المشروع لمصر؛ حتى مع امتياز الشركة بالخمسين مليوناً الأولى من دخل القناة؛ حتى مع تحمل الحكومة المصرية لمعاشات مستخدمى الشركة بعد سنة ٢٠٠٨، أى حتى مع الشروط التى رفضها مجلس النظار باجماع الآراء فى جلسته المنعقدة فى ٢٧ يناير سنة ١٩١٠ ـ ولكن الذى يهمنا الآن هو البحث فى المذكرة من جهتيها، أى من جهة الاعتبارات العامة المصدرة بها، ثم من جهة الفروض الحسابية التى استنتج منها جنابه أن قبول الحكومة المصرية لهذا العرض من مصلحة مصر

من المسلم به أن الحكم على دخل القناة بعد سنة ١٩٦٨ حكما دقيقاً هو

---

(١) ص ١٢٠ «قناة السويس» لمحمد طلعت حرب

من المستحيلات حقيقة ، كغيره من الأحكام التى نصدرها على المستقبل البعيد . ولكن الأمر الوحيد الذى تجب ملاحظته فى هذه الحالة هو النتيجة التى يخرج بها العقل من قياس الماضى والحاضر ، مع النظر بصفة ثانوية لنتائجها فى المستقبل القريب

نرى زيادة دخل شركة القناة فى الماضى والحاضر كلها مطمئنة تدل على أن الزيادة ستبقى مطردة ما دامت المدنية الحالية ، وما دام الشرق والغرب كلاهما فى حاجة إلى مبادلة المنافع ، ومادامت مبادىء التمدين تميل إلى السلام . وليس بنافع أن نبعد الفروض الخيالية إلى حد أن تخرج بنا إلى الشذوذ عن القواعد المرعية الاتباع فى مدنيتنا الحاضرة . فليس علينا تلقاء هذا المستقبل المجهول إلا أن ننظر فيما إذا كانت الاعتبارات العامة التى أوردها جناب المستشار فى صدر مذكرته تجعلنا نقبل المشروع وأعيننا مربوطة ، أو هى ذاتها على العكس من ذلك تجعلنا نصر على رأينا من أن الصفقة خاسرة ، وأن الأولى بمصر هو عدم قبولها

أما إنقاص رسوم المرور فى القناة فلا شك أن الميل إليه شديد من جانب أصحاب السفن والتجار ، ولكن الماضى يعلمنا أن إنقاص الرسوم لم يولد إنقاصاً فى الايراد . بل على العكس من ذلك نرى أن الرسم على الطن الواحد كان ٩ فرنكات و ٥٠ سنتيما فى سنة ١٨٩٠ ، وكان إيراد الشركة فى تلك السنة ٧٠ مليوناً من الفرنكات ؛ فلما أنزل رسم الطن فى سنة ١٨٩٣ إلى ٩ فرنكات ، كان مجموع دخل الشركة ٧٦ مليوناً حتى وصل فى سنة ١٩٠٢ إلى مبلغ ١٠٦ ملايين . وفى سنة ١٩٠٣ أنقص الرسم فصار ٨ فرنكات و ٥٠ سنتيما ، فوصل دخل القناة إلى مبلغ ١١١ مليونا ؛ وكذلك استمر يزيد مع نقص الرسم حتى وصل فى سنة ١٩٠٩ إلى مبلغ ١٢٣ مليوناً . وعلى ذلك فان أصحاب السفن والتجار لا يطلبون إنقاصاً غير معقول لتلك الرسوم ، بل إن نقص الرسوم لم يؤثر الى الآن تأثيراً يعتد به بالنسبة للدخل السنوى . وعلى ذلك

يكون التخوف من إنقاص الرسوم تخوفاً مبالغاً فيه

وأما الاختراعات العلمية لوسائل النقل فان الموضع الجغرافى لقناة السويس لايؤثر فيه بوغاز بناما ولا سكة حديد بغداد. وحسبنا فى ذلك أن نذكر طرفاً من خطبة البرنس دارنبرج رئيس مجلس إدارة الشركة نفسه فى الجمعية العمومية للشركة فى ٢٠ يونيه سنة ١٩٠٨، إذ قال :

« ماذا نخشى فى المستقبل ؟ لم يعد بعد محل لذكر هذه الحكاية ، حكاية قناة ثانية ؛ فقد ذهب بها الزمان . وإن سكة حديد سيبريا وسكة حديد بغداد لايمكنهما إلا أن تسرعا فى حركة التجارة . فاذا نقصنا بسببهما بعض الركاب ، فمن المحقق أن التجار يفضلون دائماً فى نقل بضائعهم طريق البحر

«إن قناة بناما لن تتحقق قبل عشر سنين ، ومع ذلك فان الطريق الأفضل بين الغرب والشرق سيكون دائماً طريق قناة السويس — فلقد رأيتم النتيجة . فمهما يكن من الأمر فان أرباحكم لن تقل؛ وإنا لننتظر اليوم الذى يمكننا من أن يكون لدينا ما نزيد به ما نوزع على الأسهم . وهذه الزيادة لابد أن تجىء ؛ فان الصين تبتدىء فقط الآن فى أن تفتح أبوابها للتجارة . وإن فيها من السكان مايربو على سكان أوربا أجمع . ولاشك فى أن حاجة هؤلاء السكان تزيد شيئاً فشيئاً تبعاً للمسالك التى تجوس خلال تلك الديار »

ولسنا نقف فى خطبة البرنس دارنبرج عند هذا الحد بل نقتطف منها أيضاً ما يصلح أن يكون رداً على ماذكره جناب المستشار المالى من احتمال إنقاص الرسوم . نترك رئيس الشركة يتكلم

« وإن إنقاص الرسوم ليس من شأنه أن يخيفنا . إنكم لتعلمون حق العلم أن ذلك لا يكون الا بعد أن يزيد مايوزع من الأرباح على الأسهم ، وإنكم لتذكرون أن إنقاص الرسم ٥٠ سنتيما فى سنة ١٩٠٣ قد عوض فى سنة واحدة . وإنكم لتذكرون أيضاً أن إنقاص الرسم ٧٥ سنتيما سنة ١٩٠٦ قد عوّض علينا فى أقل من عامين . ترون بذلك أن إنقاص الرسم لايخيفنا فى شىء . »

من ذلك يظهر لنا أن لا مزاحمة قناة بناما ولا إنقاص الرسوم يمكنها أن تكون هى قاعدة المفاوضات فى مد امتياز قناة السويس

بقيت هذه الفكرة التهديدية، وهى أن الظروف الاقتصادية والمالية قد تجعل القناة حرة. هذه الفكرة لانعرف أنها تحققت فى الماضى إلا فى ممرات السوند وبلت الكبير والصغير فى معاهدة ١٤ مارس سنة ١٨٥٧ التى أخرجت هذه الممرات من أن يكون اجتيازها بثمن رسم معلوم إلى أن يكون حراً للتجارة العامة. هذه المعاهدة التى حصلت فى كوبنهاج بين ملك الدانمركة وملوك الأمم الأخرى قد قضت بأن يعوض الخسارة الناشئة عن تحرير هذه الممرات. ولقد قدرت بايراد خمسة وعشرين عاماً، فبلغ المجموع ٣٠ر٤٧٦ر٣٢٥ ريجدلار (والريجدلار يساوى ٢٩ سنتيما — ٢ فرنك)

يتبين من هذه المعاهدة أن الدول لم تأخذ الى اليوم قناة غصباً. وليس من الممكن أنها تتفق جمعاء على غزو بلد واحد لتحرير قناة بالقوة. ولو حصل ذلك فانه لا سبيل لحساب القوة القاهرة فى عقد مدنى لا يتم إلا باتفاق طرفى المتعاقدين بالاختيار التام

على أننا مع هذه الاعتبارات كلها نرى أن نضم اليها اعتباراً آخر جديراً بالالتفات، وهو أن أمام الحكومة المصرية تسعة وخمسين عاما يمكنها فيها أن تتحين الفرصة المناسبة لقبول مد الامتياز بشروط أحسن من هذه الشروط المعروضة، إذا اضطرتنا ظروف الأحوال المستقبلة الى أن نفضل إبقاء قناة السويس فى يد شركة أجنبية دولية

٢ — تعليق المؤلفين

لقد أفاض فى مناقشة مذكرة المستشار المالى فيضاً استغرق الفصول وعشرات الصفحات المليئة بالحجج الدامغات والمنطق الحسابى القاطع.. وقال: إننا إذا راعينا حساب الشركة الذى أثبتناه من قبل فسوف نخرج بنتيجتين:

١ — أن زيادة الايراد فى السنوات المقبلة (مع ملاحظة أن هذه المناقشة قد كانت فى سنة ١٩١٠) لن تقل بحال عن المليونين سنوياً

٢ — أن إيراد الشركة فى سنة ١٩٦٨ (سنة انتهاء مدة الامتياز التى كان يراد مدّ المدة من ابتدائها) سوف يكون بناء على هذه الزيادة ٢٣٥ مليوناً من الفرنكات. وبعملية حسابية بارعة أثبت لنا طلعت حرب أن إيراد الشركة فى المدة الجديدة المنشودة سيبلغ ١٠٫٢٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠، وأن مصروفاتها لن تتعدى ٨٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ من الفرنكات؛ فيكون صافى الايراد ٩٫٤٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ فرنك أى ٣٦٣٫٣٧٦٫٥٠٠ جنيه مصرى

تريد الشركة أن تتقاضى نصف هذا المبلغ كله، وهذا النصف يقدر بـ ١٨١٫٦٨٨٫٢٥٠ جنيهاً، تضاف إليها فائدة قدرها ٣ ½ ٪ فى طول المدة، فتكون المبالغ التى تطمع فيها الشركة هى ٣٥٦٫١٨٤٫٢٠٠ جنيه مصرى !

تبغى الشركة الحصول على هذا كله، فى حين أنها لا تعرض إزاءه إلا أربعة ملايين من الجنيهات المصرية على أربعة أقساط، من ١٥ ديسمبر سنة ١٩١٠؛ وحصة فى صافى أرباحها من سنة ١٩٢١ إلى سنة ١٩٦٨، بواقع ٤ ٪ عن السنوات العشر الأولى و٦ فى السنوات العشر الثانية و٨ فى العشر الثالثة و١٠ فى العشر الرابعة و١٢ فى السنوات الثمان الخامسة.

من الجلى أن هذه المبالغ التى تعرض الشركة التنازل عنها تعد غبناً فاحشاً بالنسبة لمصر إزاء الفوائد الضخمة التى ستحرم منها بشروط مشروع مد امتياز شركة القناة... ألا إن لهذا الغبن أضراراً جلاها طلعت حرب خلال مناقشته المجيدة لمذكرة المستشار المالى فى كلمتين تحت عنوان: « مضار هذا العرض بالنسبة لمصر »، « النتيجة ». ونحن نثبت هنا هاتين الكلمتين للخلود؛ وليتذكر شباب الأمة هذه المحاولة العنيفة التى يحاولها المحاولون ضد مصالح البلاد، وليعرفوا الذين كانوا حراساً على مصلحة الوطن:

٣ – مضار هذا العرض بالنسبة لمصر[١]

قد أوضحنا مقدار ما تغبن فيه مصر لو جارت الشركة على رأيها وقبلت مد الأجل بالشروط المعروضة. ويرى القارىء أننا لم نبالغ فى تقدير الدخل، كما أننا لم نقتصد فى المصروفات؛ بل زدنا مقدارها وقبلنا حساب الشركة على صورته التى لا يرضاها، كما قلنا، إلا المضطر الذى لا خيار له، وإلا فما الحامل للحكومة المصرية على أن تتنازل عن نصف دخل القناة مدة أربعين سنة فى نظير مبالغ تحسب عليها فوائد مركبة، نحو مائة عام — ولا يبتدىء استهلاكها إلا بعد ستين سنة

لسنا نظن أن الحكومة مضطرة للمال اضطراراً يسوغ لها أن تقترض بهذه الشروط، بدليل أن الأربعة ملايين جنيها لا تدفع إلا فى أربع سنوات من ١٥ ديسمبر سنة ١٩١٠؛ والحصة فى الأرباح لا تبتدىء إلا من سنة ١٩٢١. ولو سلمنا باضطرارها للمال فلا نعدم وسيلة لايجاده من الخارج: وأمامها مصلحة الدومين يمكن للحكومة أن تقترض عليها أربعة ملايين وزيادة. ولو فرضنا أنها اقترضت هذا المبلغ بفائدة أربعة فى المائة، لا ثلاثة وربع ولا ثلاثة ونصف، وقسطت الدين على خمسين سنة لكان مقدار كل قسط من أصل وفائدة ٢٠٠ر١٨٦ جنيه؛ ولو قسطته على ٧٥ سنة لكان القسط ١٦٨ر٩١٦ جنيهاً — كلاهما زهيد قد لا يؤثر فى ميزانيتها، ولديها فى كل سنة من زيادة الايرادات ما تسترد منه مثل هذا المبلغ وزيادة، ولو أرادت ألا تقترض ففى مكنتها أن تعمل بالدومين ما عملت بالدائرة السنية فيأتيها المال بلا حساب

٤ – النتيجة[٢]

يظهر للقارىء من أهمية قناة السويس من الوجهة السياسية، ومن

(١) ص ١٢٧ من كتاب قناة السويس (٢) ص ١٣٨ من كتاب قناة السويس

الوجهة المالية ، ومما عاناه آباؤنا القريبون والبعيدون من أمرها ، وما عاناه الجيل الحاضر من جراء مزاحمة الدول الأجنبية على بلادنا من هـذه القناة .
يظهر للقارىء من هذا كله أن مسألة قناة السويس ليست من المسائل التى تمر بنا كغيرها كل يوم من غير أن نتدبر فيهـا ونحسب لها حسابها ؛ فجدير بالأمة المصرية أن تهتم بكل شىء يتعلق بها ، وجدير بالجمعية العمومية أن تدقق النظر فى مشروع القناة المعروض عليها

ولقد ظهر من الأرقام غبن الأمة المصرية إذا هى أنفذت هذا المشروع ، وظهر كذلك أن مبلغ الغرم هذا قد يقرب من دين الحكومة المصرية كله مضاعفاً

نقول ذلك ونحن نتسـاءل مع المتسائلين عن الأسباب التى تـكون قد دعت الحكومة المصرية إلى مناقشته فى هذا العرض الجائر الذى يستحيل أن يعتبر فرصة لا تتجدد من اليوم إلى سنة ١٩٦٨

على أنه إذا كان لا بد من التعاقد اليوم على مد الامتياز تعاقداً مقبولا ، يجب أن يكون هذا العقد مبنياً على القواعد الآتية :

أولا — أن ما تعطيه الشركة من مقـدم ثمن الامتياز ، وما تعطيه فى المستقبل من صافى الأرباح إلى سـنة ١٩٦٨ ، يكون متناسباً مع الأرباح التى تربحها الشركة من القناة فى الأربعين سنة الجديدة ، مع مراعاة حساب ذلك بالقياس على المـاضى والحاضر . أو أن تعطى الشركة للحكومة المصرية من اليوم جزءاً معلوماً من الأرباح على تلك النسبة ، من غير حاجة إلى إعطاء مبلغ ليعتبر ثمناً للامتياز كمبلغ الأربعة الملايين المعروضة

ثانياً — أن تقبل الشركة فى مجلس إدارتها من يوم التعاقد مديرين مصريين بكل معنى الكلمة ، عددهم مناسب لمقدار الحصة التى تعطى للحكومة فى الايراد . وليس فى ذلك شىء من التحكم ؛ فان الحـكومة الانجليزية بعـد ما استولت على سهام الحـكومة المصرية اضطرت الشركة لقبول ثلاثة مديرين انكليز، بعد أن لم يكن للحكومة المصرية ولا مدير واحد. ثم إن أصحاب السفن

الانجليز قد اضطروا الشركة أيضاً إلى قبول سبعة مديرين آخرين لمجلس الادارة ، حتى صار عدد الأعضاء الانكليز فى مجلس الادارة عشرة . فليس من الغريب أن تشترط مصر وهى مالكة القناة على الشركة أن تقبل منها مديرين للدفاع عن مصالحها . خصوصاً بعد أن أظهر المستشار المالى تخوفه من احتمال أن الشركة تنزل رسوم المرور تنزيلا فاحشاً حين يأتى أجل تسليم القناة إلى الحكومة . ولا نعلم بماذا نصف هذا العمل لو حصل ، أو كيف تقبل شركة محترمة أن يذاع عنها مثل هذه الفكرة

ثالثاً — أنه ما دامت القناة ستؤول على كل حال للحكومة المصرية بعد انقضاء مدة الامتياز الجديد، أى بعد سنة ٢٠٠٨ ، فمن الواجب أن تتعهد الشركة فى العقد الجديد بألا تنقص شيئاً من رسوم المرور إلا بعد أخذ رأى الحكومة المصرية

هذه هى الاعتبارات التى يلزم ملاحظتها متى أريد الاتفاق من الآن على مد الامتياز . ومع ذلك نحن لا نزال نكرر أن من الخطر تجديد امتياز لم يقرب أوان تجديده من غير ضرورة ملجئة لذلك ؛ فلكل زمان حكم ، ولكل جيل تصرف خاص به

على ذلك نرى المشروع من كل وجهة قلبناه عليها مشروعاً ضاراً لا تصح الموافقة عليه

* * *

إلى هنا تكون قد رأيت كيف سخرّ طلعت حرب علمه وحسابه فى جهاده لوطنه ، وكيف أكسب بعمله الجهاد الوطنى لوناً زاهياً من دقة الحساب ومهابة العلم

لقد كان كتابه «قناة السويس» نداء وطنياً صارخاً ، وكان حدثاً عظيماً فى تاريخ الدفاع الوطنى العلمى تحدثت به أمة بل أمم .. ولقد استجاب له الوطنيون ؛ وهم ما يزالون فى هذا الطور السياسى الجديد أكثر حاجة إلى الاستجابة له

زعيم الاستقلال الاقتصادى

فترة التفكير والانتقال — شبح الاستعمار الاقتصادى — مقدمات النزال الوثبة الأولى — معهد الاستقلال الاقتصادى — شركات تحقق الغايات — الوطنية الاقتصادية تنتصر — تحت لواء الزعيم

فترة التفكير والانتقال

كلما سرنا فى تاريخ طلعت حرب خطوة أحسسنا أن الأيام كانت دائماً تلائم بين حياته الخاصة وحياته العامة ، وأن المقادير كانت دائماً تهيئه لهذا المستقبل العظيم الذى ينتظره ، بل الذى كان ينتظره الوطن من ابنه البار المختار لزعامة الاستقلال الاقتصادى

فحين صفّت الدائرة السنية أعمالها على يد « شركة الدائرة السنية » وعرضت للبيع أراضيها كان أولى الناس بشرائها رجالها الذين أخلصوا فى أداء وظائفهم فيها . . . ومحمد طلعت حرب كان من كبار موظفيها ، بل كان أبوه أيضاً من أولئك الموظفين الكبار بها، فكان طبيعياً أن يبتاع مما ادخره من ماله الخاص ضيعة من ضياعها

أجل ، كان أبوه من وجهاء الموظفين فى الحكومة ، وكان هو بالذات من الموظفين الفنيين الذين يشار إليهم بالبنان فى الدائرة السنية ؛ لكن هذه الضيعة التى اشتراها كانت نتيجة لغرس يديه ، وسبباً لتوجيهه نحو تثمير المال لنفسه ، ثم لمن حوله ، ثم لبلاده جميعها

إن فلاحى بلدة « كفر الجنينة » مايزالون هم وأبناؤهم يتحدثون بما صنعه لهم طلعت حرب من مبتكرات عبقريته الاقتصادية التى تحولت بهم من

مؤجرين إلى ملاك ... فقد كانت الدائرة السنية ، كما علمت ، تصفى أملاكها ؛ وكانت أطيان الدائرة مؤجرة إلى الكثيرين من صغار الفلاحين ومتوسطيهم. لكن فلاحى « كفر الجنينة » هم الذين أسعدهم الحظ بقرب طلعت حرب منهم

كانت لطلعت حرب ضيعته الجديدة التى اشتراها وأخذ يتنقل بين القاهرة وبينها فى « كفر الجنينة » . و « طلعت » أينما ضربت الأرض قدماه أثمرت هذه الأرض وأينع ثمارها . فقد عز على الرجل الاجتماعى — رجل الأمة منذ ذاك الحين البعيد - ألا يرفه حياة المحيطين به جميعاً ... رآهم والقطن قد علا ثمنه وغلا ، يضربون بأموالهم فى أسواق التنعم والزواج الثانى وفيما لا يعود بالنفع من مظاهر الدنيا الخلابة المسرفة ...

قال لهم : أيها المواطنون — ما قولكم فى أن تكونوا ملاكا بعد أن كنتم مؤجرين ؟ . . قالوا : وأنّى لنا أن نكون مالكين لهذه الأرض ونحن لا نملك ثمنها ! .. قال : هاتوا ما تنفقون فى اللهو والملذات وفى شئون الزواج الزائد ، فإنى مقنع الشركة أن تقبل منكم دفعة أولى لابتياع هذه الأراضى التى تؤجرونها ؛ وإنى مقنعها بأن تقبل منكم أقساط الاستئجار على أنها أقساط ابتياع ، حتى تفرغوا من سداد ثمنها وأنتم مطمئنون

فرح الفلاحون بمشروع طلعت حرب ؛ واستطاع هو أن يقنع به هيئة تصفية الدائرة السنية ، وكان له ما أراد من خير بأولئك المواطنين الفلاحين الذين حولتهم يده الذهبية من مؤجرين إلى ملاك . . وكان هذا أول مشروع مادى جليل شرعه ونفذه طلعت حرب لاسعاد أبناء الوطن

أما هو فقد كان شراؤه الضياع كما كان مشروعه فى مكتبه الخاص بالادارة والمحاسبة نزوعا منه إلى حياة الاستقلال . . . وفى هذا الطور الجديد من حياته أصبح « طلعت بك حرب » الثرى من ذوى المصالح الضخمة فى البلاد

العاديون من الرجال تقصيهم مصالحهم الخاصة عن المجتمع . والعظيم من الرجال تدنيه مصلحته الخاصة من المجتمع . . وكذلك كلما ازدادت ثروة

طلعت ، دنا خيره من الناس ، وفكر فى مصالحهم

لقد كانت حياة الفلاحين هى شغله الشاغل : كان فى أرضه يسوى لهم ديونهم ، ويرد إليهم ما تكون الديون قد حرمتهم إياه من أملاكهم الضئيلة

لم تقنع نفس العظيم بهذا الفضل كله ، فلقد كانت نفسه مستقراً لآمال أمة يريد أن يحققها . . . ومن تكون الأمة إلا أولئك الفلاحين الذين ضربت عليهم المسكنة ، لما هم فيه من الشقاء الاقتصادى العنيف ؟

فما دامت علة شقاء الفلاحين هى علة اقتصادية ، فلم يكن إذن طلعت حرب إلا مجاهداً اقتصادياً

كان المرابون خاصة ، والمشتغلون بالأعمال المصرفية من جشعى الأجانب عامة ، هم سبب هذه العلة الفتاكة بحياة المصريين الفلاحين . . . . لقد أخذ أولئك الدخلاء على المصريين كل سبيل إلى الاشتغال بالحياة المالية أو الاقتصادية . احتكروا الأسواق ، وضربوا على المواطنين الذين ساءت حالهم نطاقاً عريضاً من الديون صعب المراس ممتنع المناص

فكر طلعت حرب بهذا كله جملة وتفصيلا . وإذا فكر طلعت حرب ، فقد فكر بعقله وقلبه ودمه وعزمه وإيمانه جميعاً . . . فكر بهذا كله والأزمة الاقتصادية قد ظهرت فى سنة ١٩٠٦ طلائعها ، وبدأت تكتسح بيوت الفلاحين : تحطم اطمئنانها ، وتهدم راحتها ، وتشتت أهلها فى فيافى الذل والفاقة

لقد اختلجت بنفسه فكرة ملهمة لانقاذ الموقف . . . . أيقولها ؟ ، أيعلنها ؟ . . أفيصدق الناس إمكان مايقول ومايعلن ؟ ! إنه يريد أن ينشىء بنكا مصرياً للمصريين ، بأموال المصريين ، تديره أيدى المصريين .. ماللعبقرى الملهم وما للناس يصدقون أو يكذبون ، أو يؤمنون أو لا يؤمنون ؟ لا . آمن هو بفكرته وصدقها ، فأخذ يعلنها ويذيعها منذ سنة ١٩٠٦ فى الأندية والصحف والمجتمعات

عجب الناس مما يقول ، ثم أعجبوا به ا لكنهم فى نهاية الأمر لم يقدموا

يداً ، ولم يؤخروا قدماً عما هم فيه .. لكن حرباً كان يشعر فى أعماق نفسه بأنه موكل عن هذه الأمة فى الجهاد لخلاصها الاقتصادى ، وكان لابد لنفسه الكبيرة أن تتنفس تنفس الصبح الذى يجلى جيوش الظلام ، فاستطاع أن يؤسس يومئذ شركة مالية مصرية بحتة هى شركة التعاون المالى .. ولعل من أجمل المصادفات فى تأسيس هذه الشركة أن عاد المجاهد الاقتصادى الكبير الدكتور فؤاد سلطان الذى اشتهر بأنه الساعد الأيمن لزعيم الاستقلال الاقتصادى - من دراسته بالخارج عقب تأسيس هذه الشركة ، فوكل إليه طلعت إدارتها ليتفرغ هو لفتوحاته الاقتصادية الجديدة

تأسست هذه الشركة حوالى سنة ١٩٠٨ . وظاهر من عنوانها أنها كانت تمارس الأشغال المالية بأسلوب تعاونى : أى أنها كانت تمارس العمليات المصرفية الصغيرة ؛ على أنها كانت شركة محدودة الأفق لاتحقق رغبات الأمة ، ولا آمال الزعيم . فلم ينِ لحظة عن دعوة المواطنين إلى تأسيس شركة مساهمة كبرى لبنك مصرى للمصريين

فلما اجتمع مفكرو البلاد وساستها وعلماؤها وأدباؤها وفريق من أعيانها فى « المؤتمر المصرى » الذى عقد سنة ١٩١١ للنظر فى مشاكل مصر الاجتماعية ، كانت الدعوة إلى إنشاء بنك مصر قد تخطت أسماع رجال المؤتمر إلى قلوبهم ، فأصدروا فيها قراراً بوجاهة الفكرة ووجوب تنفيذها . وألفوا لهذه الغاية اللجان : لكن هذه اللجان قعدت مجتمعة بما نهض به طلعت حرب منفرداً

الناس كلهم غدوا مؤمنين برأيه ، لكنهم يرونه بعيداً ويراه قريباً ؛ والناس يحسون النقص فى حياتهم العامة إحساساً دائماً ؛ لكن صاحب الرسالة يحس هذا النقص إحساساً عميقاً ، فيدفعه الأمل للعمل على أن ينقل ما فى صدره إلى صدورهم

لقد دفع ألم العبقرى لمواطنيه إلى أن يدرس ويحقق ويلم إلماماً شاملا

بتاريخ القضية الاقتصادية فى مصر، فألف فيها كتابة الأشهر « علاج مصر الاقتصادى وإنشاء بنك المصريين » وتداولت الأيدى هذا الكتاب الفريد من نوعه فى اللغة العربية حوالى سنة ١٩١٣ . وهو كتاب فيه أكثر ما يكون البحث دقة عن علة الشقاء الاقتصادى فى مصر — هذه العلة التى ولدتها خمسون سنة أو تزيد

إنك تجد فى هذا الكتاب تشخيصاً صادقاً للداء ، وإشارة واضحة إلى الدواء ، وإنك تلاحظ فى ذيل الكتاب إشارة إلى أنه الجزء الأول، فتبحث عن الجزء الثانى . . . فترى المؤلف قد وكل إلى الزمن تأليف هذا الجزء الأخير الذى تبحث عنه

شبح الاستعمار الاقتصادى

قف بنا لحظة نتبين هذا المدى الذى أثر فى نفس طلعت حرب ، فحفز خياله ، ثم حفز إرادته إلى الدعوة لانشاء بنك مصرى، وإلى العمل على إنشاء بنك مصر العظيم

فى عهد اسماعيل باشا ارتفعت أثمان القطن فى العالم ، لأن الحرب الأهلية فى أمريكا كانت قد بدأت وعظم الطلب من جانب الدولتين التجاريتين للقطن المصرى ؛ فشجعت هذه الحالة المتمولين الأجانب ، فأخذوا فى إنشاء البنوك فى مصر . ولم يكن منها يومئذ سوى بنك أوف إيجبت (Bank of Egypt) الذى أسسه أحد الأرمن ، وقد نجح هذا البنك نجاحاً كبيراً ، وظل يعمل فى تقدم على مر السنين لمصلحة الممولين الأجانب

ساءت الحالة المالية فى البلاد سوءاً شديداً ؛ وشرع اسماعيل باشا فى التفكير لانشاء بنك مصرى ؛ لكن الدول عرقلت مساعيه بانشاء صندوق الدين ، وهو مراقبة فعلية للأجانب على المالية المصرية

[1] « ولكى يضمنوا أداء كوبون يوليو ١٨٧٦ لجأوا إلى عدة طرق تشهد بعلو كعبهم فى استنباط الحيل والتفنن فيها . من ذلك بيعهم إلى شركة انجليزية امتياز تصدير العظام البالية ، واتخاذ المقابر المصرية القديمة مخازن للفوسفات ، وبيعهم حق استنباط الزيت من آبار الاسماعيلية، وتضعيفهم رسوم جمرك الاسكندرية وأجور السكك الحديدية ، وهلم جرا . وعبثاً حاول اسماعيل أن يفهم القوم وقتئذ استحالة دفع الكوبون ، وعبثاً توسل إلى المراقبين ألا يخربا البلد بهذا التشدد فى جمع المال ؛ فان الموظفين الأوربيين أصموا

(١) « تاريخ المسألة المصرية » تأليف ثيودور روتشتين وترجمة الأستاذين العبادى وبدران

آذانهم عن صوت التوسل والاعتذار ـ شأن الرجال أشراف النفوس الذين همهم القيام بواجبهم جهد الطاقة ـ كما يقول اللورد كرومر »

ولقد كانت النتيجة لهذا التعصب الأصم أن اضطر كثير من الفلاحين إلى بيع محصولاتهم قبل حصادها بنصف الثمن أو أقل من النصف . ولقد خربت لذلك أقاليم وتناقص العمران فى أقاليم أخرى . . ولقد ازداد نفوذ الأجانب وزاد تدخلهم فى الأسواق المصرية حتى أن القاضى دى بلنير لاحظ ذلك ، فقال فى تقريره : (١)

« كان عدد الأروام يزداد فى مصر يوماً عن آخر حتى لاحظ بعضهم أنه إذا استمر الحال على هذا المنوال فالأولى إلحاق مصر باليونان !! »

ثم أبان طريقتهم الجشعة فى الاستغلال فقال :

« كان الواحد منهم يجىء إلى مصر خالى الوفاض لا يمتلك من حطام الدنيا شيئاً ، لا بضاعة له إلا الاقتصاد والتدبير ، ومتى كسب أى مبلغ بأى طريقة كانت اتجه همه إلى فتح دكان صغير فى قرية يبيع فيه البقالة ثم تتسع أعماله فيبدأ فى التسليف بالربا ؛ ومتى نجحت أعماله سهل عليه أن يقترض الأموال من تجار الاسكندرية ؛ فما هى إلا عشية أو ضحاها حتى يصبح صاحبنا بنكيراً ممن يلعبون بالذهب ؛ فيشيد ذلك الذى جاء بالأمس عارى الجسد حافى القدم ، قصراً فى القرية يتخذه قاعدة لادارة أعماله ومحلا لبنكه الذى يؤمه الفلاحون ليستعطفوا (الخواجه) . وأغلب هؤلاء المرابين تقشعر لمناظرهم الأبدان : أميون ، لا يعرفون القراءة ولا الكتابة ، امتلأت نفوسهم بالأطماع الأشعبية ، لا تعرف قلوبهم الرحمة »

« وإذا أراد بعض الشرقيين من المسيحيين أو الاسرائيليين أن يشتغلوا بالمراباة فأول باب يطرقونه باب القناصل الأجنبية ليحتموا بحمايتهم ؛ لأنه لا يتيسر لهم دون ذلك أن يقوموا بعملهم ؛ إذ أن ذلك من أكبر عوامل النجاح لهم

(١) تقرير القاضى المذكور ص ١٤٦

وأمانهم من العقاب واعتمادهم على القوة فى إهلاك الفلاحين الضعفاء »

تتالت السنون والمرابون يزحفون فى القرى والمدن يغلون رقاب الفلاحين المساكين. وقد كان هؤلاء المرابون يتحايلون فى أعمالهم بالغش والتدليس ، وهو أمر طبيعى فى هذه الأجناس الدنسة التى لا تستطيع أن تعيش فى البيئات الطاهرة النقية

حدث (١) أن أحد صغار المزارعين فى الصعيد استدان عشرة جنيهات من أحد المرابين ووقع على سند تحت يد المرابى قيمته خمسة عشر جنيهاً على أن تعتبر الخمسة الجنيهات الزائدة فائدة للمرابى فى الثلاث السنين التى سيدفع فى خلالها الفلاح دينه

فما أن حلت السنة الأولى حتى دفع الفلاح خمسة جنيهات، وتلتها السنة الثانية فدفع خمسة جنيهات ثانية، وحلت السنة الثالثة فدفع الخمسة الجنيهات الثالثة. وعند ذلك طلب الفلاح من المرابى أن يرد له السند ، فأبى وقال أن عليه أن يدفع قيمة السند كاملة ، وأن هذه الخمسات من الجنيهات إنما كانت فائدة المبلغ ليس غير ! !

رفض الفلاح المصرى أن يسمع له، لكن المرابى هدده باقامة الدعوى عليه أمام المحكمة . ولما كانت الظواهر فى صالح المرابى فقد اضطر الفلاح المسكين أن يبيع بيته بمبلغ واحد وستين جنيهاً، سدد منها للمرابى خمسة عشر جنيهاً قيمة السند من جديد وأربعة عشر جنيهاً، مصاريف القضية التى كان فى النية إقامتها ومصاريف نقل الملكية والبيع .. الخ! . . وهكذا دفع الفلاح المسكين ١٥ + ١٥ + ١٤ جنيهاً ، أى مبلغ أربعة وأربعين جنيهاً نظير دين قدره عشرة جنيهات ! !

لم يقف أشرار الأجانب عند هذا الحد، بل إنهم سعوا فى قتل الصناعات

(١) تقرير اللورد كرومر عام ١٨٩٥ (ص ١٥)

الوطنية واستبدال صناعات دخيلة بها ، تستخدم فيها الأساليب الأجنبية ، بحجة الاصلاح والتقدم ! !

جاء فى تقرير اللورد كرومر عن سنة ١٩٠٤ بعد أن وصف ضعف الصناعة . . . « وقس على ذلك الغزل والنسيج والصباغة والدباغة وغير ذلك من الصنائع الوطنية الكثيرة التى أخذت تنحط انحطاطاً بيناً فى السنين الأخيرة ، ويمكن أن يقال أن استخدام الأساليب الأوربية يستلزم بذل الهمة فى ترقية الصناعة الوطنية فى نوعها وفى غايتها أيضاً حتى تقارب الصناعة الأوربية ، إلا إذا أريد أن يضيق نطاق العمل على المصريين »

* * *

شكا المصريون هذه الحال منذ أواخر القرن الماضى وتصاعدت نفثاتهم يبغون إصلاحاً . لكن هذه النفثات كانت مفتقرة إلى جرأة الصوت وعزمة المجاهدين؛ فاستغل المستغلون هذه الشكوى لحسابهم، وعلى الأثر تأسس البنك الأهلى عام ١٨٩٨ . وليس شك أن إنشاء البنك الأهلى كان حدثاً كبيراً فى حياة مصر الاقتصادية ، لما أعطى من النفوذ المالى الواسع النطاق . لكن المصريين مع الأسف لم يكن لهم من السلطان فى هذا البنك إلا سلطان رسمى محدود

فقد درس جماعة من الانجليز الحالة الاقتصادية فى مصر ؛ ورغبت هذه الجماعة أن تقبض يدها على الميزان الاقتصادى فى البلاد بدلا من توزيع كفتيه بين الأجانب الآخرين ؛ فاتفقوا مع بعض أصحاب المصالح فى البلاد ، وقدموا عن الحالة الاقتصادية العامة تقريراً مسهباً إلى المستشار المالى بوزارة المالية المصرية

كان هذا المستشار المالى لوزارة المالية إذ ذاك هو السير «ألوين بالمر» ؛ ومن العجيب أنه كان هو الذى صدق على مشروع إنشاء البنك الأهلى الذى اقترحه التقرير المشار اليه ، وكان هو أول من تولى وظيفة محافظ هذا البنك !!

ترى من هذه الاشـارة أن مصلحة المصريين لم تراعَ فى هذا المشروع إلا بالقـدر الذى يحفظ مصالح الأجانب . فمشروع البنك الأهلى على ما فيـه من تجـديد فى الاقتصاد المصرى ، وعلى ما قام عليـه من الدعائم الاقتصادية القوية و الاختصاصات الواسعة لم يكن هو المشروع الوطنى الذى يحقق آمال البلاد

استقام البنك الأهلى وعاش لأنه قام على أسـس متينة يدعمها نفوذ رسمى دائم ، أما البنوك الأخرى التى كان يؤسـسها الدخلاء فقـد اضطربت بسبب حرصها على منفعتها ولو على حساب الاضرار بمصلحة العملاء الوطنيين. وكما أن هذا الموقف من جانب البنوك هذه كان سبباً فى تقويض مالية صغار الفلاحين الذى يعدون كثرة فى البلاد . فقد كان أيضاً سبباً إلى انتهاء دورها على مسرح الاقتصاد المصرى

لقد طافت بمصر أزمة اقتصادية عسرة ، بدت طلائعها فى سنة ١٩٠٦ ، السنة التى جاهر فيها طلعت حرب ومن تبعه من الناس بضرورة إنشاء بنك مصرى للمصريين ، وظلت ريح هـذه الأزمة تعصف بالفلاحين سبع سنوات تقريباً . . .

كانت هـذه السنوات السبع امتحانا لدور المـال الأجنبية فى مصر . فقد أقفلت خلال هـذه المأساة أبوابها فى وجوه الفلاحين الوطنيين . وكان أعرقها بنك أوف إيجبت (Bank of Egypt) وهو الذى امتنع عن الدفع بتاتاً فى سنة ١٩١١ . . . ولقد كان هـذا الامتناع القاسى أقوى الأسباب لانبثاق فجر جديد فى حياة التفـكير المصرى إزاء الاستقلال الاقتصادى

يومئذ فـكر محمد طلعت حرب فى نشر كتابه « علاج مصر الاقتصادى وإنشاء بنك المصريين» ، هذا الـكتاب الذى ينبغى أن يعتبر أول صك فى تاريخ الاستقلال الاقتصادى المصرى

مقـــدمات النزال

قرأ طلعت فى عدد جريدة المقطم الصادر بتاريخ ١٤ نوفمبر سنة ١٩١١ مقالا تحت عنوان « حالتنا الاقتصادية » ، جاء فيه :

« أفليس يمكن ياترى أن يوجد أولو الألباب تدبيراً يزيلون به هذه الموانع الطارئة ، ويعيدون دولاب الأشغال إلى سابق دورانه ، فاذا أفلس محل زرفوداكى[1] وأفلست محلات أخرى بافلاسه كما يتشاءمون به اليوم ـ فذلك لايوجب كل هذا الكساد فى أسواق القطن ، وكل هذا التعطيل لمصالح القطر مادام القطن موجوداً فى مخازن المزارع ، والمال موجوداً فى خزائن البنوك ، والعبرة كلها بحل العقدة ، وإيجاد واسطة بها تروج حركة بيع القطن من مخازن المزارع بالأموال المدخورة فى خزائن البنوك »

قرأ طلعت هذا المقال وقرأه الناس .. أما الناس فقد تساءلوا مع الكاتب عما يخلصهم مما هم فيه ، أما طلعت فقد أراد أن يجعل لهم مخرجا مما هم فيه ، فوصف للمصريين الداء فى كتابه علاج مصر الاقتصادى هذا الوصف الاقتصادى التاريخى الذى أشرنا إليه فى الفصل السابق منذ عام ١٨٥٦ إلى عام ١٩١١ ، ووصف لهم العلاج الذى ظلت تتلهف عليه أفئدة المصريين ثلاثين عاماً أو يزيدون ، ونصب نفسه مرشداً ومجيباً عما تساءلت عنه الصحف فعلق فى كتابه على قول المقطم بقوله :

« نعم البلاد الآن فى أزمة قد لاتذكر بجانبها أزمة سنة ١٩٠٧ ، لأنها أصابت كبد الفلاح الذى عليه قوام حياة القطر ـ هذه الأزمة التى انتابت الفلاح والمصرى على وجه العموم دون ذنب اقترفاه »

---

(١) مخزن من أكبر مخازن القطن

« يقول جناب المستشار المالى إن سببها إفلاس البنك المصرى[1] لسوء إدارته ففزع أرباب الأموال بأوربا ، وتزعزعت الثقة بالسوق المصرية ، وما ذنب المصريين فى ذلك إلا أنهم باتوا ذيلا لغيرهم لاصوت لهم فى تلك السوق ؟ »

« زاد الطين بلة إفلاس بيت زرفودا كى وورودا كانانى بالظروف التى يعلمها العموم . . وكل هذه المسائل لم تأت من المصريين ، ولكنهم هم الذين يذوقون مرارتها ويتحملون تبعتها »[2]

سخر طلعت حرب مما يقال ومما يعمل : لأن الذى قيل كانت مصر فيه هى الضحية المظلومة ، ومايعمل كانت مصر فيه هى الضحية الخاسرة .. سخر من الدعاية التى كان يقيمها الأجانب لقتل فكرة إنشاء بنك مصرى قائلا : « فقد مضى الوقت الذى كان يقول فيه كبار الرجال من أمثال مسيو « تيير » ـ ما من بلد فيه بنكان الا قتل أحدهما الآخر »

ثم برهن على وجاهة فكرته بقوله :

« ان البنوك الأجنبية فى مصر قد نجحت نجاحاً تاماً ، وكسبت مالا عظيما . وكل يوم نسمع بفتح بنك جديد يستنزف أموال البلاد إلى الخارج ، وعلى الرغم من ذلك فان المكان لا يزال فسيحاً بجانبها لبنك مصرى يكون له من الربح نصيب وافر باذن الله »[3]

لكن هل كان الوقت حين ألف طلعت كتاب « علاج مصر الاقتصادى » قد حان لانشاء بنك مصرى حقاً ؟ ؟

تشعر وأنت تطالع كتابه هذا أنه لم يخط فيه حرفا إلا عن اقتناع بأن الساعة قد حانت لتنفيذ الفكرة العظيمة ؛ فهو يقول فى الصفحة الثالثة من

---

(١) (Bank of Egypt) الذى مر ذكره فى الفصل السابق

(٢) ص ١٦٠ « علاج مصر الاقتصادى »

(٣) ص ٦ « علاج مصر الاقتصادى »

المقدمة ذاتها : إن العراقيل الشكلية كانت تقوم دون تحقيق هذه الفكرة ، حتى جاء المؤتمر المصرى الأول[1] فرأت لجنته أن هذه الفرصة سانحة يجب اغتنامها لأنه لا ينتظر أن يشمل اجتماع من أعيان البلاد وكبرائها مثلما ضم ذلك الاجتماع ، فعرضت الفكرة [2] فى تقريرها ،

ثم تشعر وأنت تطالع كتابه هذا أنه لم يغمط الذين سبقوا فى الاحساس بداء مصر ودوائها الاقتصادى من رجال الجيل السابق . فهو بعد أن يعطيك صورة علمية دقيقة عن الحالة الاقتصادية فى مصر قبل خمسين عاماً من هذه الحالة التى لخصناها لك فى الفصل السابق تجده يقول :

« نعم عز على جماعة من كبار رجال العصر الماضى كالمرحوم سلطان باشا ، والمرحوم عمر لطفى باشا أن تنعزل الحكومة عن الأمة وأن يسعى فى إصلاح حال شريك واحد ويترك الآخر لقمة سائغة للماضغ الأجنبى ، يتخبط فى ديونه ومصائبه . . . فكروا فى الأمر فلم يجدوا علاجاً نافعاً إلا هذا الذى التجأ اليه اليوم المؤتمر المصرى : ألا وهو تأسيس بنك وطنى يعمل على إصلاح حال المصريين . . . عقدوا الاجتماع تلو الاجتماع ، ودرسوا الموضوع من كل وجوهه ، وأخيراً استقر رأيهم على دعوة الكبار والأعيان للاشتراك معهم [3]

يعطيك المصلح هذا التصريح الذى يدل من جانبه على إحساسه بقوة شخصيته فى مشروعه — قوة لا يقل منها الاعتراف بجهود الآخرين . . . بل إنه زاد على هذا التصريح أن كان له الفضل فى إثبات أول نداء أصدره أعيان مصر قبل الاحتلال الانجليزى داعين به إلى إنشاء بنك وطنى

أثبت طلعت حرب هذا النداء برمته فى كتابه على الرغم من أنه يكاد

---

(١) ص ٢ من تقرير مؤتمر الشئون الاجتماعية الذى عقد بمصر الجديدة عام ١٩١١
(٢) فكرة طلعت حرب فى إنشاء بنك مصرى
(٣) ص ٢١ و ٢٢ علاج مصر الاقتصادى

يكون رسالة وحده لطول صفحاته . وكأن الرجل الذكى النهاز للفرص أراد أن يستفيد بهذا النداء فى دعوته إزاء الدعوة الباطلة التى كان يدعيها بعض أدعياء العلوم الدينية ضد أعمال البنوك ؛ لأن نداء أعيان الجيل الماضى كان على إسهابه مفعماً بالفتاوى الشرعيـة الحكيمة المبيحة لمزاولة العمـل المصرفى فى سبيل إنقاذ الوطن. فلئن كانت هذه الحركة قدأوقفتها الثورة العرابيةوتلاها الاحتلال البريطانى ، ولئن كان النـاس قد نسوا أو تناسوا هـذه الدعوة ، وأصبحوا يتهيبونها ويتخيلونها محالا ، فقد كان لطلعت حرب فضلان : فضل إحيائها من العدم ، وفضل تهذيبها وتحقيقها على أجمل وجوه التحقيق

الوثيقة الاولى

منذ أخرج « طلعت بك حرب » كتابه « علاج مصر الاقتصادى وإنشاء بنك المصريين » والناس يرون فيه المنقذ المنتظر . ولقد نجحت هذه الدعوة نجاحاً عظيما ، واقترنت فى كل ذهن باسم الرجل المخلص ، وكاد البنك ينشأ بالفعل على أثر انتشار هذا الكتاب فى سنة ١٩١٣—١٩١٤ ، لولا أن دهم العالم ما دهمه من الحرب الكبرى

لكن طلعت كان قد ذاع صيته ؛ وشاع فى الناس ، حكومة وشعباً ، أنه أكفأ وأخلص مالى وطنى . ولهذا آيتان :

أولا — حين ألفت الحكومة فى سنة ١٩١٤ لجنة التجارة والصناعة التى تطورت فأصبحت مصلحة ، ثم وزارة التجارة والصناعة —عمدت فى إدارتها إلى عضوية طلعت حرب، وكان تقريره بالاشتراك مع يوسف أصلان قطاوى باشا الذى تقدما به فى١٢ يونية ١٩١٦ إلى اللجنة عن المطامع الاقتصادية الألمانية خلال الحرب — كان هذا التقرير هو خير تقرير قدم إلى اللجنة ، وعملت بهديه ، وسارت على هداه فى تكييف أعمالها

ثانياً — حين قامت مشكلة ترامواى مصر فى سنة ١٩١٩ ، وهضمت فى هذه المشكلة حقوق الجانب المصرى . تطلعت أنظار الناس والصحف إلى الزعيم الاقتصادى المنتظر ، فخرج البطل من مكمنه إلى ساحة الجهاد من جديد ، وأظهر المصريين من فضل علمه وخبرته على حقوقهم لدى هذه الشركة فى ثلاث مقالات بينات نشرت تباعاً فى صدر جريدة الاهرام ، وها نحن نوجز لك تاريخ هذه المشكلة معقبين عليها بكلمة الزعيم الأخيرة الحاسمة فيها :

فى ٥ ديسمبر عام ١٨٩٤ منحت الحكومة المصرية الشركة البلجيكية

للسكك الحديدية والمهندس البلجيكي إدوارد أمبيني امتياز عمل تراموای بمصر على سبعة خطوط لمدة ٥٠ سنة تنتهى فى ٥ ديسمبر عام ١٩٤٦ . ومن شروط هذا العقد أن أجرة الركوب لاتزيد على خمسة مليمات ، وأن يحول هذا العقد إلى عقد شركة مساهمة فى ظرف ٦ شهور من تاريخ العقد

وفى ١٩ مارس سنة ١٨٩٥ أسست شركة الترام من أصحاب الامتياز السابقين ومن بعض وجهاء البلجيك برأس مال قدره ٤ مليون فرنك مقسمة على ٨٠٠٠ سهم . وقد عقدت الشركة سلفية بمبلغ ٦ مليون فرنك بسعر ٤ ٪ تستهلك فى بحر مدة الامتياز

وفى ١٤ يوليو سنة ١٨٩٦ حصل اتفاق بين الشركة والحكومة يقضى بأن الحكومة تقوم بتصليح السكك التى تمر فيها خطوط الترام فى نظير دفع مبلغ معين للحكومة

وفى ٢٣ يونيه سنة ١٩٠٥ منحت الشركة امتياز خطوط جديدة . ومد أجل الامتياز لتكون نهايته فى ٥ ديسمبر سنة ١٩٥١

وفى ١٧ سبتمبر سنة ١٩٠٨ قبلت الحكومة مد أجل الامتياز إلى ٣٠ يونية سنة ١٩٧٨ بشرط أن تعود للحكومة فى نهاية الامتياز جميع ممتلكات الشركة وموجوداتها ، وأن تدفع الشركة للحكومة حصة بواقع ٥ ٪ من إيرادات الشركة ابتداء من أول يوليو ١٩٠٨

ولقد زيد رأس المال جملة مرات حتى بلغ ١٥ مليون فرنك . وزادت السلفية إلى ١٥ مليون فرنك أخرى بفائدة ٤ ٪ . . وهاك جدولا بسيطاً يبين أرباح الشركة فى عدة سنوات قبل الحرب الكبرى وفى أوائل إنشائها

***

العـــام	إيرادات الشركة	صافى أرباح الشركة
	فرنك	فرنك
١٨٩٩ — ١٩٠٠	١ر٤٩٨ر٩٤٥	٥٤٧ر٦٦٣
١٩٠٠ — ١٩٠١	١ر٩٥٤ر٣٠٤	٥٤٦ر٦٧٦
١٩٠١ — ١٩٠٢	٢ر٢٥٤ر٣٣١	٨٣٠ـ٧٥٦
١٩٠٢ — ١٩٠٣	٢ر٥٢٧ر٩٠٢	٩٦٤ر١٧٢
١٩٠٣ — ١٩٠٤	٣ر٣٧٠ر٥٧٠	١ر٢٧٧ر٠٦٧
١٩٠٤ — ١٩٠٥	٣ر٩٧٦ر٦٦٩	١ر٨٢٩ر٤٨٧
١٩٠٥ — ١٩٠٦	٤ر٨٤٩ر١٩٢	—
١٩٠٦ — ١٩٠٧	٥ر٩٨٧ر٤٣٣	٣ر٢٨٠ر٧٤٣
١٩٠٧ — ١٩٠٨	٦ر٦٨٦ر٠٤٢	٣ر٢٧٩ر٤٧٨
١٩٠٨ — ١٩٠٩	٦ر٩٤٣ر٣٦٩	٢ر٩٧٩ر٤٨٠
١٩٠٩ — ١٩١٠	٧ر٦٠٨ر٦٣٦	٣ر٥٣٧ر٢٢٨
١٩١٠ — ١٩١١	٧ر٦٨٨ر٢٠٧	٣ر٣٦٩ر٨٦٣
١٩١١ — ١٩١٢	٧ر٨٦٥ر٥١١	٣ر٣٨٩ر٣٦١
١٩١٢ — ١٩١٣	٧ر٩٣١ر٢٥١	٣ر١٨٦ر٥٠٦

زاد رأس المال إلى ١٠ مليون فرنك فى سنة ١٩٠٦ — ١٩٠٧

زاد رأس المال إلى ١٥ مليون فرنك فى سنة ١٩٠٩ — ١٩١٠

وقد كان تقسيم الصافى بين المؤسسين وأعضاء مجلس الادارة والمساهمين بنسب غير عادلة ، وإليك مثالا من توزيع أرباح عام ١٩١٢ - ١٩١٣ ، وهى تبلغ ٣ر١٨٦ر٥٠٦ فرنكات

فرنك	بيـــان
٧٥٠ر٠٠٠	للمســاهمين
٢٤٦ر٢٥٠	لمجلس الادارة والمراقبين
٢ر٠٨٠ر٠٠٠	لحصص التأسيس
١١٠ر٢٥٦	رحل للسنة التالية
٣ر١٨٦ر٥٠٦	

حدث بعد ذلك خلاف بين العمال والشركة من جانب، وبين الشركة والحكومة من جانب آخر. وهنا ظهر بطل الاستقلال الاقتصادى فى الميدان وكتب مقالاته الثلاث التى أشرنا إليها فى أول هذا الفصل . وإليك نص المقالة الأخيرة . وهى المقالة التى فند فيها آراء الشركة تفنيداً قوياً

***

ملاحظات و تعليقات

للمالى الكبير طلعت بك حرب (١)

يرى من يتتبع مقالاتنا السابقة أن المال الذى استعملته الشركة فى إنشاء الترامواى بمصر وإيجاده والانفاق عليه إنما جاءها من طريق رأس المال، وهذا لا يكلفها سوى ربح ٥ ./. ؛ ومن طريق الاقتراض ، وهو لا يكلفها سوى ٤ ./.، وما زاد من الأرباح على ذلك فهو غنيمة باردة لحضرات المؤسسين ، وأعضاء مجلس الادارة . ولو كانت الحكومة المصرية فى ذلك العهد اشترطت فى عقد الامتياز أن الشركة التى تؤسس تكون مصرية خاضعة لقوانين البلاد ، لما وجدنا مثل هذا الاستئثار بالربح ؛ وربما كان هذا هو سر اشتراط الترخيص للشركة بالتنازل عن الامتياز لشركة بلجيكية ،

(١) نقلا عن جريدة الأهرام فى ١٧ سبتمبر سنة ١٩٠٩

للتفادى من عرض قانون الشركة على مجلس النظار، لاستصدار الفرمان به، طبقاً لقانون التجارة المصرى، ويرجح أنه لو كان قد قدم لمجلس النظار مثل هـذا القانون الذى يحصر قسمة الأرباح بين أصحـاب الأموال الحقيقية التى أوجدت الشركة وعليها وحدها نتيجة الخسارة، إن قدّر الله الخسارة، وبين المؤسسين الذين أسعدهم الحظ بعرض المشروع والحصول على الامتياز بدون أى مجهود آخر، كتلك القسمة الضيزى بين السبع والذئب والثعلب

قلنا لو قدم مثل هذا القانون لمجلس نظار الحكومة المصرية أو لمجلس نظار أية دولة أخرى لمـا قبله بالمرة، بل كان من أقل واجباته استنكار مثـل هذا الاستئثار بالأرباح واشتراط نصف تلك الأرباح، على الأقل لحكومته: أى لحكومة تلك البلاد التى أعطت الامتياز، وساعدت على تحقيق الفكرة. وإخراج المشروع إلى حيز العمل، والتى لولاها لما كان لحضرات المؤسسين تلك الأرباح الطائلة !! ولـكن قدر فكان. وحدث أن شركة بلجيكية تحصل من حكومة مصرية على مثل هـذا الامتياز بمثل هذه الشروط، وتستخدم قوى وجهود العمال والمستخدمين وغيرهم، وأموال المساهمين، والمقرضين بفائدة محدودة، أستغفر الله، بل إن تحديدها بالنسبة للمساهمين لا يكون إلا فى حالة الزيادة، أما إذا نقصت الأرباح فالتبعة والخسارة على المساهمين دون غيرهم، أما المؤسسون فماذا يخسرون، ولم يدفعوا مليما عند تأسيس الشركة. من حصص التأسيس التى تقاسموها؟ ولم تفكر الحكومة فى نيـل حصة من الشركة إلا بعد نحو ١٤ سنة من وجود الشركة، حين طلبت هذه منهـا مد. الامتياز لثانى مرة. وماذا نالت؟ ٥ ./. من الايراد فقط! ممـا عدته الشركة شيئاً لا يذكر عند ما عرضت الأمر على جمعيتها العمومية لتقريره

وعلى كل حال فهـذا أمر مرّ وانتهى، فلنـدعه ولنتكلم فى غيره ممـا يهمنا الآن

ردد بعض الجرائد أن الشركة تطلب من الحكومة التصريح لها بزيادة

مليم على أجرة الركوب حتى يتسنى لها إجابة مطالب العمال، كأن هذه الأجرة كان يلزم أن تكون ٥ مليمات فيجب زيادتها!

إن عقد الامتياز يشترط أن الأجرة لا يصح أن تزيد على نصف قرش، وليس معنى ذلك أن الشركة تجعل الأجرة نصف قرش من أول يوم تأسيسها، بل كان الواجب أن تكون أقل من ذلك، بشرط ألا تتجاوزه، ولكنها أرادت — ولا مرد لما أرادت أو تريد — إلا أن تقرر الحد الأقصى من أول يوم، وسارت على ذلك من وقتها للآن، ولا من معارض أو من محتج، لا من قبل الجمهور المسكين. ولا من جهة الحكومة الساهرة على مصلحة الجمهور! حتى إذا ما جاء الوقت العصيب الذى يطلب فيه العمال تحسين بعض الأجور، تقدم هذه الحجة، وتطلب الشركة مثل هذا الطلب! ولماذا؟ لزيادة منافع حضرات المؤسسين وأعضاء مجلس الادارة دون غيرهم

لو كان ذلك خسارة على المساهمين وتقليلا لربحهم لعذرنا واستهنا الأمر، لكن المساهمين — وهم أصحاب الأموال — محدود ربحهم، وكل زيادة نتيجتها إلى جيوب المؤسسين ومجلس الادارة، فما ضرهم لو تنازلوا عن قليل من ربحهم سنة أو سنتين، وهم الذين بقوا نحو الخمس سنوات بدون قبض سنتيم واحد، حين كانت بلجيكا فى قبضة الألمان والشركة البلجيكية لا اتصال لها ببلادها ولا مخابرة، وسيقبضون كل المتجمد مرة واحدة؟ بل هم الذين ذاقوا الأمرين من الاحتلال الألمانى، وكل ربح يأتيهم بعد ذلك الضيق الشديد كبير جداً بالنسبة لما قاسوه. وليفرضوا أن الشركة بلجيكية حقيقية وعملها فى بلجيكا؛ ولو كانوا كذلك لما قبضوا شيئاً حالا من أرباحها، بل لكان غاية ما يمكن عمله تعلية ما خسروه على حساب الغرامة الحربية

كنا نظن أن تلك النفوس التى ذاقت شظف العيش، وجميع صنوف الضنك فى هذه السنوات قد رقت قلوبهم، فهم يعطفون على أولئك المساكين مستخدميهم الذين جمعوا لهم الأموال الطائلة المحفوظة على ذمتهم،

فيتصدقون عليهم ببعضها، إن الله يحب المتصدقين . ولكن قد ساء فألنا، ونراهم لا يريدون التنازل عن شيء — إن صح ما تقوله الجرائد — ويريدون أن يكون هذا العطف من جانب الجمهور المسكين هو أيضاً — فلا حول ولا قوة ، وهذا تصرف ينفر قلب كل عادل غير ذى غرض !

ردد بعض الجرائد أن الشركة تقول أن عقد الامتياز ينص على أن الأجرة لا يصح أن تتجاوز نصف قرش باعتبار أن القرش يبقى مساوياً لجزء من مائة من الجنيه المصرى الذهب . والآن تزيد قيمة الذهب على العملة الورق ، فيجب على الحكومة أن ترخص بزيادة الأجرة بقدر هذا العجز

يالها من مغالطة لا نتصور صدورها من مثل رجال هذه الشركة ! فان إيراد الشركة جميعه يجمع بمصر ، ومنه جانب يصرف فى مصر أجوراً للعمال ومقرراً للحكومة المصرية وثمن مشتريات بمصر . وهذه تصرف ورقاً بالسعر الذى قبض به ؛ والجانب الأخير يصرف فى بلجيكا أرباحاً للمساهمين ، وكوبوناً للسلفيات ، وأرباحاً للمساهمين وأعضاء مجلس الادارة ، أو يصرف فى بلاد أوربية ثمن مشتريات ، وهذه تحول عادة لبلجيكا أو أوربا بتحاويل على بعض بنوكها حسب سعر الكامبيو وقت التحويل ؛ والمعقول أنه قد بقيت جميع المبالغ المقتضى صرفها فى بلجيكا طول مدة الحرب فى مصر تستثمرها الشركة فى بنوك مصر ، فربحت منها بدل أن تخسر ، ثم هى تربح منها أيضاً اليوم بتحويلها لبلجيكا نحو ١٠٦ قروش فى كل مائة فرنك (سعرها الرسمى ٣٨٥ وكسور والآن تساوى ٢٨٠ قرشاً)

ولو فرضنا أن المعتاد صرفه سنوياً ببلجيكا حسب آخر حساب نشرناه نحو ثلاثة ملايين فرنك ونصف لكان مقدار المتجمد من يوليو سنة ١٩١٣ إلى يونيه ١٩١٩ ، أى فى ٦ سنوات ٢١ مليون فرنك ، ولكان ربح الشركة من تحويله الآن لبلجيكا يربو على ٣٢٠ ألف جنيه ، يزاد عليها ما ربحته من بقاء هذه الأموال فى مصر مدة هذه السنوات الست ؛ لأن حسابات سنة ١٩١٣

إلى سنة ١٩١٤ لم تقفل إلا قبيل الحرب بقليل ، ولم يمكن عرضها على الجمعية العمومية فى السنة المذكورة . فلو فرضنا أن الأرباح لم تزد عما كانت عليه فى سنة ١٩١٣ ؛ مع أن لجنة التوفيق قد قالت : إن إيراد الشركة يبلغ ١٠٠٠ جنيه يومياً، أى أن إيراد الشركة يبلغ ٣٦٥٫٠٠٠ جنيه سنويا ، أى نحو عشرة ملايين فرنك بالسعر الرسمى وحوالى ١٤ مليوناً بالسعر الحالى. مع أن إيراد سنة ١٩١٣ بلغ كما رأينا ٧ ملايين وكسوراً فقط . نقول: لو فرضنا أن الايراد لم يزد عما كان ، وكل ما حصل من الزيادة بسبب زيادة عدد الركاب ، وزيادة الجنود ، إلى غير ذلك سد فى زيادة النفقات ، ألا يكتفى حضرات المؤسسين ومجلس الادارة بالأرباح الطائلة التى كانوا يتقاضونها ، ويحسدون أنفسهم عليها ، ويتبرعون للعمال بشىء مما كسبته وتكسبه الشركة من فرق سعر الكامبيو الآن ، أى من المائتين والعشرين ألف جنيه التى تربحها من هذا الباب وحده ؟

وماذا عليها لو خصصت كل هذا المبلغ وما يأتى من هذا الربح للصرف منه فى تحسين حال المستخدمين والعمال ، فهو ربح جاءها ويجيئها من الهواء بدون أدنى خسارة على أحد ؛ لأنها إنما تصرف للمؤسسين والمساهمين وأرباب الديون أرباحهم باعتبار الفرنكات فى بلادهم (وهى لا تصرف للمساهمين أزيد من ٢٥ فرنكا عن كل سهم ، ولأرباب الديون أزيد من ٢٠ فرنكا عن كل سند قيمته ٥٠٠ فرنك) وهى لا تحاسبهم على فرق الكامبيو لأنها تدفع فرنكات بلجيكية وحسابها فى بلادها بها

وهذا الربح ناتج من عملية تحويل هذه الأموال من مصر إلى بلجيكا ، ونتيجة زيادة قيمة العملة المصرية عن عملة بلجيكا فى هذه الأيام ، ومأمولنا أن حكومتنا السنية تعير هذه المسألة جانباً من عنايتها فتناقش الشركة هذا الحساب، وتحل هذه الأزمة التى طالت بلا مقتضى

وفقنا الله جميعاً لما فيه الخير والسلام   محمد طلعت حرب

***

أتراه وهو يكتب هـذا المقال وينشره قد توهج قلبه بهـذا النور من الالهام الذى كان شرارة هينة لينة ، ثم استحال قبساً من نفس مشـتعلة غيرة على مصالح أمة بأسرها تهتكتها هذه الشركات الغربية ؟ !

أجل فها هو ذا القبس من الزعامة الاقتصادية التى تمثلت واستوت فى شخصية رجل هو طلعت حرب قداستحال ضياءاً ، وها هو ذا الضياء قد بدأ ينتشر فيعمر قلوباً أخرى لتؤمن برسالة المصلح الذى أدرك بوحى فكره وخواطره كيف يفسر أحداث المجتمع فى بلاده تفسيراً اقتصادياً ، وعرف بقوة إلهامه وصادق عزيمته كيف يعمل للاصلاح الاجتماعى عملا اقتصادياً عظيما يغير من أركان العمران فى المجتمع المصرى

فها نحن أولاء تطالعنا الصحف بعد ثورة «مشكلة الترام» بأسبوع واحد. بخبر صغير عظيم ، هو أن طائفة من الماليين المواطنين قد فكروا جدياً فى تأسيس شركة مساهمة لبنك مصرى خالص . . . ولقد بارك الله هذا الخبر الصغير فتعلقت به روح أمة ، وجعلت منه حياة وارفة الخير لأبنائها جميعاً .

معهـــد الاســـتقلال الاقتصادى



كانت سنة ١٩١٩ فى مصر سنة ثورة ونهضة وإصلاح ، وكانت أيامها مفترق الطرق بين الماضى والحاضر والمستقبل : نادى فيها سعد زغلول ومن معه نداءهم إلى الحرية ، وردّد الشباب هذا النداء صيّاحاً ، تغلى وتهدر له الدماء فى طلب الاستقلال

فجاء زعيم من الزعماء ينادى قومه إلى ناحية ملموسة من الحرية

— إلى الاستقلال الاقتصادى — وكان هذا الزعيم هو « طلعت بك حرب» الذى وقفنا إليه فى الفصل الماضى يدافع عن ثروة مصر والمصريين بقلمه ، كما كان يدافع عن هـذه الثروة بلسانه ، ثم جاء يدافع عنها بيده — يده التى استحالت بالأفكار المختمرة الحية إلى رءوس أموال تدبرها . ثم تديرها هذه اليـد الذهبية !

* * *

حين قامت الحرب الكبرى فى نهـاية سـنة ١٩١٤ وقفت كل شىء ، وكان فى أعز ما وقفته هـذه الحرب العاتية شيئان خطيران : هما علاج مصر السياسى الذى كان يدبره الساسة المواطنون فى أحزابهم وصحفهم وأنديتهم السياسية جميعاً ، وعلاج مصر الاقتصادى الذى كان يدبره « محمد طلعت حرب » وحده فى كتابه « علاج مصر الاقتصادى وإنشاء بنك الأمة » .

فلما وقفت رحى الحرب ، وفرغت شئونها نهائياً فى أوائل سنة ١٩١٩ سـار كل شىء فى طريقه ، فواصـل الساسة تدبرهم العلاج السـياسى لمصر فى أسلوب ثائر جديد ، وواصل طلعت حرب تدبر العلاج الاقتصـادى لمصر فى أسلوب جديد هو الآخر .. لكن هذا الأسلوب العبقرى كان هو الانصراف عن التأليف الفكرى إلى تأليف أول شركة مساهمة لأول وأعظم بنك عرفه التـاريخ فى الشرق الأدنى ، وكان هـذا البنك هو الجزء الثـانى من كتاب « علاج مصر الاقتصادى » تأليف محمد طلعت حرب ! !

* * *

وقفنا فى الفصل الماضى إلى « طلعت بك حرب » تفتق غيرته لوطنه ستار صمته ، وتبرز زعامته الاقتصـادية إلى الوجود . . كان هـذا فى أواخر سنة ١٩١٩ ، وها نحن أولاء نلتقى به فى أول مايو سنة ١٩٢٠ قد رفع بيمناه لواء اســـتقلال مصر الاقتصادى ، حيث تأسست الشركة ، وتدبرت الأموال ،

افتتح بنك مصر أبوابه للعمـلاء وطنيين ، ومواطنين ، ومستوطنين ، فى ٧ مايو سنة ١٩٢٠

فى هـذا التاريخ بعينه وقف طلعت حرب عميد بنك مصر على منصة الخطابة فى حفلة افتتاح البنك بدار الأوبرا يعلن أن البنك « سيعمل على بث روح العمل والنظام فى الشبيبة ، وإنماء ملـكة الاقتصاد والتجارة فيهم ، والحث على وضع أساس التربية الاقتصادية العملية فى البلاد ، وجعل تعليم الحساب والنظام الحسابى أساساً فى مناهج التعليم . . . هذا هو برنامج بنك مصر سيعمل على تحقيقه تدريجياً بكل تأن وروية »

برنامج لا تقرأه لبنك ، إنما تراه فى برامج المذاهب الاصلاحية الكبرى التى أقامت نهضـات وحققت غايات وطنية عالية . والواقع أن مشروع بنك مصر لم يكن مشروع شركة مالية بقدر ما كان مشروع علاج فعلى لأدواء الحياة فى مصر ، أراد المصلح أن يلقى به على شباب هذه الأمة — بين الخطب النارية التى كانت تلتهب لها دماؤهم من سنة ١٩١٩ إلى سنة ١٩٢١ — خطبة ذهبية تغلو بها هذه الدماء ، محققاً بها حكمته الدرية التى قالها فى تـكريم « سيجفرد » سنة ١٩١٣ « إننا نريد أن نعيش مع الآخرين كما يعيش الآخرون »

أراد الله وسارت النهضتان سوياً ، نهضة السياسة ، ونهضة الاقتصاد . ونحن وإن كنا نعتقد أن النهضة الاقتصادية هى جزء من السـياسة الحـديثة فى كل أنحاء العـالم ، إلا أننا نستطيع أن نقول : إن نهضتنا الاقتصـادية التى أوجدها وحققها بنك مصر كانت أسبق من نهضتنا السياسية إلى تحقيق غاياتها . ذلك لأن بنك مصر قد اتخـذ من الأمة المصرية وظيفة يمكننا أن نصفها كما وصفها طلعت حرب فى ٢٢ مارس ١٩٢٥ « بأنهـا وظيفة وكيل أمين يساعد على تحقيق المشروعات الاقتصادية النـافعة للبلاد بتحضير دراستها واستيفاء فحصها وتهيئة معداتها ، ثم تـكوين شركات مساهمة لها »

لم تنثر الرياح فى طريق بنك مصر الزهور من غير أشواك . لـكن

حرباً قد نفث فى صدور من حوله روحاً من الحب لمشروعهم العزيز ، وكم يفعل الحب من الأعاجيب ، فداسوا الأشواك بأقدامهم ، وقدموا الزهور فى رباط ذهبى متين إلى الأمة التى قدرت مشروعهم فتعلقت به أحلامها وأمانيها . وقد وقف طلعت حرب فى يوم من أيام مجده يعلن حب رجال بنك مصر للبنك ، وحب المصريين لبنك مصر ، وما ترتب على هذا الحب من إرادة نفاذة تبيد الصعاب قائلا :

« إن بنك مصر ما كان ليصادفه هذا النجاح إذا لم يتفق المصريون على إنجاحه ، وإذا لم تقو إرادة القائمين به على مقاومة الصعاب لا بلاغه هذه الدرجة من النجاح ، بل يصح القول بأن الارادة القوية — إرادة فعل الخير القوى المقرون بالاخلاص المجرد عن الغايات الذاتية هى أس نجاح العمل فى أى قطر كان » [1]

أجل تضافرت جهود الأمة على إنجاح مشروع طلعت حرب منذ اللحظة الأولى التى أحس الرجل الملهم أنها لحظة التنفيذ ، وآية هذا أننا نجد الشباب حينما أعلن اكتتاب بنك مصر فى سنة ١٩٢٠ يتطوعون فى عملية الاكتتاب ، ويساهمون فيها مساهمة شعبية كانت هى البداية الرائعة للعلاقة الحميمة بين قلب الأمة وحياة بنكها العظيم . . .

ليس جديراً بنا أن ننكر ما لقيه البنك من الشدائد أول أمره . على أن هذه الشدائد ليست إلا صدى لما كانت تلاقيه الأمة المصرية كلها إذ ذاك . فلما استتب الأمر للأمة قليلا ، وتبين المصريون جلائل انتباههم إلى الاصلاح الداخلى فى البلاد ، عظم بنك مصر وعظمت جهود عميده فى نظر المواطنين ، وأصبح اسم « طلعت حرب » عنواناً على النزاهة ، والحب ، والنجاح ، والاستقلال فى نظر كل شيعة ، وكل حزب ، وكل بيت ، وكل حكومة مصرية لا يفتتح برلمان مصرى إلا وتنتخب السلطة التنفيذية من أى لون

(١) من خطابه بمدينة دمشق الشام فى ٧ يوليه ١٩٢٥

سياسى كانت طلعت باشا فى مقدمة الأعضاء لمجلس الشيوخ ؛ ولا يقوم فى البلد مشروع اقتصادى شعبى من مشروعات الشباب إلا ترى اسم طلعت فى رأس هـذا المشروع رائداً أو راعياً أو رئيساً من رؤساء الشرف ؛ ولا تمر بمصر مسألة فى حياتها الاقتصادية صغيرة كانت أو كبيرة إلا ويكون مرجعها إليه ومشورتها عنده . حتى إذا مارغبت الحكومتان المصرية والانجليزية فى تبادل بعثتين اقتصاديتين رسميتين لم يتم تشكيل البعثة المصرية — على صبغتها الرسمية — إلا باشتراك طلعت حرب !!

ذلك أن طلعت كان قد أسلم قلبه لعمله الوطنى العظيم ، فأنت تراه لا يعمل إلا له ، ولا يتحدث إلا به ، وها أنت ذا تجده يقول فى خطبة ألقاها بمدينة المحلة الكبرى فى ١٤ سبتمبر سنة ١٩٢٤ :

« . . . . والآن أحدثكم عن معشوقة أخرى ليس بينهـا وبين مدينتكم إلا كل محبـة وصداقة ، وكل تضامن متين فى المصلحة العامة . . أحدثكم عن بنك مصر . أحدثكم عن البنك الوطنى الحقيقى الذى يشعر بمـا يشعر به أهل كل جهـة من جهـات القطر ويشعـر بحاجات البلاد لتحقيق اسـتقلالها الاقتصادى ، ويعمل قدر جهـده لبلوغ هذه الغاية العظمى » . . . ولقـد كان جهـده عظيما ، وإحساسه بحاجات البـلاد دقيقاً ، وعمله لبلوغ غاياته وتحقيق آماله سريعاً مجيـداً

شركات تحقق الغايات

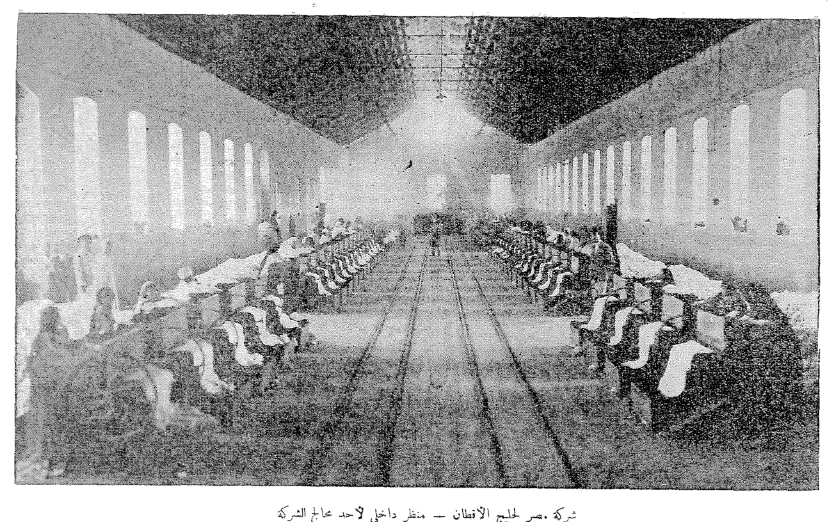
« سيشجع البنك المشروعات الاقتصادية المختلفة التى تعود عليه وعلى البلاد بالربح العظيم ، ويساعد على إيجاد الشركات المالية والتجارية والصناعية والزراعية، وشركات النقل بالبر والبحر، وشركات التأمين بأنواعها ، ويتعهدها حتى تنمو وتقوى ويشتد ساعدها ، وبالجملة يعمل على أن يكون لمصر صوت مسموع فى شئونها المالية ، ويدافع عن مصالحها كما تدافع البنوك عن مصالح بلادها »

هذه الفقرة التى استخرجناها من برنامج بنك مصر الأساسى إنما تحتوى على النموذج الذى صوره فى عقله طلعت حرب يوم اعتزم أن يضع الحجر الأساسى لاستقلال مصر استقلالا اقتصادياً . . فقد عزم على إيجاد الشركات الصناعية والتجارية فى المستقبل ، وقد كان هذا المستقبل أقرب مما يتصوره خياله . . . ذلك أنه رسم الخطة وأقبل على تنفيذها بهمة طلعتية لا تعرف التردد

لقد بدأ العمل صغيراً ، لكنه سار بخطوات جبارة إلى العظمة . . . كانت سياسة البنك التى اختطها طلعت حرب أن يقتطع من أرباحه السنوية جزءاً من المال حتى إذا ما تكون من هذه الأجزاء رصيد معقول استطاع أن يعلن إنشاء شركة يكون قد درس فكرتها دراسة عميقة

فى أغسطس عام ١٩٢٢ بدأ بتأسيس مطبعة مصر. ولم تكن هذه الفكرة فكرة مصادفة ، بل إن المبالغ الضخمة التى كان يصرفها بنك مصر فى شراء دفاتره ومطبوعاته كانت تدعو الى التفكير فى إنشاء هذه المطبعة

كان رأس مال شركة المطبعة عند إنشائها خمسة آلاف من الجنيهات ،



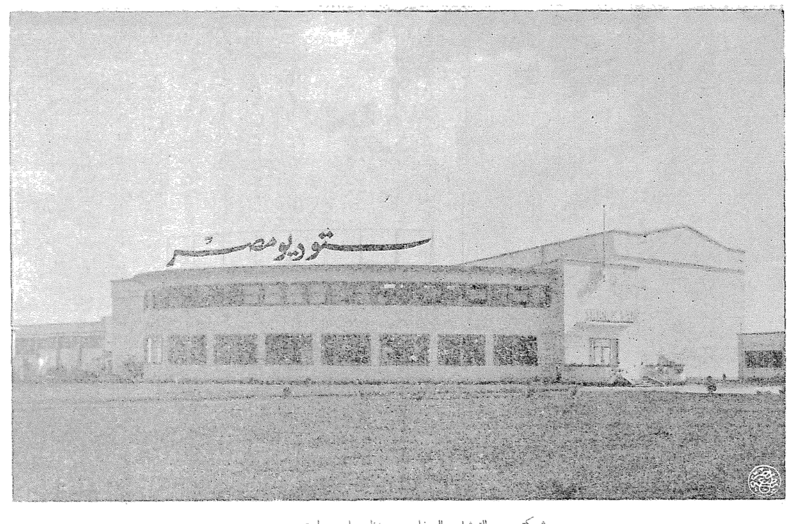
شركة مصر لحليج الأقطان — منظر داخلى لأحد محالج الشركة

وهو مبلغ بسيط لا يكفى لانشاء هذه المطبعة النموذجية التى ارتسمت صورتها فى ذهن الجبار ، لكن الصبر والمثابرة جعلت من هذه المطبعة حدثاً فنياً غير وجه الطباعة فى البلاد . فتقدمت وتحسنت حتى أصبحت تضارع أمهات المطابع فى أعظم البلاد شأناً ، وصار رأس مالها الحالى خمسين ألف جنيه . وهكذا بدأ طلعت يعيد إلى مصر والمصريين آلاف الجنيهات التى كانت تذهب إلى جيوب الأجانب فى عالم الصناعات !

***

فكر طلعت حرب فى سعادة الفلاحين الذين شغف طول حياته بسعادتهم ؛ فلما تمكن لديه من القوة ما يستطيع بها أن يعمل عملا جدياً لسعادة الفلاح المصرى ، كانت أول شركة عمل لتأسيسها بعد المطبعة شركة صغيرة لتجارة وحلج الأقطان، تأسست فى ٢ أكتوبر سنة ١٩٢٤ برأس مال بسيط لا يتجاوز ثلاثين ألف جنيه . وفى مغاغة ألقى القنبلة الأولى لغزو ميادين الأقطان . فى هذه البلدة الصغيرة « مغاغة » احتفل طلعت حرب وصحبه بانشاء النواة الأولى لشركة مصر لحليج الأقطان ... وبارك الله فى هذه النواة فأصبح لهذه الشركة ثمانية محالج فى : مغاغة ، بنها ، المنصورة ، والمحلة الكبرى ، الواسطى ، الفيوم ، طامية ، جرجا . وأصبحت هذه المحالج تحلج من القطن سنويا ما يربو على المليون قنطار ، وزاد رأس مال الشركة ببركة الله وتوفيقه لطلعت إلى مائتين وخمسين ألفاً من الجنيهات

جاء عام ١٩٢٥ فاذا ببنك مصر يظهر العالم على آيتين من الآيات الطلعتية فى الصناعة الوطنية ، ففى أغسطس من سنة ١٩٢٥ تأسست شركة مصر للنقل والملاحة كى تنقل القطن الذى تحلجه الشركة الأولى إلى الأسواق ؛ ولم يكن هذا إلا مساعدة جديدة للفلاح المصرى الذى كان يئن من غلاء أجور النقل بالسكك الحديدية . . . وزاد أسطول هذه الشركة ،



شركة مصر للتمثيل والسينما — منظر خارجي لستوديو مصر

فاصبح مكوناً من ثلاث وسبعين قطعة على الطراز الحديث . وزاد رأس المال فيها إلى مائة وخمسين ألف جنيه

ثم تأسست شركة مصر للتمثيل والسينما ، وكانت الفكرة الأولى لطلعت حرب فى تأسيس هذه الشركة أن تكون دعاية طيبة لمصر والمصريين ، ووسيلة حسنة من وسائل الاعلان عن البنك وشركاته التى يكونها . وزاد تقدم هذه الشركة بمرور الأيام ، فاذا بها تنشىء استوديو مزوداً بأحدث الآلات والأجهزة ، فكان أعظم استوديو فى الشرق . وليس لنا هنا إلا أن نثبت هذا الاعتراف الخطير الذى أدلى به أحد الخبراء الأجانب حين زار هذا الاستوديو وشهد أن مدينة هوليوود ، مركز السينما ومصدر الصور المتحركة ليس بها استوديو واحد كهذا الاستديو .... وبارك الله فى هذه الشركة أيضاً ؛ وصاحبها توفيق طلعت حتى ارتفع رأس مالها من خمسة عشر ألفاً إلى خمسة وسبعين ألفاً من الجنيهات

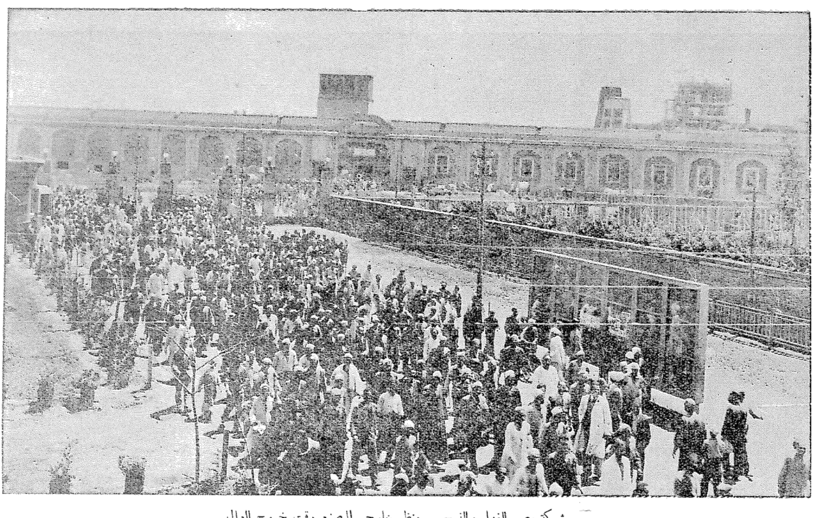
***

عاد طلعت يفكر فى بقية المنسوجات ، فأنشئت شركة مصر لنسج الحرير التى تقوم بنسج الحرير الطبيعى نسجاً ميكانيكياً فى المركز القديم لصناعة الحرير بعينه ونعنى به دمياط .. وقد بدأت برأس مال يبلغ عشرة آلاف من الجنيهات ، فاذا بها تبلغ اليوم خمسة وسبعين ألفاً

تجىء بعد هذا كله المعجزة الطلعتية الكبرى معجزة الاستقلال الاقتصادى المصرى فى القرن العشرين ، حيث أنشئت الشركة التى سجلت اسم بنك مصر واسم عميد بنك مصر فى سجل الخلود — شركة مصر للغزل

أسست شركة مصر لغزل القطن ونسجه فى ٢٦ أغسطس سنة ١٩٢٧ فى « مانشستر مصر » المحلة الكبرى ... وكان رجال الادارة فى هذه الشركة وعلى رأسهم زعيمهم طلعت حرب يقدرون مدى خطورة النتائج الاقتصادية التى ستترتب على ظهور منتجاتها فى الأسواق ، فأخذوا يعالجون الأمر بتجربة حكيمة متشددة دامت ثلاثة أعوام ونصف عام ، حتى أصبحت هذه النتائج

شركة مصر للغزل والنسج — عنبر النسج



شركة مصر للغزل والنسج — منظر خارجى للمصنع وقت خروج العمال

موضع الثقة من العاملين على إنشاء هـذه الشركة ، وإحياء صـناعة النساجة والغزل بها فى البلاد المصرية

حينئـذ تشرفت إدارة الشركة بدعـوة المغفور له الملك فؤاد الأول لافتتاح الشركة ، فتفضل وافتتحها بنفسه رسمياً فى ٢٣ مارس سنة ١٩٣١ .. وهناك على أرض مدينة المجد الصناعى المصرى — المحلة الكبرى — وقف صاحب العزة محمد بك طلعت حرب فى حضرة صاحب الجلالة الملك يقول :

« إذا كانت الصـناعات النسجية فى القرن المـاضى صناعات يدوية ، وكانت أقرب إلى الصغرى منهـا إلى الكبرى ، فان جلالتكم حين تشرفون اليوم مصنع شركتنا تجـدون الفرق بين العهدين ظاهراً ، فترون صـناعات الغزل والنسج قائمـة على أحدث طراز وأحدث ماكينات . وترون بالجملة صناعة كبرى لصناعة صغرى ، وعهداً صناعياً جديراً بأن ينال مكانه وسط الأعمال الجليلة التى تمت فى عهد جلالتكم الميمون »

ثم طاف طلعت حرب بك فى معية صاحب الجلالة بمغازل المصنع ومناسجه ومعداته المختلفة التى تشمل مسـاحة مقدارها عشرات الأفدنة .. وبعد أن قضى جـلالة الملك ساعتين كاملتين فى السـير على قدميه ممتعاً قلبـه بهذه النهضة المـادية الملموسة ، اتجه صوب باب المصنع رافعاً يده إلى رأسـه بالتحية الملكية الجميلة قائلا : « متشكر جداً يا طلعت باشا .... »

ثم سارت شركة مصر للغزل والنسـج يحبوها تشجيع المصريين جميعاً وفى مقدمتهم ملك مصر وزعماء مصر حتى بلغت مكانة لفتت أنظار الدوائر الصناعية فى كل بقاع العالم ، وها هو ذا طلعت حرب باشا يعطينا صورة مختصرة منها فى خطابه الجامع الذى ألقاه فى العيد الخامس عشر لميلاد بنك مصر فى ٧ مايو ١٩٣٥ فيقول :

« وليس فى مصر ولا فى غير مصر شركة تحوى هـذه المصانع مجتمعة فى أرض واحدة ، تحت إدارة واحدة ، تشرف على ١٢٠٠٠ عامل يشتغلون

الباخرة « النيل »

مناوبة بالليـل والنهار، وقد يصلون إلى عشرين ألفاً قريباً باذن الله » وها هى ذى الأرقام تعزز قول الزعيم . . .

فقد زاد الاستهلاك فى هذه الشركة . فبعـد أن كان ٢٢ ألف قنطار فىسنة ١٩٣١ بلغ ١٥٢ ألف قنطار فى سنة ١٩٣٤ ، وسوف يزداد حتى يبلغ نصف مليون قنطار فى سنة ١٩٣٧ باذن الله

أما مصانع الشركة فقدزادت وتضخمت، وإليك ما احتـــوته هذه المدينة من المصانع :

١ ـــ مصنع غزل القطن	٢ ـــ مصنع نسج القطن
٣ ـــ « « الـكتان	٤ ـــ « « الـكتان
٥ ـــ « الصباغة والتبييض	٦ ـــ « الطباعة
٧ ـــ « القطن الطبي	٨ ـــ « الدوبارة والأحبال
٩ ـــ « الجوربات والفانلات	١٠ ـــ « الداتلا والناموسيات
١١ ـــ « البطاطين	١٢ ـــ « الأصواف والأجواخ

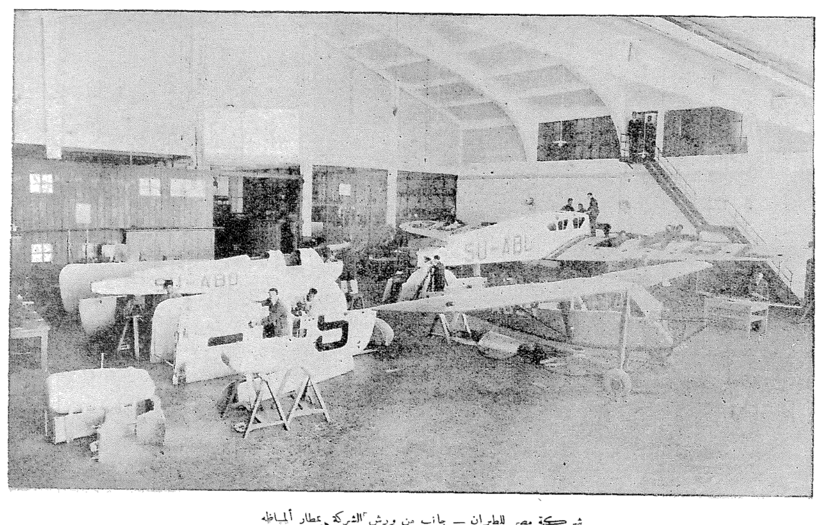
* * *

لم تنته هذه السنة المباركة ، سنة ١٩٢٧، فى تاريخ مصر الاقتصادى حتى تألفت شركة مصر لمصايد الأسماك ؛ وكان الغرض الأول لها « تنظيم الصيد من البحار والبحيرات المصرية والنيل» (١)

لـكن سرعان ما تطورت أغراض هذه الشركة فى عالم الأحياء الصناعى،فأنشأت مصنعاً لصنع الأزرار بمدينة السويس . . وإن منتجات هذا المصنع لتغمر السوق المصرية حيث يتابعها النجاح فى كل مكان . .

لم تـكن هذه الشركة الثالثة هى الأخيرة التى أنشئت فى هذا العام ؛ بل إن شركة جديدة هى شركة مصر للـكتان، ظهرت فى السوق المصرية لتعطين

(١) خطبة عيد بنك مصر فى ٧ من مايو سنة ١٩٣٥



شركة مصر للطيران — جانب من ورش الشركة بمطار ألماظة

الكتان ونفضه وغزله ونسجه وتجهيزه النهائى . ولقد عادت هذه الصناعة إلى الحياة من جديد بعد أن كادت تندثر وتزول

لم يقف هذا النصر كله بجهود طلعت عند هذا الحد ، فعمل على إنشاء شركة مصر للطيران سنة ١٩٣٢ برأسمال قدره أربعون ألفاً من الجنيهات ، ثم شركة مصر لعموم التأمينات سنة ١٩٣٤ برأسمال قدره مائتا ألف جنيه ، وشركة مصر للملاحة البحرية . . . . وهنا لا يسع المؤرخ لطلعت حرب إلا أن يقف منصتاً إليه وهو يقول فى ١٥ يونيه سنة ١٩٣٤ على ظهر الباخرة النيل فى أول رحلة مصرية لها بين الاسكندرية ومرسيليا

« سيداتى ، سادتى:

« هذا اليوم يوم عيد ، أتيح فيه لعلم مصر الخفاق أن يرفرف لأول مرة على النيل فوق البحار »

ففى هذه الكلمة وحدها من المعانى ما يعجز القلم عن تصويره بشتى النواحى التى تحسها القلوب المصرية إزاء معانيها

وقد كان آخر الشركات التى عمل طلعت حرب على تأسيسها شركة مصر للسياحة ، وذلك بالاتفاق مع شركة من أقوى شركات العالم وأقدمها، ونعنى بها شركة (Cox & King)، وفى مثل هذا الاتفاق دليل على المكانة التى أخذتها شركات مصر الحديثة بين الشركات الأجنبية القديمة.

ليس شك أن رجالا أقطاباً أكفاء قد ساهموا واشتركوا فى تأسيس هذه الشركات وفى إدارتها ، لكن التاريخ سيذكر لطلعت حرب أنه كان دائماً المتقدم بفكرة كل شركة منها إلى الجمهور ، المتحمل للمسئولية أمامه . وليس أدل على هذا من انتخابه فى شركات مصر الأربع عشرة نائب رئيس وعضو مجلس إدارة منتدب

* * *

لعلك لاحظت — ونحن نسرد لك شركات مصر التى تضم الآن

١١٥٠ موظفاً، ١٦٠٠٠ عامل — كما يقول طلعت حرب — « إن هذه الشركات تكون حلقات متصلة بعضها ببعض دون أن يكون تأسيسها اعتباطاً

« فالمكتبة والمطبعة والشركة المساهمة لصناعة الورق — حلقة . . . وللقطن حلقة تتمثل فى الحلج والنقل والتصدير والتأمين والغزل والنسيج . . . وتتصل بحلقات القطن أيضاً حلقات الحرير والكتان

« ومن النقل تكونت حلقة بين النقل فى النهر والنقل فى البحر والنقل فى الجو، كما اتصلت بهذه الحلقة مسألة السياحة .

« ومن اتصالنا بالبحر نشأت حلقة أخرى هى « حلقة السمك » وما خرج منها من صناعة أزرار الصدف

« ثم الحلقة التى تربط جميع الحلقات وتذيع عنها كل ما تهم إذاعته ، ونعنى بها حلقة السينما والدعاية بها »[1]

* * *

إننا نتساءل مع طلعت باشا هذه الأسئلة التى رددها بخطابه فى حفلة العيد الخامس عشر لبنك مصر حين يقول : « إذا لم يكن فى البلد بنك مصر، فمن كان يؤسس هذه الشركات؟ وأين كانت تذهب رءوس أموالها وهى آلاف مؤلفة من الجنيهات ؟ وأين كانت تستقر ؟ ومن كان ينتفع بها ؟ . . . . . . وأين كان يذهب ألوف العمال وجماعاتهم وأنصاف المتعلمين الذين يشتغلون الآن فى شركات بنك مصر ؟ ؟ »

(١) خطبته فى عيد بنك مصر فى ٧ من مايو سنة ١٩٣٥

الوطنية الاقتصادية تنتصر

انبثق فجر سنة ١٩٣١ يحمل فى طياته سراً جديداً من أسرار الاستقلال، سراً يتضمن لوناً جديداً قوياً من الوطنية ، هو الوطنية الاقتصادية

اشتدت الأزمة بالمصريين فى نهاية سنة ١٩٣٠ ، وانتهت هذه الأزمة الاقتصادية فى مصر إلى ما انتهت إليه الأزمة الشبيهة بها فى سنة ١٩١٠ ... كان الفارق بين الأزمتين فارقاً فى نفسية الأمة خلال التاريخين . فالمصريون فى سنة ١٩٣٠ كانوا غير المصريين فى سنة ١٩١٠ نفسية وشجاعة وإقداماً

كان المصريون فى سنة ١٩٣٠ قد شارفتهم الزعامة الاقتصادية التى عقدت لطلعت حرب ، وكانت هذه الزعامة الاقتصادية . وما إليها من جهود الأكفاء من المصريين الذين عاونوا طلعت وشاركوه فى نهضته قد تركت أثراً جديداً فى النفسية المصرية ، وعلمت المصريين كيف يكون الاقتصاد عدة ودعامة فى بناء الاستقلال

تفشى هذا السر فى مصر من قلب إلى قلب ؛ وآمن المصريون ، ممثلين فى شبابهم المستنيرين ، أن الخلاص مما أحاق بمصر من الاستعمار الاقتصادى الأجنبى الذى كشفت الأزمة ستره وخبيئته إنما يكون بتنظيم الدعوة إلى الانتاج المحلى ، وتعبئة هذا الانتاج إزاء الواردات الأجنبية التى تزاحم المنتجات الوطنية فى الأسواق المصرية . . وفى أيام معدودات من يناير سنة ١٩٣١ انتشرت هذه الدعوة بين صفوف الشباب ، وانتقلت من ساحتهم إلى أبناء البلاد جميعا

حمل لواء هذه الدعوة فى مهدها جماعة من المفكرين (١) تمثلوا بمثل

---

(١) هم الدكتور محمد أبو طائلة الكاتب الاقتصادى المعروف (مستشار الجمعية الفنى) . والأساتذة :

طلعت حرب . واتخذت هذه الجماعة لها اسم « المصرى للمصرى »، فانتشرت دعوتها بين الشباب المصريين جميعاً . وأقام الشباب أنفسهم دعاة لهذا الأسلوب الجديد من الكفاح الاقتصادى الوطنى

كان طبيعياً أن يتقدم الصفوف فى هذه الدعوة وكلاء الأمة، فألف الوفد المصرى لجاناً من جنده لهذه الغاية ، وكان لهذه اللجان أثر كبير فى نجاح الدعوة وانتشارها واعتبارها مبدأ عاماً من المبادىء الوطنية البحتة التى ينادى بها الزعماء . وكان الزعماء عامة يطوفون بالمتاجر الوطنية ليشجعوها ، وليعلنوا عنها ، وليلفتوا أنظار المواطنين إليها . وليس شك فى أن طواف الزعماء بالمتاجر والمصانع الوطنية وتشجيعها كان نداء عملياً ، وإيحاء قوياً، حمل الشعب على تلبية النداء . . وكان فى الصف الأول من هذه الحركة صاحب المجد النبيل عباس حليم ، والمجاهدون الوطنيون : محمود فهمى النقراشى باشا وحمد الباسل باشا ، والسيد عبد الحميد البنان

أولئك الساسة كانوا فى مقدمة الذين عملوا لاحياء الصناعة المصرية ، وفى مقدمة الذين استبدلوا بثيابهم من الأقمشة الأجنبية ثياباً من أقمشة وطنية قدر المستطاع. وقد استعان النقراشى باشا على تحقيق هذا الغرض الوطنى النبيل أول الأمر باستيراد بعض الأقمشة الصوفية من مصانع العراق ريثما تتم صناعة الأقمشة الصوفية بمصر ؛ كما كان يعرض المنتجات المحلية الصناعية فى قاعات النادى السعدى، ويروج لها بنفسه ، فكان هذا المعرض الصناعى الوطنى الصغير الذى أقامه النقراشى باشا فى النادى السعدى من الأسباب الأولى التى دفعت المشتغلين بالوطنية الاقتصادية إلى إنشاء شركة بيع المصنوعات المصرية ، على النحو الذى تقرأه فى الفصل التالى

سلامه موسى الصحفى المعروف (رئيس مجلس الادارة) ، وحافظ محمود أحد مؤلفى هذا الكتاب (السكرتير العام)، ومحمد عبد الصمد عضو مجلس النواب الحالى (أمين الصندوق)، والأساتذة الأعضاء: راشد رستم مدير قسم النشر بوزارة التجارة، وامين الخولى الأستاذ بكلية اللغة العربية والآداب، وابراهيم محمد المحامى .

***

لم يكن بد يومئذ من اتجاه الأنظار إلى الرجل الذى كانت أعماله وحياً لهذه النهضة الجديدة. وكانت جريدة المساء أكثر الجرائد الوطنية مشايعة لهذه الحركة، فأوفدت مندوبها يسأل طلعت باشا رأيه حيال هذا النشاط. وطالعت الجريدة قراءها فى ٧ مارس سنة ١٩٣٤ بحديث مستفيض عن نهضة تشجيع المصنوعات المصرية جاء فيه:

«س: ما هى الطرق التى تشيرون باتباعها لبلوغ الغرض المقصود؟

ج: يصح أن تنظم الدعوة إلى الاستعاضة عن المصنوعات الأجنبية بالمصنوعات الوطنية على مثل القواعد الأساسية الآتية:

أولا: أن تكون الدعوة قائمة باعتبارها فكرة اقتصادية محضة حتى يقبل اعتناقها كل مصرى

ثانياً: أن تكون بعيدة كل البعد عن السياسة، فان هذه الدعوة تستطيع أن تعيش وحدها على أساس الفكرة الاقتصادية بدون خلطها بأى اعتبار سياسى.

ثالثاً: أن تكون الدعوة بمثابة ميثاق قومى اقتصادى يعتنقه كل مصرى كعقيدة وكواجب وطنى مفروض

رابعاً: أن تنظم الدعوة بصفة قومية ينسى القائمون بها منافساتهم ومنازعاتهم الشخصية أو الحزبية

خامساً: أن يتضافر أرباب الصناعات المتماثلة بتكوين جماعات منهم بصفة اتحاد صناعى لكل صنعة، يساعد على التعاون فى انتقاص التكاليف والبيع بأسعار تقاوم منافسة الخارج

سادساً: أن يزداد اهتمام المصريين بالأعمال الصناعية ويخصصوا شيئاً من أموالهم لتنشيط الصناعات القائمة وإنشاء الصناعات الحديثة

سابعاً: أن تستمر الحكومة المصرية على خطتها القاضية باتباع سياسة الحماية الجمركية وتفضيل المصنوعات الوطنية على المصنوعات الأجنبية فى

التوريدات العمومية: ولو زاد ثمنها بمقدار ١٠٪.»

آمنت مصر أمة وحكومة بهذا البرنامج الذى جمع فيه طلعت تفاصيل نهضتها الاقتصادية الاستقلالية الجديدة، فاتفقت الأحزاب المتنافرة على هذه الخطة، وكنت لا ترى اتفاقاً بين حكومة الأقلية التى كانت قائمة يومئذ[1] وبين أكثرية الأمة المجاهدة إلا فى هذه النقطة وحدها... وكذلك كتب الله النصر المبين للزعامة الاقتصادية التى تمثلت فى طلعت حرب

لقد نجحت هذه النهضة نجاحاً تاماً بأن بدلت الاعتبارات القديمة فى السوق المصرية. فبعد أن كان قصارى فخر المفاخرين فى الأسواق أن يقولوا هذا الذى بيدينا هو بضاعة غربية، أصبح قصارى فخرهم أن يثبتوا وطنية بضاعتهم وعراقتها فى المصرية

ذلك فضل الانتاج المصرى الجديد الذى تختص شركات مصر الموسومة بسمة طلعت بأكبر نصيب منه... ومع هذا فان هذا الرجل الذى تناديه روحه آناء الليل وأثناء النهار بالفزع إلى استكمال ما نقص الأمة من معدات الاستقلال الاقتصادى الأكيد — لا يزال يكرر دعوته كل يوم فى أسلوب جديد. فتراه وقد فرغت مصر من إبرام اتفاقها أخيراً مع بريطانيا يدلى إلى أول صحفى يسأله الحديث بالتصريح الآتى:

«... فى رأيى أنه يجب أن ترسم للبلاد سياسة اقتصادية قومية ترمى إلى زيادة الانتاج الزراعى والصناعى وحمايتهما حماية صحيحة، ثم إلى حمل البلاد جميعاً على تفضيل المصنوعات المصرية على ما عداها فى جميع الأوساط والهيئات والمصالح»[2]

* * *

ألست تراه نهازاً للفرص، يضع الأشياء فى مواضعها؟..

---

(١) وزارة اسماعيل صدقى باشا

(٢) حديث طلعت باشا فى باريس بجريدة البلاغ فى ٢٠ من سبتمبر ١٩٣٦

تحت لواء الزعيـــم

وقف طلعت حرب باشا ليلقى خطبته التاريخية الكبرى فى يوم الاحتفال بالعيد الخامس عشر لبنك مصر أمام ألوف من المصريين والأجانب ، جمعت صفوفهم الوزراء والسفراء ومحافظى البنوك ومديرى الشركات والعلماء والأدباء والشباب . وأجمل فى خطابه خطى بنـك مصرفى هذه السنوات الخمس العشرة كلها خطوة خطوة إلى الاستقلال الاقتصادى ، فلم يفت زعيم هذا الاستقلال الاقتصادى أن يقول :

« سادتى : نكرر هنا ما سبق أن قلناه ، وهو أن البنك لا يريد أن يحتكر القيام بالمشروعات الصناعية أو غيرها ، ويود دائماً أن يظهر بجانبه مصريون يخففون عنه الحمل ، ويضطلعون مثله بالمسئولية ؛ وهو على استعداد لأن يمد لهم يد المساعدة بكل ما يستطيع »

أجل فطلعت حرب بعد هــــذه المنشآت التى عمل على إنشائها جميعاً لا يزال أفق نفســه يتسع للحدب على كل مشروع اقتصادى ينفع بلاده . . . إن فى هـذا لآية من آيات الزعامة الحقة فى ميـدان الوطنية الاقتصادية . . . ويشـاء الله فتحقق لمصر هذه الآية ، وينشط المصريون فى السنوات الست الأخيرة إلى المنشآت الوطنية فى الصناعة والتجارة كليهما ، وتصبح لهذه المنشآت « منتجات طيبة ، يصح ، بل يجب أن تكون فى متناول جميع المصريين وغيرهم ، ففـكر بعض كبار المصريين فى ذلك ، واتفقت كلمتهم على تأسيس شركة بيع المصنوعات المصرية . . . وقد نجحت هذه الشركة بفضله تعالى ، وتوالى إنشاء فروعها بالأقاليم ، ممـا دلّ على أن منتجات مصر قـد حظيت فى السوق بالاقبال الشديد »[1]

(١) خطبة العيد الخامس عشر لبنك مصر

كيف تأسست هـذه الشركة وكيف استمد مشروعها العون من مركز الزعامة الاقتصادية ؟

فى جلسة من جلسات جمعيـة المصرى للمصرى بحث مجلس الادارة — تحت تأثير الجو الذى وصفناه فى الفصل السابق — فكرة مشروع باسم «البيت المصرى»، يحتوى على جميع أصناف وألوان المنتجات المصرية المحلية البحتة، ودرس المجلس لتنفيذ هذا المشروع اقتراحين :

١ — أن يوكل تنفيذ المشروع إلى بنك مصر

٢ — أن تدعو الجمعية جمهور المصريين إلى الاكتتاب بقرش [1] عن كل مصرى لتنفيذ هذا المشروع . . . ورأى المجلس على أى الحالين أن يضع الأمر بيد زعيم مصر الاقتصادى. فوجهت سكرتيرية الجمعية كتاباً خاصا بهذا المعنى إلى طلعت حرب باشا فى ابريل سنة ١٩٣١ . وكان هذا الكتاب مصحوباً بكتاب آخر من الأستاذ محمد عبد الصمد (أمين صندوق الجمعية) باستعداده للمساهمة فى تنفيـذ هذا المشروع بسهوم قيمتها ألف جنيه يضعها من حسابه الخاص تحت تصرف عميد بنك مصر الى حساب هذا المشروع فى حالة تنفيذه.

أحال طلعت باشا كتاب الجمعيـة الى رجاله الاخصائيين لدرس هذا المشروع الوطنى الذى اكتسبت فكرته على مر الأيام رضاء غير القليلين من كبار المصريين المخلصين الذين تسلموا هذه الفكرة على أجنحة إخلاصهم من مباحث بنك مصر . . . فحضهم الزعيم الاقتصادى الأكبر على تنفيـذها، وتولى مهمة تنفيذهـا الرائدان الاقتصاديان السيد عبد الحميد البنان والأستاذ عبد الله أباظه [2].

كذلك أسست فى سنة ١٩٣٢ هذه الشركة، وأطلق عليهـا اسم

---

(١) كان هذا الاقتراح أول المقدمات الفعلية فى نشوء فكرة مشروع القرش

(٢) كان الأول يشتغل فى هـذه الأثناء بحركة الوفـد لتشجيع المصنوعات المصرية ، وكان الثانى يرأس جمعية الاستقلال الاقتصادى التى حلت محل جمعية المصرى للمصرى

« شركة بيع المصنوعات المصرية » ؛ وقد افتتح كثيراً من فروعها كبير الزعماء مصطفى النحاس باشا رئيس الوفد المصرى ؛ وألقى فيها من الكلمات الوطنية ما يذكر بحروف كبيرة فى تاريخ هذه الشركة . وكان فى مقدمة المشتركين فى تأسيسها هذا الوطنى الذى اشترك فى فكرتها : الأستاذ محمد عبد الصمد . وانتخب السيد عبد الحميد البنان عضو مجلس إدارة منتدب لادارتها ، فجاهد فيها ، هو وزملاؤه ومعاونوهم ، حتى اتسع نطاقها ، وفسح مجال أعمالها ، وأصبح لها فى هذه الأعوام الأربعة أحد عشر فرعاً فى سائر أنحاء البلاد

أصبحت « شركة بيع المصنوعات المصرية » فى ذاتها رمزاً للعمل المصرى الذى بذر بذوره « طلعت حرب » ، فأثمرت فى شركات بنك مصر وتعدت فروع ثمارها هذه الدائرة إلى ميادين أخرى يشار فيها لواء الزعامة الاقتصادية التى وقف صاحبها يقول فى خطاب العيد الخامس عشر لمعهد الاستقلال الاقتصادى

« .. ونحن فى هذا المقام لا يسعنا إلا أن ندعو الله عز وجل أن يبارك بالتوفيق والسداد كل عمل مصرى برىء يقصد به تعزيز التجارة المصرية وحماية الصناعة المصرية »

ما بعد هذا الدعاء دعاء لخير الوطن ، وما يصدر هذا الدعاء الوطنى الحار إلا عن قلب زعيم !!

طلعت العالمى

القومى الأمين — طلعت فى الشرق
طلعت فى الحجاز — إلى العالمية

القومى الأمين

« الانسانية جسم كامل البناء ، تتصل فيه جميع الأعضاء بعضها ببعض . لكن إذا كان عضو من هذه الأعضاء مريضاً أو أشلّ ، أتراه يفيد هذا الجسم الانسانى بشىء ؟ وإذا كان العضو فى جسم الانسانية لا يقدر أن يحتفظ بذاتيته صحيحة ، فليس شك فى أن الجسم الانسانى يتمنى لهذا العضو الفناء . فنحن حين ندعو إلى التعصب لمصريتنا ، لسنا فى هذه الدعوة خصوماً للمبدأ الانسانى النبيل ؛ إنما نحن بهذه الدعوة نزكيه ، ونزيده قوة على قوة : نريد يوم تلتقى أعضاء العالم عند القلب الانسانى ، يوم تمحى فروق الوطنية الصغرى من الدنيا جميعاً — أن نكون نحن عند هذا القلب عامل بقاء لا عامل فناء . وإن أمة لا تقدر أن تكفل نفسها بما عندها من مادة الأرض ومادة الفكر ومادة الروح ، لهى أمة لا تستطيع أن تفخر بانسانيتها ، ولا تستطيع الانسانية أن تطرب لها يوماً »(١)

فلا تستغرب ، ونحن نقدم لك طلعت العالمى ، أن نمهد لهذه العالمية من نفسه بنزعات وطنية صادقة عميقة . فنقصّ عليك أنه ذات مساء دخل

---

(١) « مصر للمصريين » لحافظ محمود ، ص ٧٣٥ من المجلة الجديدة عدد ابريل سنة ١٩٣١

دار سينما حديقة الأزبكية فجأة، فرأى هناك بعض موظفيها حاسري رءوسهم؛ فلما استقر فى مجلسه، نادى بواحد منهم وقال له : « يافلان، قل لأخوانك من موظفى السينما أن يلبسوا طرابيشهم وألا يخلعوها فى هذه الدار مطلقاً »

أحس الموظف أن هذا الخطاب موجه إليه مع زملائه، فامتدت يده بطربوشه إلى رأسه، واعتذر عن خلعه بضرورات العمل فى دار مفروض فيها أنها دار للسينما

قال طلعت باشا : وهذا هو السبب عينه الذى يحدو بكم هنا، فى هذه الدار بالذات، أن تتمسكوا بوضع طرابيشكم فوق رءوسكم، فى أثناء تأديتكم أعمالكم ؛ فدور السينما لا يزال أغلبها فى مصر بأيدى الأجانب. وإذا أنتم ظهرتم أمام الجمهور خالعى طرابيشكم، حَسِبَ الناس أنكم لستم من المصريين، وأن المصريين حتى فى « السينما المصرية الصميمة » لم يجدوا لهم مكاناً

ليس شك فى أن الموظف قد اقتنع بهذا الرأى الذى تعززه روح وطنية رفيعة ؛ وليس شك فى أن طرابيش الموظفين — حتى المتفرنجين أو المبرنطين منهم — كانت قد استقرت فوق رءوسهم ؛ لكن زعيم الاستقلال الاقتصادى لم يبرح الدار قبل أن يراهم جميعاً مطربشين !

لو زدنا على هذه القصة شيئاً لما أضفنا كثيراً إلى ما يعلمه الناس جميعاً من أن رجال طلعت حرب هم أكثر المصريين وطنية فى زيهم ؛ وإنك لتجد عمال البواخر منهم مطربشين، حتى فى موانى أوربا. وإن حرباً يتعمد تعمداً أن يتناول البضاعة المصرية فى ملبسه ومأكله ومشربه وأثاث بيته جميعاً. فمن أجدر بقائد فكرة الوطنية الاقتصادية من هذا الصنيع ؟

غير أن هناك حدثاً معيناً أحدثه طلعت حرب ورجاله فى مجرى الحياة الفكرية فى العالم من هذه الناحية. ذلك أن الناس كانوا يعتقدون أن اللغة العربية هى أبعد ما تكون صلاحية لأشغال البنك ؛ وكان فى الناس ناس

يتعصبون لهذا القول تعصباً ساخراً كادت سخريتـه أن تؤثر فى بعض العقول . فأبى طلعت إلا أن يسخر من الساخرين ؛ وأمر القائد الحازم أن تسقط التعابير والألفـاظ الأجنبية من لغة المعـاملات والمحاسبات فى بنـك مصر ؛ وجاءت اللغة العربية مستجيبة طيّعة لنداء القائد المصلح الاقتصادى ؛ وتداول الناس لأول مرة فى تاريخ العـالم أوراقاً بنكية بلغتهم القومية الجميـلة . وجاء طلعت حرب بعد هذا النصر يقول لأبناء العربية فى حفلة تـكريمه بدار المجمع العلمى العربى بدمشق فى ٧ من يوليه سنة ١٩٢٥ :

« . . . . . وقررنا أن تـكون المراسلات فيه (فى بنك مصر) بينه وبين عملائه باللغة العربية ؛ وأن تـكون حساباته باللغة العربية — فهزأ منا الهازئون ، وقالوا : « إن المحـاسبة من واردات الغرب ، وإنهـا فن من فنونه غير قابل للانتقال إلى الشرق بغير لغـة من لغات الغرب » . ولـكنّا أهملنا استهزاءهم ، وأجرينا مراسلاتنا ، وكتبنا تقاريرنا ، باللغة العربية »

ثم هاهوذا الفائز المنتصر يعود فى ٢٨ مارس سـنة ١٩٣٠ ، فيردد بلهجة الاقناع والاقتناع فى حفـلة افتتاح « بنك مصر — سوريا — لبنان » هذه الدعوة قائلا : « ولعل التجارب التى كسبها (بنك مصر) فى مصر خلال عشرة أعوام من حياته تـكون كافيـة لانارة الطريق أمام « بنك مصر — سوريا — لبنان » ، وأن تصلح الأنظمة الموضوعة له هنا كما صلحت فى مصر ، وأن تجرى معاملاته باللغة العربية بسهولة مثل السهولة التى جرت فى مصر . فان لغة البلادين واحدة ، والثقافة متقاربة ؛ والنجاح فى جهة كفيل بالنجاح بمشيئة الله تعالى فى الجهة الشقيقة الأخرى »

أحدث طلعت حرب هذا الحدث فى المحيط المصرى ، حدث استبدال اللغة العربية بلغة البنوك الفرنسية منذ سـتة عشر عاماً ؛ حين كانت الرطانة الفرنسية غاية من غايات الوجاهة ؛ والمعاملات باللغات الأجنبيـة سبباً من أسباب اكتساب الأجانب . لـكنه كان ثابت اليقين بأن أولئك الأجانب

فى مصر إنما يضمرون لوناً من ألوان الاحتقار لأولئك الوطنيين العجزة عن أن يثبتوا قوميتهم بشتى الوسائل فى حياة بلادهم العملية . وكان يقول بينه وبين نفسه ، ثم أصبح يقول لمواطنيه المصريين :

« من يعطف عليك إنما هو الذى يشعر بشعورك ، ويحس إحساسك ؛ وهو الذى يجرى فى عروقه الدم المصرى الذى يجرى فى عروقك . ولن يجد فقراء المصريين العطف الصحيح إلا من إخوانهم المصريين »[1]

القومية فى نظر طلعت حرب — كما هى فى نظر الانسانيين العظماء — ليست إلا اختصاصاً فى العاطفة . فسكان هذا البيت هم أكثر الناس عطفاً على سكان هذا البيت ؛ وجمهور هذه الأمة أكثر الناس عطفاً على جمهور هذه الأمة . وكذلك تترتب على هذا العطف المصالح القومية المشتركة ...
وإنه ليبدو لك فى مواقف طلعت حرب أنه يريد أن يستحيل بالفردية فى مصر إلى القومية ، ومن القومية فى مصر إلى الوحدة الشرقية ، ومن الوحدة الشرقية فى الشرق الأدنى الى شركة إنسانية واحدة

فها هوذا قد جاهد وجاهد ؛ فلما حقق الله غاية جهده ، أشرك غيره معه فى هذا الجهد . وها هوذا حين طبق الجو رنين نجاح طلعت وجماعة طلعت فى مشروعاته ومشروعاتها ، يقول فى خطبة العيد البرنزى لبنك مصر :

« .... فالأمة هى التى دفعت الكثيرين من أبنائها إلى الاكتتاب فى رأس مال البنك ليقيموا به أوده ....

« والأمة هى التى أوحت إلى الكثيرين من أبنائها أن يعتنقوا الفكرة الاقتصادية التى يمثلها بنك مصر ، وأن يجعلوه دائماً هيكلهم المقدس الأمين

« والأمة هى التى ساقت الكثيرين من أبنائها زمراً يبغون فيه لأنفسهم مستقبلا رغداً ، ولوطنهم صرحاً يحفظ المرافق الاقتصادية من خطر العوادى

---

(١) حديثه عن الصناعة والصناع بجريدة روز اليوسف فى ٢٢ من مارس سنة ١٩٣٥

« والأمة هى التى أهدت البنك والقائمين به هدية لا تقدر بثمن ، وهى الثقة — الثقة التى علمتنا الصبر والثبات ، وإنكار الذات ، وحققت لحسن الحظ حلماً ذهبياً كان عصىّ المنال »

أرأيت ؟ أثبت بمجده المجد لأمته ! . . . . ولسوف ترى أنه يتجه بهذا المجد العملى نحو الشرق كله ؛ ولعلك واجد أيضاً أنه متوجه به صوب الوحدة العالمية ذاتها

طلعت فى الشرق

أصبحت الأقطار الشرقية فى نظر طلعت حرب كأنها الأقاليم المصرية، يتنقل بينها فى أهلية وسرعة كما يتنقل المصرى بين ربوع مصر. ففى ديسمبر سنة ١٩٣٥ زار السودان؛ وفى يناير سنة ١٩٣٦ توجه إلى الحجاز؛ وفى مارس لبى دعوة العراق؛ وفى أبريل طاف بالمعرض العربى بدمشق!

كانت زيارته للسودان الزيارة الأولى من نوعها.... كان السودان مغلقاً دون رجال الأعمال من المصريين. فلما تبدلت السياسة بين الحكومتين الشريكتين فى السودان: مصر وبريطانيا؛ ولما تنبهت الأذهان إلى حاجة الشطر الآخر من وادى النيل إلى الذهنية العملية الوطنية التى تشرع السياسة الاقتصادية للبلاد، هتفت الخواطر باسم طلعت حرب؛ ولم يجد الحاكم العام للسودان بُدًّا من أن يترجم عما هتف بخاطر الجميع، فدعا طلعت باشا لزيارة بلدنا الثانى

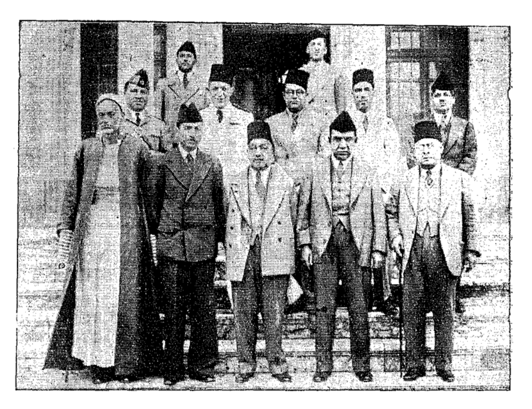
لبى طلعت الدعوة، وكان أفق السياسة لم يتجل للمواطنين بعد؛ فبرهن الرجل على كياسة ودهاء حين اجتمع حوله القوم فخطبهم فى ١٥ ديسمبر سنة ١٩٣٥ بمدينة الخرطوم قائلا:

«وبعد فنحن — الآن — أيها السادة — ندرس ما جمعناه فى رحلتنا السودانية من المعلومات والمشاهدات والملاحظات؛ ولسنا ندعى أننا أحطنا بكل شىء علماً، فان رحلتنا كانت قصيرة؛ وكانت، فقط، للزيارة والتعرف إلى البلاد وأهليها، وإلقاء نظرة عامة ستتلوها نظرات — إن شاء الله تعالى — ودراسات وبحوث نرجو أن يصادفها التوفيق لتكون أبعد غوراً وأعمق أثراً وأوسع مجالا»

نظرة واحدة إلى قوله : « نظرة عامة ستتلوها نظرات ودراسات، وبحوث ترجو أن يصادفها التوفيق » ، تعطيك فكرة واضحة جلية عما يضمر طلعت حرب من خير للسودان — خير يريده مريده أن يكون قائماً على أساس من الاستقلال لكيلا يفيد ولا يستفيد منه غير أبناء البلاد الذين هم أشد ما يكونون تلهفاً على استقلالهم الاقتصادى

٭٭٭

ما كاد طلعت يفرغ من رحلة السودان والرحلة التى تلتها إلى الحجاز حتى كانت الحكومة العراقية قد بعثت إليه بدعوتها لزيارة العراق . فلم يعتذر عن الزيارة بما لقيه من عناء السفر فى رحلتيه السابقتين ؛ بل إنه كان قد شعر بأن واجباً قومياً شرقياً يناديه — فسلك طريقه مباشرة إلى بغداد . وقامت



تحت سماء العراق

الصف الأول من اليمين — عيسوى باشا زايد والمتصرف عمر نظمي بك ومحمد طلعت حرب باشا وخير الدين العمرى بك واسماعيل بركات بك

الصف الثانى من اليمين — ابراهيم حلمى العمر بك وامين افندى احمد والأستاذ عبده الزيات والطيار صدقى ومدير الشرطة عبد الله عوني بك

المدينة كلها تستقبل رجل الشرق طلعت حرب

لقد خفقت لزيارته الأعلام والقلوب فى مدينة العباسيين ؛ واستقبلته الحكومة والأمة استقبال زعيم حبيب محبوب ، حتى إنه لفرط ما انهال عليه من دعوات التكريم كان يشكو ضيق الوقت عن أن يدرس البلاد وشئونها الاقتصادية كما يريد

اعتذر رجل الشرق عن العدد الكبير من الولائم والحفلات التى أعدت لتكريمه ؛ وكأنه تعمد أن يلبى دعوة الشباب البغدادى فى ١٤ أبريل سنة ١٩٣٦ ، حتى إذا ما التأمت حوله جموع الشباب العربى ، وظن الظانون أن الزعيم الاقتصادى الكبير سوف يلقى على أسماعهم خطاباً فياضاً فى الاقتصاد — إذا به يخطبهم فى العروبة والروابط الشرقية العملية ، وفى عدة الشباب العربى الشرقى للمستقبل . ولعل من أحكم ما جاء فى هذا الخطاب قوله :

« خير لنا — نحن أبناء العروبة — ألا نقطع صلتنا بالماضى ، ولا أن نستبيح دائما الانتفاع بتركة الماضى وحدها ، نتمتع بما فيها من نفائس وذخائر من غير أن نضيف إلى قائمتها من عملنا شيئاً جديداً »

أليس هذا هو القول الفصل بين الجامدين منا المتمسكين بعروة الماضى لا يريدون عن طريقه حولا ، وبين الثائرين فينا الذين يودون أن يضربوا بيننا وبين مجد ماضينا سدًّا منيعا ؟ . . . إن لهذا القول من طلعت حرب معنى أقوى مما لو كان قائله غير طلعت حرب . فقد جرّب طلعت كيف يحتفظ بذخائر الماضى ؛ وجرب كيف يضيف إليها من عمله ذخراً جديداً ، فأنتج الانتاج الذى كان بنك مصر جزءاً منه

فلما أسفرت خبرته واختباراته عن هذا النجاح فى وطنه ، تطلعت نفس طلعت إلى الأوطان الشقيقة ، فراح يقول لأهلها « لهذا فاننا لا نخطىء حين ندعو الأمم الشرقية إلى احتذاء أثر هذا البنك فى روحه وأسلوبه لانشاء بنوك قومية فى مختلف البلاد الشرقية »

« وبنك مصر لا يألو جهداً فى تقـديم أية معونة إلى أى بلد شرقى يود أن يحذو حذوه »

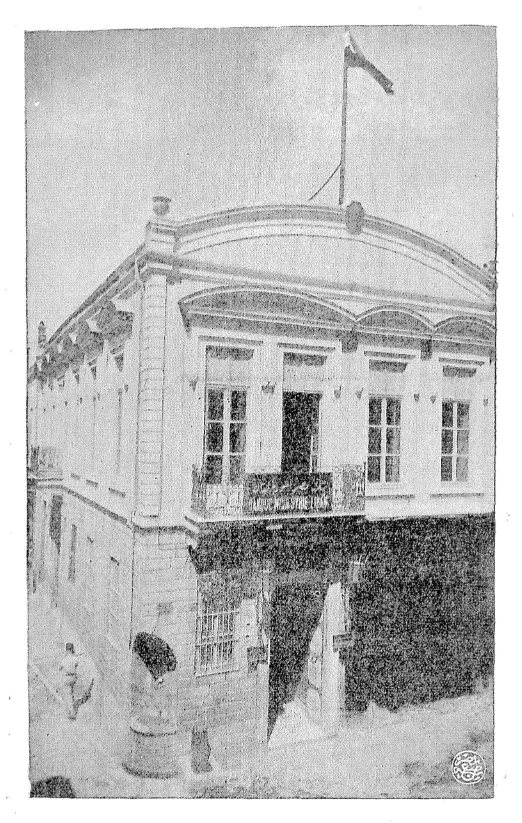
« وإذا كان بنك مصر يفكر فى أى يوم من الأيام فى أن يكون له فرع فى أى بلد شرقى ، فهو إنما يفكر فى ذلك رجاء أن يكون قيـامه بالعمل فى كل بلد شرقى مدعاة ليراه الشرقيون ، فيؤسسوا مصرفاً مثله : إما بمفردهم ، وإما باشتراكهم مع بنك مصر »

« واليوم السعيد هو اليوم الذى يرى فيه بنك مصر أن له بنوكا تشبهه فى جميع بلاد الشرق ، وتتبادل معه المنافع بعين الروح التى يعمل بها لمصلحة مساهميه وللصالح العام » (١)

كان طلعت حين ألقى هذا الخطاب يجوس خلال ربوع سوريا ولبنان بناء على دعوة من أهلها ودعوة من أهل بلادنا على السواء لانشاء مؤسسة اقتصادية ماليـة فى القطر الشقيق . وكانت الجموع تفـد تترى إلى حضرته ، فيخطبهم مبشراً بالوحـدة العملية الصادقة بين البـلاد ذات الاخاء والمـاضى القومى الواحد . . . ولم يكن هذا الذى يتحدث به كلاماً يقال . بل كان عملا يعمل . ففى ٤ يونيو سنة ١٩٢٩ ، بعد هذه الدعوة الحارة التى استجابت لهـا قلوب إخواننا السوريين وعزائمهم ، أنشئت المؤسسة الاقتصادية المنشودة ؛ وحسب الناس أنها ستسمى « فرع بنك مصر » . . . إلا أن حرباً لم يكن يعنى إلا مايقول فى خطابه السـابق ، فسميت هـذه المؤسسة الجديدة « بنك مصر ـ سوريا ـ لبنان »

ترى أنت أن هذا الوضع لانشاء المؤسسة المصرية السورية ، واعتبارها بنكا مستقلا ـ رغبـة صادقة فى تحقيق الاستقلال الاقتصادى لأبناء الوطن الشقيق من جانب ، ورغبة مصحوبة بارادة نفاذة فى تحقيق الوحدة الشرقية بيننا وبين جيرتنا من جانب آخر . وإنك لترى هاتين الرغبتين طبيعيتين بعد

(١) خطبته ببيروت فى ١٦ من يونيه سنة ١٩٣٦



بنك مصر — سوريا — لبنان

أن تقرأ لطلعت من خطبة أخرى فى رحلته الأولى ببيروت سنة ١٩٢٥ قوله إلى بنى الشام :

« نحن المصريين بالذات ، نعلن أنه كما تهمكم شئوننا تهمنا شئونكم ، وأنه يهمنا ويهمكم على السواء أن تكون الثقافة العربية التى تربطنا بكم أقصى ما تكون من الرقى ؛ وأنه يهمنا ويهمكم على السواء أن يكون الاستقلال الاقتصادى أمراً واقعاً فى بلادنا ، كما يكون الرخاء ميسوراً قائماً على قواعد ثابتة فى بلادكم وإنه يهمنا ويهمكم على السواء أن تكون حركة المبادلة التجارية بيننا وبينكم على أشد ماتكون »

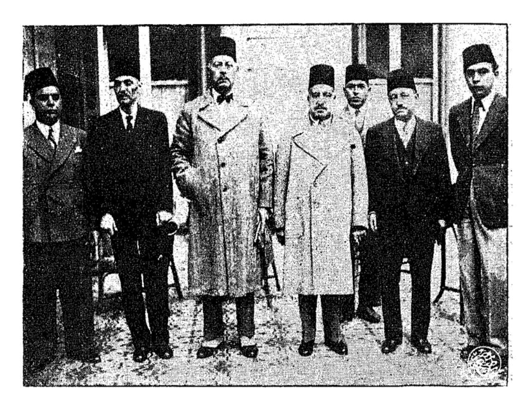
أجل لقد ظل المتحدثون من رجال الأمة العربية يتحدثون ؛ وظل المصرحون من رجال الحكومات الشرقية يصرحون ؛ والجماهير فى أوطاننا الشرقية يرددون أحاديث هؤلاء أحياناً ، ويتمدحون بتصريحات أولئك أحياناً ، ويتبرمون بالعوائق فى سبيل تبادل المصالح والمنافع أحياناً - حتى انطلق طلعت حرب فى هذا الميدان ، فاستحال بالكلام على عادته إلى قوة إرادية فعالة ذات آثار إنسانية ملموسة

لا تقف عناية طلعت بالبلاد الشقيقة عند حد المنافع المتبادلة أو المجد القومى المشترك ، بل إنه قد سما فى شرقيته فوق هذه الطاقة إلى درجة العناية بشئون البلاد المحلية ذاتها التى قد لا تهم إلا أهلها أنفسهم . فهاهوذا يقول فى لهجة المبشر بمصالح سوريا :

« لقد أخبرنى صديقى المفضال الاستاذ محمد كرد على بك وزير المعارف ورئيس المجمع العلمى العربى عن أراض واقعة فى شمالى سورية ؛ ووصف لى من خصبها ووفرة مياهها مايستحق العناية من أهل هذه البلاد حتى يدرسوا المنطقة المشار إليها دراسة وافية ، ويرتبوا أعمال الرى فيها ، ويستدروا من خيراتها مايزيد فى الانتاج الزراعى زيادة قد يترتب عليها شىء كثير من الرخاء العام »[1]

(١) خطبته بدمشق في ٨ يونيه سنة ١٩٢٨

يكاد هذا النصح لا يصدر إلا عن رجل سورى مواطن . . . لكن لا تدهش كثيراً فقد راح المخلص الاقتصادى المصرى ينشر رسالة الخلاص فى ربوع ديار كانت وستكون فى التاريخ ظهيرة لمصر



مع البعثة الاقتصادية التونسية

الأستاذ احمد سالم مدير شركة مصر للتمثيل والسينما . السيد محمد شفيق وكيل المجلس الكبير ورئيس البعثة . « محمد طلعت حرب باشا » . صادق حنين باشا . أمير اللواء السيد حسن حسنى عبد الوهاب . الأستاذ محمد بدر مدير الغرفة التجارية التونسية

طلعت فى الحجاز

فى منتصف الساعة الثامنة من مساء ١١ فبراير سنة ١٩٣٦ اهتزت أمواج الأثير بصوت طلعت حرب باشا بعد أن آب إلى مصر من رحلته إلى الحجاز التى أشرنا إليها فى الفصل السابق ؛ فسمعنا وسمع الناس طلعت يذيع عن الوطن الاسلامى المقدس « الحجاز » خطاباً فياضاً بالأفكار الاصلاحية الجديدة ، والمعانى القومية الرائعة . . وقد استرعى سمعنا قوله :

« أغرانا هذا الاهتمام بالأمور الصحية فى بلاد الحجاز أن نساهم مع الخيرين فيما يتقربون به إلى رب البيت الكريم ، فقمنا باشتراكنا مع بعض أهل الخير بتكملة مستشفى جدة ومكة ، وباهداء جهاز أشعة كامل للأخير ، والآلات الجراحية اللازمة لها . كما أننا ساعدنا على تأسيس فرع للاسعاف الكامل فى مكة المكرمة »

فاهتمامه إذن لم يكن بالحجاز وأرض الحجاز اهتمام الرجل الاقتصادى الذى همه الاستغلال ، بل إنه اهتمام شرقى عظيم ببقعة من بقاع الشرق ذات التاريخ العظيم . . . اهتمام إنسانى خالص بركن من أركان الانسانية

لطالما سمع الناس بعطف طلعت حرب على الذين يعوزهم العطف الجميل ؛ ولطالما تبين للناس إكرام طلعت حرب للشرقيين بصفة خاصة . لكننا أفردنا لمواقفه من الحجاز هذا الفصل كله ، لأنه هو بالذات قد أفرد للحجاز فصلا كبيراً من فصول بره وعنايته بالبلاد الشقيقة . ذلك لأن فى الحجاز أرض التواعد والتلاقى بين طوائف الدنيا بأسرها ، من مصريين وشرقيين وغربيين على السواء . فلم يكن مستغرباً من « طلعت العالمى » أن يعنى بالحجاز هذه العناية كلها ، وأن يكون حافزه الأول فى تأسيس شركة الملاحة البحرية أن

يوجد للحجيج من سائر بلاد الدنيا مركباً بحرياً ذا طابع شرقى يحملهم إلى حيث يلتقون اللقاء السعيد ببيت الله الحرام ، وهو الذى يقول :

« وحسبنا أن نذكر أن وجود « شركة مصر للملاحة البحرية » وتعهدها بنقل الحجاج قد ساعد كثيراً على تأدية هذه الفريضة الشرعية ، واستطاع الآن كل إنسان إلى الحج سبيلا ؛ كما ساعد كثيراً على ترقية مجموع الحجاج بسبب توفير أسباب الراحة والرفاهية ، حتى خرج للحج من كان يقعده عنه ما يعرفه أو يسمعه عن المتاعب والمشقات ؛ كما عادت المجهودات التى قام بها رجال البنك فى رحلات متعددة إلى البقاع المطهرة بأحسن الفوائد وأبدع الآثار على بلادنا وبلاد الحجاز »[1]

لرحلة طلعت الى الحجاز ثلاثة مآثر تحمل فى معانيها صفة البقاء : أثر فى الحجاز ، وأثر فى مصر ، وأثر فى الحجيج من سائر أنحاء العالم.

أما فى الحجاز ، فقد ذهب إليه لزيارة بيت الله الحرام ؛ فاذا به يدرس وسائل الاصلاح فى البقاع الاسلامية المقدسة فيشرع فى إصلاحها قائلا :

« ولقد أدينا شعائر الله بين الصفا والمروة ؛ ووجدنا طريق هذا المسعى فى حاجة إلى العناية به حتى يتم له جلاله الدينى وما ينبغى له من الاحترام . وكنا قد ندبنا لدراسة موضوعه بعض الاخصائيين المصريين ، فاقترحوا رفع أرضية هذا الطريق وإعادة تبليطه بطريقة أصولية ، وقاية له وللحرم الشريف من أضرار السيول »[2].

تقول إن هذه مسألة تهم الحجيج بقدر ما تهم الحجازيين أنفسهم ؟ . . إذن فتعال أنصت إليه وهو يذيع فى الخطاب مشروعاً ملهماً من أدق المشروعات وأربحها للحجاز والحجازيين ، حيث يقول :

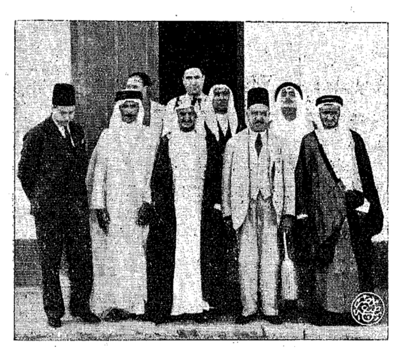
« فقد تمنى الكثيرون أن يعنى بأمر هذه البئر (بئر زمزم) العناية

(١) خطبته فى العيد الخامس عشر لبنك مصر

(٢) خطابه المذاع بالراديو في ١١ من فبراير سنة ١٩٣٦

الواجبة ، وأن يخرج لها مشروع أو تؤسس لها شركة حجازية تستغل هذه البئر بتعبئة مياهها المباركة فى زجاجات معقمة وبيعها فى كل أقطار الدنيا تبركا وتيسيراً لرزق أهل البلاد أنفسهم . ونعتقد أنه مشروع نافع سيصيب من النجاح الحظ الأوفى إن وكل أمره لبكترلوجى مسلم موثوق بعلمه وخبرته فى عالم الطب »

أسلوب رقيق أبى صاحبه إلا أن يسمى اقتراحه أمنية من أمانى غيره ، تواضعاً واستحياء من نسبة الفضل إلى نفسه . وفكرة عمرانية بعيدة الغور ، أخلص قائلها فى إرشاده ، فأشار بأن تكون الشركة التى تنفذها شركة « حجازية » يعمّ نفعها أبناء الحجاز أنفسهم . . وفى هذا الأسلوب وفى هذه الفكرة من الوفاء الكلى لأنحاء الشرق لون لا يمحوه الزمان



فى ضيافة طلعت حرب

طلعت حرب بين زعماء العرب وقد ظهر إلى يساره حضرة الشيخ عبد الله السليمان الحمداني وزير مالية الحجاز وإلى يمينه معتمد الحكومة السعودية بمصر

أما فى مصر ، فقد سجل لاسمها المجد والفخار بما قدم لاخواننا فى الحجاز من العون بالرأى والجهد والمال ، وما مهد لهم من سبل الحج وأزاله

من صعوبات السبيل إليه ، وما أعده لهم من فنادق ومصحات بين السويس وجدة ومكة والمدينة ـ حتى أصبح المصريون يؤدون فريضة الحج وكأنهم فى رحلة محلية بين الأقاليم المصرية !

أما ماصنع لحجاج العالم كله ، فحسبنا أن العملة الحجازية التى كانت تضطرب ارتفاعاً وانخفاضاً فى موسم الحج بتأثير الصيارف والمصارف الأجنبية بجدة ـ حسبنا أن هذه العملة التى كان أمرها يضيق به الحجاج ذرعاً ظلت على حالها من الاضطراب ، وظل الحجاج فى أمرها من الضيق حتى جاءها المخلص الاقتصادى العالمى .... وبفكرة إصلاحية صائبة ، وإرادة طلعتية حازمة ، اقنع طلعت حرب حكومتى مصر والحجاز أن تكلا إلى بنك مصر تحصيل تكاليف الحج من الحجيج . وأن يحاسب عنهم فى الحجاز جملة واحدة على أساس قاعدة الذهب ـ فلا تستطيع سوق الورق والفضة أن تؤثر فى حسابهم

لم تقف جهود طلعت عند هذا الحد فى خدمة حجاج العالم إزاء سوابق الاضطرابات النقدية فى الحجاز ، بل إنه استطاع بخبرته ونفوذه أن يتفق مع حكومة الملك ابن سعود على : « العمل لتثبيت سعر الريال السعودى ـ وهو العملة المحلية فى أرض الحجاز ـ بالنسبة لسعر الجنيه الذهب ، وذلك بسك كمية عظيمة من الريالات السعودية يتيسر معها للحكومة هناك أن تحدد سعراً ثابتاً للريال ، تقبض به رسومها ، وتصرف به نفقاتها ، وتغذى به السوق عند الحاجة ، وتسحب منها حفظاً لتوازنها ، وحفظاً كذلك للسعر المحدد » (١)

مأثرة من مآثر طلعت العالمية الكبيرة التى ستبقى بقاء الزمن .....

وكذلك كان العظيم فى زيارته ، عظيم الأثر عند الناس ، عظيم المثوبة عند الله تعالى

---

(١) خطاب طلعت باشا حرب المذاع بالراديو فى ١١ فبراير سنة ١٩٣٦

الى العالمية

من العبارات النادرة التي رددها طلعت فى خطاب العيد الخامس عشر لبنك مصر ، نقلا عن خطاب افتتاح البنك فى ٧ مايو سنة ١٩٢٠ ، قوله عن بنك مصر : « إنه يعمل كل مايعمله بنك تجارى مثله ، لافرق فيمن يعامله بين أن يكون مصرياً أو غير مصرى . فالمصرية لم تشترط إلا فى رأس المال للأسباب التي أوضحناها ؛ أما فيما عدا ذلك ، فأبوابه مفتوحة لكل عميل ».

إن فى تكرار هذه العبارة بعد خمس عشرة سنة على قولها ضرورة لابدّ منها ؛ فهذا الرجل الذى أجلى ببنك مصر ومنشآته وجهود رجاله وأنصاره. كثيراً من الأجانب عن ميدان مصر الاقتصادى ، هذا الرجل الذى جاء فى الخمس عشرة السنة من ألوان الكفاح لتحقيق القومية المصرية فى عالم الاقتصاد المصرى — الذى كان مزدحماً بغير المصريين — بما لم يجيء به مصرى ولا شرقى من قبل . هذا الرجل وفى لأمته وفاءاً قد يُنسي الناس عالميته — هذا الرجل كان لابد له أن يصحح فى أكبر حفل اجتماعى عرفته مصر ما قد يكون مرتسما عن نزعاته فى الأذهان

لقد أثبتنا فى الفصل الأول من هذا القسم من أقسام كتابنا قومية طلعت حرب، وعصبيته القومية : لكنك تستطيع ، وأنت تقرأ طلعت حرب القومى الأمين ، أن تلمح فى يسر وسهولة مدى إنسانيته ونزعاته العالمية فى تعزيز مصر بصفتها عضواً من أعضاء الجسم الانسانى أولا ، وفى بسط أياديه الذهبية فى حياة الاصلاح على ربوع البلاد الشرقية الشقيقة ثانياً ، وفيما يقدمه من الخير لمصلحة الحجيج العالميين ثالثاً . . . وهذه الحلقات الثلاث إنما تتطور فى الواقع بتاريخ طلعت حرب من رجل محلى إلى رجل عالمى

ليس تطور طلعت حرب من رجل محلى إلى رجل عالمى بالتطور الفكرى الذى يجرى فيه بعض المفكرين فى مستوى الخيال، بل إنه تطور عملى يخضع للحقائق الواقعة. فحين كانت مصر بحاجة إلى وحدة مصرية، تعصب لها؛ وحين تعلقت بمصر شقيقاتها الشرقيات الحبيبات، أخذ يربط بيننا وبين أبناء البلاد الشقيقة برباط المنافع المتبادلة؛ وحين أضحى لمصر مركزها الموطد بين بلاد العالم فى الحياة العملية، استطاع أن يؤكد بجهوده حاجة الدنيا إلى مصر كحاجة مصر إلى غيرها أو يزيد... وهو فى كل خطوة من هذه الخطى فى تاريخه إنما يكشف للناس عن أفق جديد من استعداده العالمى العريض

هذه البواخر التى ربطت فى البحر الأحمر بين مصر والشرق، ثم ربطت فى البحر الأبيض بين مصر وأوربا؛ هذه الطائرات التى تنقل الناس والبريد من بلاد الغرب إلى بلاد الشرق؛ هذه المنسوجات التى تنسج بعدد وأدوات يستفيد الغرب من ثمنها، وبأيد مصرية يستفيد المصريون من أجورهم، ولشعوب متعددة الأجناس من شعوب الشرق التى تبادل مصر بضاعتها؛ هذه الأفلام التى تصور ماضينا المشترك مع الشرق والغرب، والتى تعطى للعالم قبساً من روحنا فى التكوين الروحى للوحدة العالمية؛ هذه الشركات التى تصدر الأقطان لمن هم بحاجة إلى أقطاننا من الشرقيين والغربيين، وتنقل السياح من أقصى بقاع الأرض ليرتادوا بلادنا ونرتاد بلادهم؛ هذه المنشآت كلها التى لطلعت حرب فى كل منها أصبع تشير إلى جهوده ـ أليست كلها جهوداً تحقق عالمية طلعت، وتؤكد فى التاريخ أن هذا المصرى الجليل قد استطاع أن يغدو بكامل مصريته عالمياً جليلا

على أن الصفة العالمية فى حياة طلعت ليست وليدة اليوم، إنما هى ميزة من ميزاته الكبرى التى أهلته للمركز الحيوى الكبير الذى يشغله. وإنما هو فقط قد استطاع بسعة أفقه النفسى أن يفرق بين الواجب والواجب، وأن

يعطى لكل نزعة من نزعات البقاء حقها. وهذا هو السر فى نجاحه وسلامة اسمه المحبوب من الجميع

دليلنا على أن الصفه العالمية من حياة طلعت حرب تتمشى معه منذ بداية تاريخه الاجتماعى. أنه، كما رأيت فى الفصول الأولى من هذا الكتاب، يترجم رسالة عن الاسلام من الفرنسية إلى العربية؛ ثم ينقل دفاعاً عن المسلمين من العربية إلى الفرنسية؛ ثم تختاره شركتا «كوم أمبو» و«الشركة العقارية» اللتان كانتا مصطبغتين بالصبغة العالمية، للاشتراك فى عضويتهما، وللاشراف على بعض إدارتهما

ربما كانوا غير كثيرين هم الذين يعرفون أن لطلعت باشا سابق عضوية فى مجالس إدارات بعض الشركات الأوربية فعلا. على أنه جلىّ وبين أن هذه الصلة القديمة بين طلعت حرب وبين الدوائر الاقتصادية الأوربية هى التى مكنت للمصريين أن يؤسسوا شركة للسياحة، وشركة للطيران، وشركة للتأمين على الحياة - بالاشتراك مع شركات وشخصيات أوربية عالمية

لكن الدنيا جميعاً ترى أن طلعت حرب هو عضو مجلس الادارة المنتدب فى «بنك مصر - فرنسا» الذى أسس بباريس فى ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٢٦، وكان تأسيسه فاتحة يسر فى المعاملات المالية بين الشرقيين والغربيين عامة

كذلك تجد زعيمنا الاقتصادى هو المستشار الأول فى «الاتحاد المصرى للصناعات» وليس شك فى أن هذا الاتحاد تتوفر فيه الصفة العالمية لتشكيله من رجال ماليين مختلفة أجناسهم، متحدة مشاربهم.. وهذا المنصب وحده بين أولئك الرجال يبين لك أى رجل عالمى هو طلعت حرب، وأية شهادة يشهدها له رجال العمل من مختلف أنحاء العالم

أتريد أن تعرف رأى أمثال أولئك الرجال فى رجلنا الكبير؟

حين احتفل بنك مصر بعيده الأكبر فى ٧ مايو سنة ١٩٣٥، تقدم زعيم الاقتصاديين الأجانب فى مصر، «السير ادوارد كوك» محافظ البنك

الأهلى من منصة الخطابة ، وقال فى سياق خطبته الرنانة التى عبر بها عن رأى الاقتصاديين الأجانب

"We sometimes think of men as belonging to one of the two categories: dreamers, seers and prophets on the one hand, and on the other hand practical men of action. It is only rarely that we get the combination of the two. We have one such here in the person of TALAAT HARB PASHA".

« فى بعض الأحيان ينقسم الرجال إلى فريقين : أحدهما من أصحاب الأحلام والملهمين والأنبياء ، والثانى من الرجال العمليين . ويندر جداً أن تتألف مجموعة من هذين الصنفين معاً ، لكن لدينا مثل هذه المجموعة هنا فى شخص طلعت حرب باشا ..... »

..... وهذا هو طلعت العالمى !!

طلعت العظيم

العناصر النفسية — صاحب السعادة — نهضة الفن —
سياسى — داعية — شخصية المدير — الخطيب

العناصر النفسية

س : ما السر الذى يمكن أن يفسر نجاحكم؟

ج : هذا سؤال تصعب الاجابة عليه لرجل من رجال الأعمال ، منصرفة جميع قواه إلى إنجاح الأعمال التى يقوم بها ، فهو يعمل ليصل إلى النجاح دون أن يفكر فى سر النجاح؟

سؤال وجهه محرر « الضياء » منذ عدة سنوات إلى طلعت حرب باشا ، فأجاب عليه هذا الجواب المرتجل الذى جاء عفو الخاطر ، لكنه يدل دلالة علمية على اللون النفسى للمجاوب العظيم

فما النجاح وما العظمة التى تترتب على هذا النجاح فى حياة الأفراد الممتازين إلا أثر تتركه نفسياتهم فى الوجود فيغدون ناجحين أو يغدون عظماء

« النفسية » هى الشىء الأول والأخير فى الأشياء الرئيسية التى تكون عظماء الرجال ، ذلك لأن « العظمة » هى أقرب الصفات النادرة فى الانسانية إلى الصفات السماوية فى الوجود ، والنفس هى أدنى قوى الانسان الثلاث إلى السماء . . . إلى الله . . . والنبى الأعظم محمد عليه الصلاة والسلام يقول عن لسان الله تعالى : « عبدى أطعنى ، أجعلك ربانياً »



طلعت حرب باشا — وإلى يساره احمد عبد الوهاب باشا والسيد عبد الحميد البنان ، وإلى يمينه الآنسة ام كلثوم وبهي الدين بك بركات — فى حفلة افتتاح ستوديو مصر فى جمع من العظماء

فعظماء الرجال هم أولئك الربانيون الطائعون الذين وهبهم الوهاب جزءاً من ذرة من ربانيته ، تجلو به أرواحهم ، وتصفو له عقولهم ، وتقوى به إرادتهم — وبالتالى تستقر به شرارة من العظمة فى أعماق نفوسهم ، توجههم التوجيه الصحيح إلى العظيم من الأمور . . . . ويصبحون العظماء من الرجال

لا عظيم إلا عظيم النفسية ، وطلعت حرب الرجل التقى الذى بينا فى الفصول السابقة من هذا الكتاب مدارج حياته ، وسنبين فى الفصول التالية كرائم ميزاته أيضاً — هذا الرجل ليس فيه أعظم من نفسيته

رأيت فى الحلقة الأولى من هذا الكتاب كيف نشأ طلعت مؤمناً ، وكيف شب على التماس النفع لمواطنيه ، وإقصاء الشر عن صفوفهم ؛ ورأيت فى الحلقة الثانية كيف أضحى مجاهداً بالقلب والقلم والعمل فى سبيل الاحتفاظ بحقوقهم ؛ ورأيت فى الحلقة الثالثة كيف يسير بخطى فسيحة متزنة ، مضحياً بالوقت والمال وسنى النشاط وسنى الراحة فى سبيل ابتناء صرح استقلالهم الاقتصادى ؛ ثم رأيته فى الحلقة الرابعة من هذا الكتاب يشد أطراف قوميته بمنشآته وتنقلاته ومآثره كى يصلها بأركان الشرق جميعاً ، وفى نفسه ودّ قائم أن يصلها بأنحاء العالم أيضاً .

فلو أن حاجباً حجب جميع الأعمال المادية التى عملها طلعت ، أو التى كان لصنع يديه أثر فيها ، أو التى كان لتفكيره فضل فيها — ولم تبق للباحث المحقق من تاريخه إلا هذه النفسية وحدها ، لما تردد فى تسجيل اسمه بين أسماء الطليعة من العظماء

يعمد بعض الكتاب فى كتابة السير إلى اختيار كل بعيد فى الرجال من أولئك الذين باعد الزمان بيننا وبينهم ، أو باعد المكان بيننا وبينهم ؛ ويعمد مثل أولئك الكتاب إلى تصوير مشاهير الرجال الذين يكتبون عنهم صوراً من العظمة تتصل بأشكالهم وسماتهم وحركاتهم وسكناتهم ونظام معيشتهم ؛ ويعمدون إلى تقسيم أولئك الرجال المشاهير الأفذاذ إلى أبطال وعباقرة ،

وعظماء ... فالبطل هو المقدام الجسور الذى يجىء بما لا يستطيع غيره أن يجىء به من إقدام وتضحيات ؛ والعبقرى هو الذى يجىء بما لم يستطع غيره أن يجىء به من أفكار وأعمال ؛ والعظيم هو الذى لا يستطيع غيره أن يدانيه فى قوة من قواه الشخصية ، نفسية كانت أو فكرية أو روحية ، وهو الذى يتميز على غيره بظاهرات خاصة ترى الناس إزاءها حيرى كأنهم مختلفون !!

أما تصوير الذين باعد بيننا وبينهم الزمان أو المكان ، وتخيل الصور والسمات الغريبة لهم على اعتبار أنهم عظماء ، فما فى العظمة الانسانية صور شكلية ولا نظم معيشية بذاتها . وإنما العظيم العظيم هو نسيج نفسه الذى لا يمتاز فى الحياة العادية على الناس إلا بأنه أكفأ الناس لرفع مستوى الحياة .... وأما تقسيم الأفذاذ إلى أبطال وعباقرة ، ثم بعد هاتين المرتبتين إلى عظماء ، وتحتيم صفات غير بشرية للعظيم بصفة خاصة - فهذا هو الخيال . وإنما العظيم العظيم هو الذى يتسع أفق نفسه للون من ألوان المجد القائم على أكبر كمية ممكنة من الروابط الاجتماعية التى فيها سعادة أو خير للناس

ترى « النفس » هى مستقر العظمة ومصدرها ؛ وكلما عظمت نفس الرجل أحس هو بقوتها ، وزاده إحساسه يقيناً بحقوق الآخرين . فتراه يعترف للغير بحقوقهم ، ويسعى فى أن يرد للمجتمع ما تكون يد قاهرة قد سلبته من الحقوق ... وهذا هو طلعت حرب على ما جاء به من المجد لأمته تراه يعترف منذ الصدر الأول من حياته بالجهود الفكرية التى بذلها السابقون فى سبيل مشروع إنشاء بنك مصرى للمصريين . وتراه وقد أسس هذا البنك العظيم - وقد كان الفضل الأول فى تأسيسه للجهود الطلعتية - لا ينفك يقرر فضل القوى الأخرى فى نجاحه فيقول :

« لقد قام فى هذا الصيف دليل محسوس على حيوية البنك واستقلاله بذاته عن الأشخاص . وهذا الدليل هو أنى وزميلى فؤاد بك سلطان غبنا فى

وقت واحد عن البنك ولم يكن أحدنا به نحو شهر من الزمان ، فسارت الأعمال على أحسن مايرام » [1]

بل هـذا هو طلعت حرب يرد على مصر بجهوده ورجاله خـــيراتها الاقتصادية التى كانت نهبا لكل ناهب أجنبى ، ويرسل فى سائر الأقطار العربية بشائر اليسر والرخاء بدعواته ومشروعاته العمرانية النافعة ، ويؤســس فى كل يوم صلة بيننا وبين غيرنا من أبناء العالم تقوم على أســاس من المودة والتبادل فى الانتاج . . . هذا هو طلعت حرب يسعى إلى كل كمال ممكن فى اكتسـاب ما لقومه من حق فى الحياة وفى البقاء . . . هذا هو طلعت حرب بعد أن كوّن لقومه هذا التراث المجيـد من الفكَر الاصلاحية ، والمبادىء العمرانية ، والمنشآت الاقتصادية ، وبعـد أن بلَغت الشركات التى ساهم فى تأسيسها باسم مصر أربع عشرة شركة ـ يقف على ظهر البـاخرة كوثر فى أولى رحلاتها إلى الحجاز ، بضحوة يوم من أيام فبراير سنة ١٩٣٥ ، ليصف لجمهور المواطنين هذا الجهد الجديد الذى يقدمه من أجلهم قائلا :

« إننا لا نبغى من وراء هذا العمل الانسانى إلا وجه الله والوطن ، فان لحتم تقصيراً فنبهونا إليه ؛ فان العصمة لله العزيز الحكيم ؛ وما نحن إلا مبتدئون ؛ وليس فى الدنيا مبتدىء ولا منته بلغ الكمال »

على أن النفس التى لا تغرّها عشرات المنشآت على يد صاحبهـا فى البر والبحر والجو ، فى الشرق والغرب ـ النفس التى لا تغرها قوة تتحول بناحية فى حياة أمـة وبناحية فى حياة شـعوب أخرى غير هـذه الأمة إلى متجهات جديدة فى الوجود ؛ النفس التى لا تغرها أفـكار ملهمة من صاحبها ، لصاحبها فوق ما لهذا الرجل من إرادة جبارة وشهرة ضافية وثروة فى كل ناحيـة من نواحى الحيـاة ؛ النفس التى يقول صاحبها بعـد هذا كله للناس : نبهونى إلى تقصيرى فانى مبتـدىء وليس لى أن أبلغ الـكمال ـــ هـذه النفس هى أدنى

(١) خطابه بحفلة تكريمه فى صيف سنة ١٩٢٥ بالقاهرة

ما تكون إلى الكمال، وأقرب ما تكون إلى العظمة !!

جدير بنا هنا أن نعود إلى نجاح طلعت وإلى السر فيه، الذى أبى الرجل أن يكشفه تواضعاً منه لسائله؛ فنرد السر فى هذا النجاح إلى نفسيته. وبتحليل بسيط لهذه النفسية نرى فيها العناصر الآتية:

١ — الطمأنينة المؤمنة: الذى يقول «أنا الذى عشت ما عشت لم أشعر فى يوم من أيام حياتى أننى كنت مغبوناً، أو أن حقى كان مهضوماً، حتى ولا فى أيام الدراسة؛ بل «إن الخيرة فيما اختاره الله»، كانت عقيدتى؛ وإن نصيبى فى الحياة لم تشغلنى قط قلته ولا كثرته؛ بل كان، ولا يزال، يرضينى الواقع دائماً والحمد لله» (١)

٢ — ثقة الموهوب: الذى يقول «كانت ثقة الناس فىّ واعتقادهم — خطأ أو صواباً — النفع والافادة فى شخصى الضعيف تغنينى عن البحث فى الماديات، بل وعن كل شىء» (٢)

٣ — طبيعة الغنى: الذى يقول «ولقد أعلم أنك تدفعنى دفعاً للتحدث عن نفسى، وأنا عزوف عن ذلك بطبعى؛ ولكننى أعلم أننى إذ أفعل، فانما أتحدث بنعمة الله تعالى» (٣)

٤ — قوة المبشر: الذى ما وقف ليخاطب جمهوره خطاباً رسمياً أو غير رسمى إلا بدأه بقوله: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

فى كل عنصر من هذه العناصر تفصيلات نفسية أخرى تؤدى إلى نتيجة واحدة، هى أن طلعت رجل من الرجال الأفذاذ الذين لا نقص فى إنسانيتهم. رجل توفر فى خليقته الخلق الذى يجعله مثلا فى ساحة الأعمال العظيمة؛ ولا بد للأعمال العظيمة من خلق عظيم

ليس طلعت حرب ملائكى الطبع كهذا النوع من العباقرة الذين يعيشون غرباء عن المجتمع. بل إنه إنسانى المزاج، فيه كل ما فى طاقة النفس الانسانية

---

(١) و (٢) و (٣) من مقال طلعت باشا بمجلة الرابطة العربية (ص ١١ ع ٧)

من مختلف ألوان القوى . فهو رجل ظل طول حياته يلائم بين طبيعة نفسيته وطبيعة المجتمع الذى يعيش فيه ، حتى أصبح هو عنواناً رفيعاً من عناوين المجتمع ، لا تقوى عاطفته على عقله ، ولا يطغى عقله بعاطفته ، ولا تذوب إرادته أو قوته الغضبية إزاء أحد منهما. وقد وصف هذه الناحية الأستاذ عبد الله فكرى أباظه[1] وصفاً فيه توفيق الخبير، حيث يقول :

« . . . . وليس بعجيب بعد الذى عرفته عن طلعت حرب من كثرة العمل ، والجهد الشاق، والمسئولية الكبرى التى يحملها ورفاقه أن يكون عصبى المزاج على شىء من حدة الطبع ، وخشونة المظهر فى عمله . ولكنها شدة تتطلبها المصلحة ، ونراها بليغة الأثر فى نجاح الأعمال التى يتولاها ؛ لأنها تضاعف حركة « الدواليب » وتبعث فى أنحائها حرارة مستمدة من تيار ذلك « الدينامو » الهائل الدائم الدوران »

« على أن تلك الشدة والحدة تصحبها طيبة قلب تشفع فيهما ، فلا تلبث ثورته أن تهدأ بكلمة تفاهم أو عتاب ، وتنقلب عطفاً أبوياً هو الرابطة الكبرى بين طلعت حرب وكل من تربطهم به علاقة العمل من معاونيه ومرءوسيه . . . وقد عرفوا عنه ذلك الخلق الكريم فاعتادوه ، ووطدوا نفوسهم على اتخاذه والداً باراً ، شديداً عليهم فى الحق أو العمل ، رحيماً بهم يحفظ فى قلبه الكبير عطفاً دونه عطف الآباء »[2]

طبيعى أن تكون نفس طلعت موضع هذا الخلق ، خلق المستبد الرحيم ؛ فقد نشأ هذا الرجل مديراً ، وعاش ويعيش مديراً ، ولا بد للادارة الناجحة من حزم أكيد . لكنه أيضاً نشأ مسعداً ، وعاش ويعيش مسعداً للكثيرين ، ولا بد لمسعد الغير من قلب رحيم

---

(١) مدير شركتى مصر حليج الأقطان والنقل والملاحة

(٢) من الخطبة التى أذيعت بالراديو ليلة العيد الخامس عشر لبنك مصر

صاحب السعادة

يقول الدكتور هيكل بك فى نهاية كتابه الأشهر « حياة محمد »[1]:

« لما صح عزمى على طبع هذا الكتاب بعد أن راجعت مواده وصححتها، وأضفت إليها وحذفت منها، فكرت فى أن أجعل منه حظاً للفقراء والمحتاجين شكراً لله على توفيقه إياى فى وضعه وطبعه؛ وأردت أن أشرك فى زكاة الشكر هذه رجلا أقدر جهوده، وأعرف بره بالفقراء وذوى الحاجات. ذلك الرجل هو زعيم مصر الاقتصادى العظيم طلعت باشا حرب مدير بنك مصر وشركاته الأربعة عشر. فذهبت إليه وذكرت له ما صح عزمى عليه من طبع عشرة آلاف نسخة تكون الطبعة الأولى، على أن أجعل ألفاً منها للجمعية الخيرية الاسلامية؛ وطلعت باشا من كبار أعضائها. وطلبت إليه أن أطبع الكتاب بمطبعة مصر. فلم يتردد الرجل فى أن يبذل لى من مختلف صور العون غاية ما رجوت. فشكراً له على صنيع كان له فضل معاونتى أكبر المعاونة فى الاسراع إلى إصدار الكتاب، وشكراً له على ما شاركنى فى هذه المعاونة القيمة للجمعية الخيرية الاسلامية؛ جزاه الله عن صالح مجهوده، وعظيم عمله فى سبيل وطنه وفى سبيل الله خير الجزاء »

* * *

إذا حققنا فى جميع الغايات الانسانية، فكرية كانت أو عملية، وحللنا الدوافع النفسية التى تدفع المجاهدين من عظماء الانسانية إلى تحقيقها؛ بل وإذا فحصنا المطالب التى ينشدها النابهون العاملون العظماء فى العالم، لوجدناها تنحصر فى كلمة واحدة تنطوى على كثير من الجزئيات ذات مختلف الألوان ــ هى السعادة

(١) ص ٤٩٦ من الطبعة الأولى

فالناس يريدون أن يسعدوا أنفسهم وأن يسعدوا غيرهم إن كانوا خيرين.
والمختارون من الناس هم أرغب الناس وأقدرهم على إسعاد الآخرين... ونظرة في سيرة طلعت حرب تردنا مقتنعين بأن هذا الرجل ذا المنشآت المادية الضخمة ما كان ليساهم في تأسيس مشروعاته إلا رغبة منه في إسعاد غيره..

وكان المصريون تتناهب أموالهم أيدي الدخلاء الناهبين حتى أزمت بهم أزمات الشقاء فجاهد خمسة عشر عاماً حتى أنشأ البنك المصري الذي يحميهم من سطوة الطامعين، ويرد خيرهم إليهم، ويزيد هذا الخير أن تستفيد في العمل له آلاف الأيدي من أبناء الوطن

ما كانت المنشآت المادية في نظر طلعت حرب حباً في المادة إلا بعد أن كانت في نظره سبباً إلى خير عام يصيب الكثيرين. وهو نفسه على الرغم من المركز المادي الأكبر الذي يشغله لا ينسى أن ينشر دعوة الخير ضد عبادة المادة قائلا «... ولكني أطمع في شيء واحد هو ألا تكون الحياة المادية الجارفة علينا من الغرب سبباً في إضعاف قوة الفضائل القومية — خصوصاً فضائل البر بالضعفاء والاحسان إليهم»

لا تدهش لهذا القول منه، فطلعت هو الذي قدم المئات والألوف براً وإحساناً لمنكوبي مصر والحجاز والشام في كثير من الظروف التي ماتزال ماثلة للاذهان، وما زالت هبته المالية الكبرى إلى جمعية المواساة في ذاكرة الجميع

لكن الذي سيدهشك حقاً أن ترى هذا الرجل الذي يدير بنكا وشركات وأعمالا تكاد لكثرتها لا تحصى، قد درج في الوسط الذي حوله على سنة تفقُّد الأحوال الخاصة لأشخاص الفقراء الذين يدركهم محيطه، فتراه يعني بنفقات زيجاتهم إذا تزوجوا، وبنفقات دفنهم إذا ماتوا، وبتعليم أبنائهم إن كان لهم أبناء، وبالترفيه عنهم إذا أصابتهم مصيبة من المصائب.. وإنك لتراه يعني بهم أفراداً كما يعني بهم جماعات!!

يبدو طلعت حرب المسرف في الاحسان متناقضاً مع طلعت حرب

الممعن فى الاقتصاد ، لكن هذا الخلاف الشكلى بين النزعتين ليس إلا استكمالا للعظمة الانسانية التى يستقر جزء كبير منها فى نفسية طلعت . فالامعان فى الاقتصاد هو وسيلة من وسائل الخير للناس فى ناحية ، والاسراف فى الاحسان هو وسيلة من وسائل السعادة للناس فى ناحية أخرى ، وطلعت يبدو فى كل دور من أدوار حياته أنه يريد الخير والسعادة للجميع

فالاحسان صفة من صفاته الطبيعية : إحسان فى العمل وإحسان إلى الناس. وليس شك أن تاريخ الاحسان فى مصر الحديثة سيذكر اسم طلعت فى القائمة الأولى من أسماء الرجال الذين نظموا الاحسان الوطنى . وفى مقدمة نُظم الاحسان التى اشترك فيها أنه ساهم بجهده وماله فى تأسيس الجمعية الخيرية الاسلامية مع عظماء المصريين الذين أسسوها؛ وبالغ فى البذل لها ، حتى أصبح بفضل إحسانه وكفاءته وكيل هذه الجمعية الكبيرة وأمين صندوقها معاً

***

لهذا ترى « الدكتور هيكل بك » ، وهو من زعماء الأدب والسياسة فى مصر ، حينما أراد أن يحسن فى كتابه وبكتابه « حياة محمد » لم يختر عوناً له على هذا الاحسان إلا طلعت[1] . فطلعت قد أشربت نفسه الاحسان، وهو يحسن ويحسن إلى الغير ليسعدهم ، حتى إذا لم يجد من يحسن إليهم بعمله أو بعلمه أو بماله أحسن إلى نفسه ليسعدها بشتى صنوف النجاح التى يكسبها باحسانه . . . وهناك دليل رسمى قد عرفته من سيرة « زعيم الاستقلال الاقتصادى» على أنه يمزج أعماله بعنصر الاحسان . ذلك أن الملك فؤاد الأول حينما تفضل بافتتاح شركة مصر للغزل والنسج ؛ ورأى مبلغ هذه الألوف من الأيدى التى تعمل وتصيب بعملها فى هذه الشركة رزقاً ، شهد لرب هذه الشركة بأنه عامل فعّال فى سعادة البلاد. وأراد المليك أن تكون شهادته شهادة ذات عنوان رسمى ، فأنعم عليه برتبة الباشوية الرفيعة . . . . وغدا عن حق وجدارة « صاحب السعادة » محمد طلعت حرب باشا

---

(١) راجع تصريح هيكل بك فى مقدمة هذا الفصل

فى نهضة الفن

لم تقف نزعة « السعادة » التى ينزعها طلعت حرب نحو الناس عند هذه الحدود المتواضع عليها من بذل بالمال ، وإحسان فى العمل ، وتدبير مرتزقات للعاملين ؛ بل كان لا بد للعبقرية أن تأخذ مجراها فى هذه النزعة أيضاً . فترى هذا الرجل الذى درج فى مدارج حياته مرفهاً عن الفلاحين وعن الفقراء لم يقنع بالترفيه عن أولئك وهؤلاء فحسب ؛ فراح يحاول الترفيه عن الذين ليسوا فقراء . . . عن أولئك الذين غمرتهم المدنية ، وأصبحوا لا تشبع من الرفاهية نفوسهم بشىء قليل !

كان التمثيل قبل الحرب العالمية الكبرى هو فن الفنون ، ومسرى خواطر المعاصرين فى جميع أنحاء العالم ؛ وكانت دور التمثيل هى ملاهى الطبقة الراقية المتمدينة فى جميع البلاد ، وكانت الرواية المسرحية هى الأدب الجديد الذى شمل الأمم ذات الحضارة العصرية

أما فى مصر فقد كان الفن المسرحى ، تأليفاً وإخراجاً وتمثيلاً ، فناً ابتدائياً جديداً عند الفنيين . . . وفناً ثانوياً فى نظر الجمهور . . . كان الشيخ سلامة حجازى هو أقوى من جذب الأنظار إلى هذا الفن . لكن جاذبيته لم تكن موجهة من النظارة إلى التمثيل ، بقدر ما كانت موجهة إلى غناء الشيخ

مات الشيخ سلامة حجازى ، ففقد المسرح فى مصر الشىء الكثير من جاذبيته . وقامت الحرب العالمية الكبرى يومئذ فاضطربت أعصاب الناس وأمزجتهم ، ولم يجدوا الرواية التى تلهيهم وتمتعهم وتنأى بهم عن آلام الواقع إلى بهجة الفنون

لم تكن مصر قد خلت من الفنيين ، بل على العكس كانت قد اجتمعت

لها يومئذ طائفة من خيرتهم ، هم أولئك الذين وجهوا فى المستقبل فن التمثيل فى مصر والشرق العربى . لكن أولئك الفنيين لم يجدوا يومئذ الرابطة العملية التى تجمعهم ؛ فان وجدوها، لم يجدوا إقبال الناس دائماً على أعمالهم

ذلك أن الرواية المسرحية بصفة خاصة لم تكن إلى ذاك الحين إلا رواية أجنبية قد لا تتصل مشخصاتها بمشخصات الحيـــاة فى مصر خاصة وفى الشرق عامة ؛ وكان المصريون أو الشرقيون قديماً يقبلون عليها إقبالهم على الشىء الجديد . أما والتمثيل لم يعد عند الطبقة الراقية المتعلمة شيئاً جديداً ، فما الذى يحملهم على أن يحبسوا خيالهم على هذه الدرامات الأجنبية . .

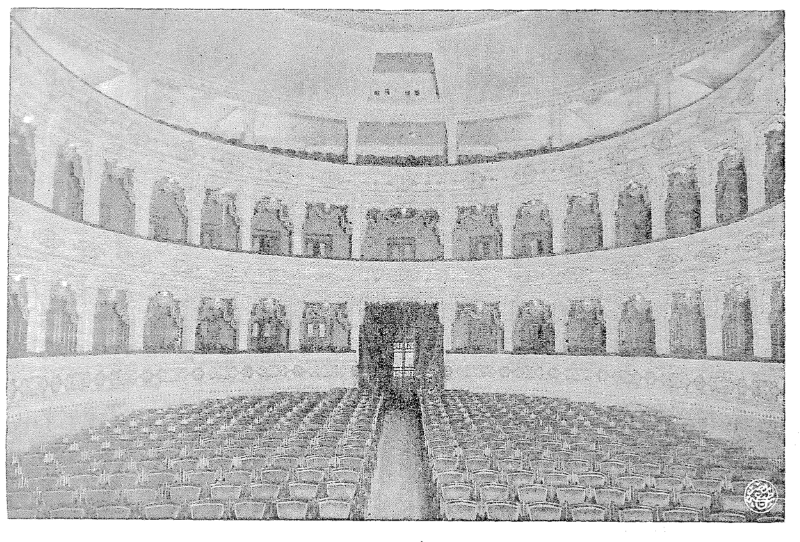
لكن أين المؤلف ؟ . . . بحثوا عنه فعثروا به فى ظلمة من عدم التقدير أو عدم الاعتراف، أو فى حلكة من الفاقة تحجب كفاءته عن الأنظار ! فمن الذى يخرجه من هذه الظلمات ؟

إنه محمد طلعت حرب !

أجل هو طلعت حرب الرجل الذى اندمج إحساسه فى أحساس أمته ، أو اندمج إحساس أمته فى إحساسه ، قد دفعته حساسيته إلى أن يرفه عن هذه الأمة ، أغنيائها وفقرائها ، بأن يوجد لهم المسرح المصرى

كانت الثورة الوطنية قد أشعلت نفوس الشباب . ولم تعد ترضيهم هذه الروايات الأجنبية ؛ إنما كانت نفوسهم بحاجة إلى « المسرحية » التى تحيى فى نفوسهم العزم بذكريات المجد . فألف طلعت « شركة ترقية التمثيل العربى » وفتح للمؤلف المصرى خزينته . ولم يكن ليعطى المؤلف على مسرحيته عطاء الضنين ، بل كان يعطيه على عمله أجراً لو وجده واضعو المسرحيات فى هذا العهد لكان لهذا الفن اليوم شأن آخر . فقد ارتفعت الأرقام فى سعر المسرحية المؤلفة على يد طلعت من مائة إلى مائتى جنيه !!

قام طلعت حرب بهذا الجهد ، وبذل هذا البذل ، حتى أوجد المسرح فعلا . وكان آية وجوده هذا البناء الفخم الذى يعد هو الآخر تحفة من تحف



مسرح حديقة الأزبكية — منظر داخلي

الفن فى العمارة العربية الحديثة ، ألا وهو « مسرح حديقة الأزبكية » الذى افتتح فى سنة ١٩٢٠ فسارت فيه النهضة الفنية فى معية النهضة الوطنية . ولقد تألفت لهذا المسرح فرقة تمثيلية من جميع فطاحل التمثيل تقريباً. وبقدر ماكان يبذل طلعت للمؤلفين ، بقدر ماكان يبذل للمخرجين والممثلين جميعاً

كذلك ساعدت يد طلعت فى الفن على إيجاد المسرحية العربية . وقد استطاع بشخصيته المفردة أن يقوم فى هذه الناحية بما قعدت عنه شخصيات وهيآت رسمية أو غير رسمية . . . ولقد عثرنا ، والكتاب تحت الطبع ، على حديث لكاتب من كتاب المسرحيات الذين شملهم عهد طلعت فى حياة المسرح ، هو الأستاذ عباس علام الذى تحدث فى هذا الموضوع إلى جريدة المصور قائلا :

« . . . وهل أدل على ذلك من أن طلعت باشا حرب استطاع أن يوجد مؤلفين روائيين لازلنا نذكر منهم عمر عارف بك القاضى (مؤلف هدى) ، والأستاذ فكرى أباظه (مؤلف زواج مصلحة)، وابراهيم بك جلال (مؤلف العمدة) ، والأستاذ ابراهيم رمزى ، وأخيراً شخصى الضعيف (عباس علام) . فهؤلاء الأعلام وغيرهم من خيار المؤلفين حين وجدوا الرجل القوى والشخصية العظيمة أنتجوا وجادت قرائحهم »[١]

ترى صاحب هذا الحديث يشير إلى أثر شخصية طلعت فى هذه النهضة . والواقع أن هذا الرجل الذى تعد حياته بركة لمصر فى أغلب نواحيها لم يقف جهده فى هذه الناحية عند التشجيع المادى وحده ، بل إن الذاكرين ليذكرون له تشجيعاً أدبياً للفنيين قد يكون دونه كل تشجيع

كانوا إذا مرض أحدهم عاده بنفسه ، وبأطبائه ، وهيأ له سبل الشفاء . . يسأل عن الغائب منهم ويقوى عزائم الحاضر . ولقد تصادف أن كان طلعت يرتاد ربوع الشام فسمع بأن « فرقة تمثيلية مصرية » تحيى بدمشق بعض

(١) ص ٣٥ ع ٨ من أكتوبر ١٩٣٦

الحفلات . وعلى الرغم من أن مدير هذه الفرقة كان يومئذ على خصومة قضائية بينه وبين المصلح الكبير ، فان الرجل لم يتردد فى حضور حفلة الفرقة — لا بمفرده فقط ، بل إنه دعا إليها على حسابه الخاص كل من لقيه من الصحب والأصدقاء ، حتى بلغت الألواج التى احتجزها لحسابه صفاً كاملا . . . ولم يقف تشجيعه عند هذا الحد أيضاً ، بل إنه هنأ أعضاء الفرقة جميعاً فى نهاية الحفلة . وكان عيد الأضحى قد أشرف ، فأمر لكل منهم بذبيحة العيد !

. . . . . وهكذا لن يفقد العظيم عظمة نفسه فى أى مرحلة من مراحل حياته !

سياسى

مالهذا الرجل ، والناس فى مصر لاحديث لهم إلا حديث السياسة ولا شغل لهم إلا شغلها ، يقيم نهضة الفن مرة ، ويشيد صرح الاقتصاد الوطنى مرة ؟ ... أليس عجيباً فى سنة ١٩٢٠، والرصاص يدوى فيصم القلوب ويصيبها فى الصميم ، أن يقيم طلعت حرب دولة المسرح ؟ وأليس عجيباً فى سنة ١٩٢٠، وخواطر الأمة كلها محشودة فى ميادين الثورة السياسية، أن يؤسس طلعت حرب بنكاً للمعاملات النقدية الخالصة ؟.. لكن أليس أعجب من هذا وهذا أن يجد فى الجماهير المصرية الثائرة أنصاراً يقبلون على الفن الذى أقام دولته ، ويقبلون على المشروع الاقتصادى الأكبر الذى أقام دعائمه ؟!

ترتيب الحوادث فى تاريخ طلعت حرب، المندمج فى تاريخ مصر، هو الذى يزيل هذا العجب . فالثائرون لكرامتهم القومية فى ثورة سنة ١٩١٩ ومابعدها يرومون بقوة ضميرهم أن تكون الأعمال الفنية كلها فى خدمة هذه الكرامة ، وإنشاء المسرح القومى الذى أنشأه طلعت لم يكن إلا تحقيقاً لما أراده ضمير الشعب المصرى الثائر .... والمدافعون عن حقهم إزاء الدخلاء فى بلادهم يودون بقوة إرادتهم أن يثبتوا للخصوم أنهم أكفاء للاستغناء عنهم فى داخلياتهم ؛ وتأسيس البنك الوطنى الذى عمل لتأسيسه طلعت لم يكن إلا تنفيذاً لأعمق إرادة فى نفس الأمة التى ثارت لتثبت أنها كفء للحرية

سياسة من طلعت حرب نحسب أن الزمن يثبت فى كل يوم دليلا على سلامتها. فقد أجمع المفكرون جميعاً ، والمؤرخون جميعاً، والمنصفون جميعاً على أن النهضة السياسية الأخيرة فى التاريخ المصرى إن كان لها فضل على سابقاتها من النهضات ، ففضلها فى كونها قد أحيت الفنون ، وازدهر فيها الاقتصاد ،

ولو لم يتوفر رجال كرام مثل طلعت حرب على إحياء هذه النهضات التى استغلت النهضة السياسية استغلالا حكيما لعاب التاريخ على المصريين أنهم لم يتحينوا للتقدم العملى ظروفه الموقوتة له فى عالم الحضارة

ليس شك أن السبعة عشر عاماً التى استغرقتها الثورة السياسية من تاريخ مصر كانت ذات آثار عمرانية فى المجتمع المصرى . على أنه لم يكن فى هذه الآثار أثر أعظم ولا أنتج ولا أبقى من بنك مصر وملحقاته التى تتسم كلها بسمة طلعت حرب

فسياسة طلعت حرب هى سياسة الاختصاص ، واختصاص طلعت السياسى كان دائماً أنبل اختصاصات السياسة . . . إن طلعت رجل يخدم مصالح المصريين جميعاً من كل حزب ومن كل شيعة ، فلم يكن ممكناً ولا مستطاعاً أن يتخير لنفسه لوناً من السياسة المعروفة بين أحزاب الأمة . لكن هذا العجز الجميل عن انتحاء جانب من الدوائر السياسية المصرية كان هو الكمال بعينه فى سياسة طلعت : فقد كسب احترام الجميع وحبهم وتقديرهم بحياده وثباته وطول الزمن

على أن طلعت ما كان ليكسب هذا الحب والتقدير والاحترام بالحياد المجرد أو الثبات المجرد فى بلد كانت تضطرب فيه الأفكار السياسية أحياناً ؛ إنما كان لهذا الرجل من ماضيه ، فوق ماله من حاضره ، قوة تؤيد سياسته الخاصة أو سلوكه السياسى الفريد . . . .

فطلعت حرب هو مؤلف كتاب « قناة السويس » وداعية الأمة الكبير إلى مقاومة السياسة الانجليزية فى مد مدة امتياز شركة القناة ؛ وطلعت حرب هو داعية التجار الوطنيين إلى تكريم « سعد زغلول » بطل السياسة الوطنية العظيم حين آب إلى مصر فى سنة ١٩٢١ . . هناك وقف « طلعت » يخطب فى تكريم « سعد » قائلا :

« . . . . من التغرير بالنفس أن تظن السياسة أن المصريين قد عموا لا يروا ما يقع تحت أبصارهم . فان القوة إن كان من نتائجها أن تقصف أقلام

الناقدين ، أو تسد أفواه الشاكين ، فليس من شأنها أن تسكت قلوب المظلومين ، وكل سياسة خطها الانجليز فى مصر فشلت ؛ لأن قاعدتها لم تكن الاتفاق مع الأمة المصرية . . . .

قال طلعت حرب هذه العبارة السياسية الجريئة فى سنة ١٩٢١ ، والأسلحة شاكية فى وجوه الذين يتخذون هذا المنطق السياسى من القول . لكن تجارب بريطانيا أكبر دولة سياسية فى مدى خمس عشرة سنة مع مصر أسفرت عن صدق منطق طلعت ، فاتفق الانجليز أخيراً فى سنة ١٩٣٦ مع ممثلى الأمة المصرية ، وبرهن هذا الاتفاق الأخير على أن كل سياسة سابقة للانجليز كانت سياسة فاشلة .

يخطىء بعد هذا كله من يظن أن حرباً ليس رجلا سياسياً . . . على أن هذا الخطأ خطأ كأنه الصواب ، لأن سياسة طلعت كانت فى أكثر أطوار حياته هى البعد عن السياسة — البعد عن هذه السياسة التى تتخذ ألواناً وأشكالا مختلفة من اختلاف الرأى ، والتحزب له ، ومشايعة مذهب سياسى ضد مذهب سياسى آخر . . . لكن البعد عن هذه الألوان والأشكال من السياسة كان هو السياسة بعينها . . .

فلو لم يكن طلعت حرب سياسياً محنكا ، ثم تورط فى لون سياسى معين لفشلت إدارة المشروعات العمرانية العظيمة التى يقوم بها لاحياء مجد مصر وتحقيق استقلالها استقلالا عملياً ، مع أننا نؤكد أن نجاح هذه المشروعات هذا النجاح الذى كانت حيدة طلعت جزءاً منه ، هو سبب من الأسباب المباشرة ، أو الغير المباشرة ، فى نجاح المفاوض المصرى والمجاهد المصرى سوياً لاحقاق ما لمصر من حقوق بين الأمم الحية ... ولقد شرح طلعت حرب نفسه هذه النظرية السياسية فى خطابه الذى ألقاه فى حفلة تكريم التجار لسعد زغلول ، وعبر عنها بما يأتى :

« الموجودون هنا ، أيها السادة ، تجار رجال عمل ، قلما تتغلب عليهم

العواطف فى أعمالهم ، وهم لا ينظرون إلى جميع ما يعرض عليهم إلا من ناحية المصلحة . فهم إذا كانوا يطلبون الاستقلال التام، فليس ذلك لزخرف يبغونه ، أو لعار يمحونه ، وإنما لخير يرجونه ؛ فلئن توقف رقينا الاجتماعى على تحسين أخلاق الأفراد ، وتوثيق روابط العائلات، فذلك لن يكون إلا بعد أن نأخذ أمرنا بيدنا — ومن أجل هذا نطلب الاستقلال »

« ولئن توقف رقينا الاقتصادى على التربية الزراعية والصناعية والتجارية وإنماء الكفاءات العملية ، فلن يكون ذلك تاماً إلا بعد أن نأخذ أمرنا بيدنا — ومن أجل ذلك نطلب الاستقلال »

طبيعى أن لو كانت مصر حرة تامة الحرية فى السنين الماضية التى جاهد فيها طلعت حرب ورجاله وأمثالهم لعمرانها ، لكانت نتيجة هذا الجهاد أكثر قوة وأكبر نفعاً ؛ لكن طلعت بما صنع لبلاده قد ساعد على دنو هذه الحرية فعلا إلى يدى مصر ، وكانت له فى منشآته — التى لا تحتاج إلى بيان — سياسة وطنية جديرة بأن تثبت له اسمه — على الرغم من كرهه للسياسة — بين أسماء الساسة الدهاة

داعيـــــة

يوم أقام تجار العاصمة حفلتهم التكريمية للزعيم الأكبر «سعد زغلول» فى ١٣ أبريل سنة ١٩٢١ ، أعد طلعت لهـذه المناسبة كراسة مؤنقة عن هذه المؤسسة الاقتصادية التى لم يكن لها فى الوجود إلا بضعة أشهر قلائل ، ألا وهى «بنك مصر»

قرأ الحاضرون هذه الكراسة ، وأعجبوا بها وبما فصلته من مشروعات بنك مصر ، أو مشروعات طلعت حرب ؛ وانبثت الأفكار التى ينشرها طلعت بهذه الكراسة فى نفوسهم وهم لا يعمدون . فدل اختيار هذا الظرف للاعلان عن بنك مصر ومشروعاته المستقبلة ، وعدم ترك مثل هذه الفرصة العظيمة تفلت دون الالفات إلى النهضة الاقتصادية الجديدة — على استعداد من الاستعدادات الكمينة فى تكوين طلعت حرب ، ألا وهو «الدعاية»

الدعاية فى تكوين «طلعت حرب» ، وفى بناء عظمته عامل من العوامل الأساسية . ولو لم يكن طلعت داعية كبيراً لجهل الناس الفضل الكبير فى المنشآت التى يدعو لها ، ويؤسسها لتحقيق استقلالنا الاقتصادى ؛ ولجهلنا الشىء الكثير من أعماله وميزاته التى تكون شخصيته العامة ، وتجعل منها قدوة حسنة فى الحياة العملية ؛ ولما ظفر المصريون عامة بهذا الانتاج الاقتصادى كله فى الستة عشر عاماً التى خلت ، وما يليها إن شاء الله من الزمان ؛ ولما ظفرنا نحن خاصة بتقديم هذا الكتاب عن هـذه الشخصية المثالية العظيمة لرجال اليوم ورجال الغد على السواء

كثير من النـاس يمتـازون بملكة الدعاية ، لكن طلعت حرب داعية من الصنف الدءوب الذى لا يَنِى ولا يتأخر عن دعايته فى أصغر

المناسبات رغماً عن أكبر المراكز التى يشغلها

اقرأ هذه العبارة :

« ثمن المقطع من البفتة اليابانيـة يبلغ فى السوق نحو ٤٥ قرشاً ، بينما يزيد ثمن المقطع المصرى على ذلك قروشاً معدودة . وليست هذه الزيادة فى الثمن زيادة حقيقيـة إذا لاحظنا أن المقطع المصرى يتحمل سـتة أضعاف ما يتحمله المقطع اليابانى، بحيث يوفر المقطع الواحد على المستهلك شراء خمسة مقاطع أخرى من الصنف اليابانى»



يشرح لشيوخ الأمة ونوابها فى مصانع المحلة الكبرى . وقد ظهر فى المقدمة
وإلى يمينه الأستاذ محمود بك بسيونى رئيس مجلس الشيوخ

«وآية ذلك ما شاهده وزراء الدولة وعظماؤها بأعينهم يوم زيارتهم القريبة لمصنع « شركة مصر للغزل والنسج » بالمحلة الكبرى من أن القماش اليابانى يبـدأ بالتمزيق إذا وصل احتماله إلى درجة ٧٠ رطلا ، بينما لا يتمزق قماشنا المصرى إلا بعد أن تصل درجة احتماله إلى ٤٢٠ رطلا »

« أى أن اليابان إذا قصدت حقاً أن ترعى مصلحة الفقير المصرى، كان لزاماً عليها أن تعطيه ستة مقاطع من بفتتها بثمن ثوب واحد من (بفتة المحلة) ولكنها إنما تتعاطى منه ٢٧٠ قرشاً ثمناً لبضاعة نبيعها له نحن بخمسين قرشاً أو بخمسة وخمسين قرشاً »

لو قرأت هذه العبارة فى غير هذا الكتاب لحسبتها إعلاناً كتبه أحد كبار التجار المصريين؛ ولو زدتها إمعاناً لظننت أنها منقولة، على الأكثر، عن وكيل من وكلاء شركة المحلة الكبرى. والواقع أنها أجزاء من حديث للزعيم الاقتصادى نفسه أدلى به إلى جريدة «روزاليوسف» عن علاقة الصناعة المصرية بالصناعة اليابانية [1]

تخصص وديمقراطية فى الدعاية من الزعيم الاقتصادى ذات أثر قوى. فمهما كانت الدوافع الوطنية فى تفضيلنا لمنتجات بلادنا الصناعية، فانها لن تكون أقوى أثراً من هذه العملية الحسابية الخالصة، النفعية الخالصة، التى دعا بها طلعت إلى تفضيل المنسوجات المصرية... وإنك لتلمح على قوة هذه الدعاية سهولة فيها من جانب طلعت الداعية، فهو رجل قد مرن على الدعاية حتى أصبح يدعوها عفواً، فى غير كلفة ولا ادعاء، بل حتى أصبح اسمه وشخصه وبرنامجه فى الحياة دعاية من الدعايات الوطنية

ألست تراه معنياً بالسينما عناية ظاهرة، وما يعنيه منها إلا أنها وسيلة أبرع ما تكون فى وسائل الدعاية الحديثة. وهذا هو الذى حفزه لتأسيس شركة مصر للتمثيل والسينما « لتكون من الدعايات القوية عن شركاتنا ومنتجاتنا، فتربط بعضها ببعض، وتكون أيضاً وسيلة حسنة من وسائل الاذاعة عن مفاخر بلادنا، ومظاهر تقدمها، ومقدار نشاطها الانسانى فى كل نواحى الحياة، مما لاذاعته تأثير مفيد ونفع عظيم... ولا يخفى عليكم

---

(١) روز اليوسف فى ٢٢ مارس ١٩٣٥

أن قوة السينما ، وخاصة بعد أن أصبحت ناطقة ، تفوق فى الاذاعة والدعاية والاعلان أية قوة أخرى » (١)

* * *

يطول بنا البحث لو أردنا أن نعدد الحوادث والأقوال التى تتعلق بدعاية طلعت . فقد لا تكون هناك مناسبة قومية أو معرض عام لم يعرض فيه طلعت لشركات مصر شيئاً . وملايين من الناس يشهدون أول ما يشهدون فى المعرض الزراعى الصناعى الأكبر، الذى تقيمه الجمعية الزراعية الملكية دورياً كل خمس سنين — أن أول المعروضات إنما تكون معروضات بنك مصر وشركاته جميعاً . . . ومع أن حرباً قد نمت به السنون فى عهد القطارات البخارية ، فانه لم يحجم أن يكون أول من ركب الطائرة حين أنشئت شركة مصر للطيران

جرأة فى الاعلان تُزْرى بسلطان العمر ، وهمة الشباب . فليس من شك أن تنقلات طلعت باشا بالطائرة من مصر إلى الأقطار العربية ، ومن الأقطار العربية إلى مصر وغيرها، كانت أقوى دعاية لأمان الطيران عند الجماهير. فلو أن الطيران كان خطراً مهوباً لما تعرض له رجل إذا قيست الأعمار بالمال لكانت حياته من أغلى حياة الناس فى العالم كله . . . ومع هذا ، فهو لا يدع الفرصة تفلت دون إثبات دعايته ، فهاهو ذا حين زار الحجاز فى شتاء هذه السنة على متن طائرة من طائرات مصر، وعاد من زيارته — يحدث المسلمين عن طريق الاذاعة اللاسلكية بحديث رحلته . بدأ قصته عن هذه الرحلة بدعاية بليغة عن شركة الطيران، إذ يقول :

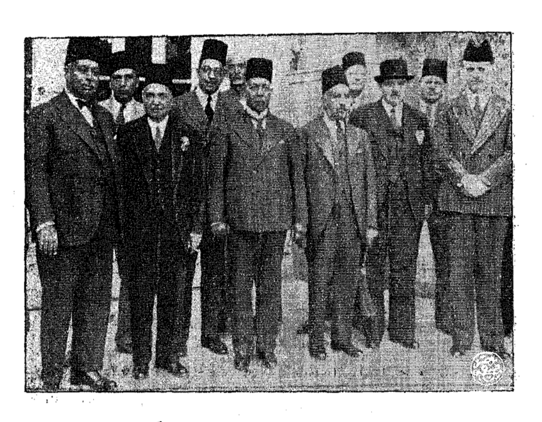
« بارحنا القاهرة الساعة ٦ر٣٥ يوم الخميس ١٤ من شوال سنة ١٣٥٤ (الموافق ٩ يناير سنة ١٩٣٦) على متن الطائرة « مصر الجديدة » إحدى

(١) خطبة طلعت باشا فى العيد الخامس عشر لبنك مصر (ص ١٩ و ٢٠)

طائرات شركة مصر للطيران ، وكان يقودها الطيار محمد صدقى ، فوصلنا جدة الساعة الرابعة بعد ظهر اليوم نفسه ، بعد أن استرحنا فى الطور وفى ينبع أكثر من ساعتين ونصف

«ولسنا فى حاجة أن نذكر لكم أن السفر بالطائرة مريح للغاية ، ولكن حسبنا أن نقول : إن من يجرب الطائرة فى أسفاره لا يعود مرة ثانية إلى تضييع وقته باستعمال وسائل السفر الأخرى»

على أن هذا كله ليس إلا مثلا موجزاً من أسلوب الدعاية الذى يمتاز بقوته طلعت حرب



فى حفلة الصحفيين لرجال بنك مصر بفندق الكونتننتال

طلعت حرب باشا — إلى يمينه محمد على علوبه باشا واحمد مدحت يكن باشا
وإلى يساره عبد القادر بك الكيلانى القائم بأعمال مفوضية العراق بمصر

شخصية المدير

تراكمت الأعمال فى مكتبه فى يوم من أيام النشاط العملى الذى يسود الغالبية الساحقة من أيام حياته ؛ وانصرف موظفو البنك عند الظهر حسب نظامهم، ليعودوا فى الساعة الثالثة بعد الظهر . لكن الساعة قد تعدت الثانية ، والسكرتير الخاص لطلعت باشا المدير ينتظر فراغ مديره حتى ينصرف كما انصرف الزملاء .

كان المدير غارق الذهن فيما عنده من المهام ؛ فلما تبين الوقت بعد الثانية بعشرين دقيقة انصرف لينصرف سكرتيره .... وعاد السكرتير بعد هذا التأخير فى العمل الصباحى بعد الثالثة بربع ساعة فقط ، فلقى المدير جالساً إلى مكتبه منكباً على عمله كأنه لم يكن منذ خمسين دقيقة غارقاً فى مهام هذا العمل !

عاتب المدير سكرتيره أنه تأخر خمس عشرة دقيقة عن موعد الرجوع ؛ وكان عذر السكرتير بيّنا ، أن هذه الساعة التى غابها لم تكن لتكفى الطريق وتناول طعام الغداء ... لكن المدير الجبار ، الذى كان هو الآخر قد انصرف إلى غدائه وعاد قبل سكرتيره ، قال : « إذا كانت مهمة الغداء تكلفك هذا الوقت كله ، فخير لك فى أيام ازدحام الأعمال أن تتناول طعامك هنا ! »

لا تحسب أن طلعت المدير الذى يلقى بهذا القول إلى مرءوسيه من أولئك الرؤساء الذين يصلون إلى مكاتبهم اتفاقاً فى غير وقت معين ، بل إنه رجل فى حياته برنامج نظامى، تنم عليه هذه الادارة النظامية الناجحة التى شاد أسسها

فهو ممن يعرفون اليقظة المبكرة . حتى إذا ما استيقظ راجع ما يكون قد ناله المبيت من أوراقه، وكتب تعليماته عليها ، ومر بصفحات الجرائد، وقرأ

مايهمه فيها ، ثم انصرف إلى مكتبه فى مقدمة موظفى بنك مصر بذات البكور الذى يبكره النشيطون منهم إلى البنك ، ثم يأخذ فى مباشرة عمله كأنه موظف مسئول يراجع بنفسه أصغر المسائل كأكبرها

رجل يحب عمله ، ونحن معك لانشك فى أن نجاحه فى أعماله يحبب إليه هذه الأعمال ؛ لكن لذته فى عمله ليست فقط لأنها تكسبه نجاحاً وخيراً ، بل إنه مشبع النفس بأنها أعمال تتعلق بمستقبل وطنه وحريته .... وكأنه أراد أن ينقل هذا الشعور من نفسه إلى نفوس مرءوسيه ليزيدهم حباً لعملهم ونشاطهم فيه ، فلما اجتمعوا لتكريمه فى اكتوبر سنة ١٩٢٥، قال لهم فيما قال :

« أنتم لاتعملون فى بنك مصر كمجرد موظفين ، بل تعملون فيه بشعور آخر لايقل قوة عن شعور مسئولية الوظيفة — وهو شعوركم أن البنك بنككم ، قد ارتبطت به حياتكم ، وارتبط به شىء من مجد وطنكم ، وشىء كبير من تكوين أكبر عدة لاستقلال بلادكم الاقتصادى »

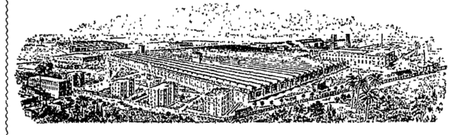
بهــــذه الروح تقوى شخصية طلعت فى العمل الذى يديره . وتتأثر بشخصيته جموع موظفيه ، فتراهم فى عملهم أدنى إلى الغبطة والنشاط ، ولعل حرباً هو أكرم الرؤساء لمرءوسيه فيما اشتهر عن مديرى الأعمال . فهو لا ينفك يسأل عنهم ، وعن خصائصهم ، وتقلبات حياتهم . ونحسب أنهم لولا كثرتهم كثرة يضيق بها وقته المزدحم بجلائل الأعمال لا تصل بهم فرداً فرداً . ومع هذا فقد تعود وعوّدهم معه أن يجمعهم كل عام مرّة أو مرتين على مائدته ليشعروا جميعاً بأنهم أسرة واحدة فى دار طلعت حرب !

لكن هذا العطف كله الذى يشملهم جملة واحدة ينصب فى جام من الغضب الملتهب على رأس المخطىء منهم . ولعل هذه القوة الغضبية فى شخصية طلعت هى سر من أسرار نجاحه فى إدارته إلى جانب هذه الخصائص الأخرى من العطف والشفقة . وعبثاً يحاول أحد الموظفين أن يفوت على المدير أمراً ، ذلك أنه « يتمتع بقوة ذاكرة دونها أنظم السجلات ، ويستخدمها كمكتب

شركة مصر للغزل والنسيج

شركة مساهمة مصرية

رأس مالها المدفوع ٥٠٠،٠٠٠ جنيه



مصـــانع لغـــزل القطن

من جميع النمر والكتان

مصانع للدوباره والقطن الطبى والفلات

مصبغة لجميع الألوان ومبيضة على احدث طراز

عدد العمال فى سنة ١٩٣٣ حوالى ٦٥٠٠ عامل

مركزها الرئيسى : عمارة بنك مصر ١٥١ شارع عماد الدين تليفون ٤٥٦٤٧

مصانع الشركة بالمحلة الكبرى تليفون رقم ٣

فرع البيع بالجملة : شارع الازهر الجديد تليفون ٤٥٧٣٨

بيع بالقطاعى : بشركة بيع المصنوعات المصرية وعموم المحلات التجارية

أطلبوا منها مصنـــوعات الشركة

يهتم المدير بجزئيات الأعمال التى يشرف عليها بنفسه . ويظهر على هذه الصفحة خطه وهو يراجع بقلمه تجارب المطبعة لاعلان عن إحدى شركات مصر في كراسة الاعلانات لسينما حديقة الأزبكية

استعلامات يحيط بكل شاردة وواردة من أعمال البنك وشركاته وعملائه »[1]

عنيف فى شدته، دقيق فى عطفه، مزود بالمكر السياسى فى إدارته، وفىّ للذين يعملون معه دائماً . . . . ولقد ذاع الشىء الكثير من بره بمرءوسيه ووفائه لهم، خاصة فى ساعات شدتهم، على أنه لم يكتف بما يصنع من هذا كله، وتأبى عظمة نفسه إلا أن يذكر حتى الذين غابوا عن الدنيا منهم فى عيد بنك مصر الأكبر فيقول :

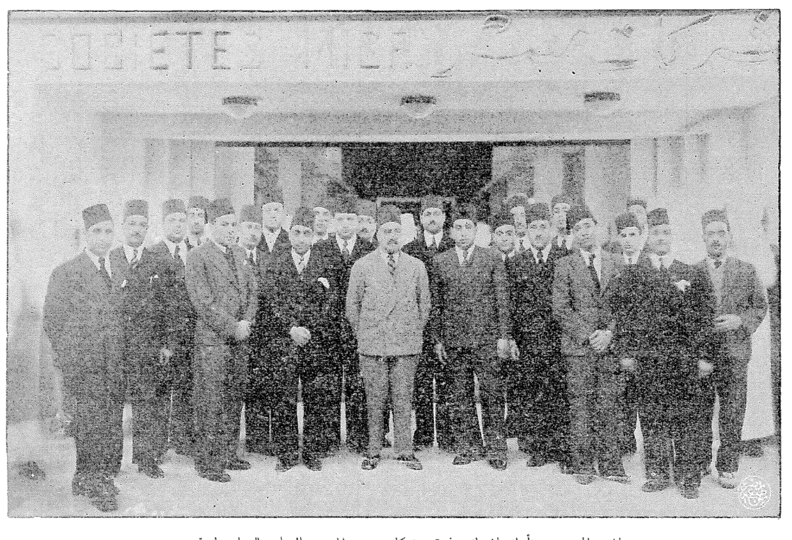
« إن فى كل عيد مثاراً لذكرى الصحب والأبناء، وفى هذا العيد الذى نحتفل اليوم به، لا ننسى أبداً أن نترحم على من فقدناهم، من زملائنا أعضاء مجلس الادارة، ومن أبنائنا الموظفين الذين استشهدوا فى ظلال البنك والشركات ؛ رحمهم الله رحمة واسعة، وأجزل لهم جميعاً حسن الثواب »

ليس هذا إلا سراً آخر من أسرار نجاح طلعت المدير، فالذين يعملون معه، أو تحت إدارته، يشعرون على الرغم من انضوائهم تحت لواء شخصيته الكبيرة بأن لهم فى دائرتهم شخصياتهم. حتى ولو لم يكن بيدهم الأمر والتدبير. ذلك لحنكة طلعت وحكمته فى معاملاتهم، فهو فى شدته، وفى انبساطه، من أكثر المديرين بُعداً من مسّ إحساس الذين يشرف عليهم أو على أعمالهم.

قال الأستاذ عبد الله فكرى أباظه فى كلمته التى ألقاها فى حفل من حفلات العيد الخامس عشر لبنك مصر، وقد سبقت الاشارة إليها فى موضع آخر : « إنى لأذكر أنى رأيت طلعت حرب فى مستهل حياة البنك يمسك بعض دفاتر البنك بنفسه، ويقيد فيها بيده، ويشترك مع صغار الموظفين — وما كان أقلهم حينذاك — فى عمل تسوية حسابية، أو يقيد طلبية. ويصرف مرتبات موظفيه القلائل من أدراج مكتبه حتى لا يعرف الواحد ما يتقاضاه سواه من أجر، منعاً للغيرة وفساد الروح بين الموظفين »

---

(١) من كلمة الأستاذ عبد الله أباظه فى ليلة العيد الخامس عشر لبنك مصر



المدير المحبوب بين أبنائه الموظفين في قسم شركات مصر بالمعرض الزراعي الصناعي لسنة ١٩٣٦

إنه يتشدد مع الذين يعملون معه فى سبيل المجموع أحياناً ، لكنه يرعى كرامتهم أمام المجموع دائماً ؛ وهو فى كلتا الحالتين حريص على الذوق لا يحيد عنه . وأنت ما زلت تذكر مما ذكرنا لك فى أوائل فصولنا كيف جعل أحد أصدقائه الباشوات الذين أصلح لهم دوائر أعمالهم فى أوائل حلقات حياته العملية ، كيف علّم صاحبه الحساب والتدبير عن غير طريق التعليم والارشاد ، بأن طلب إليه فقط أن يدون ما ينفق ؛ فخجل صاحبه الغنى مما ينفق ، وتدبر فيما ينفق [1]

إدارة حكيمة تساعد على ما أخذته من الصورة الناجحة فى أذهان الجميع ميزاته الشخصية التى يتعمد المدير إظهار رجاله عليها فتكوّن فيهم ، باقتدائهم إياه ، صورة منه . فهو ليس من أولئك المديرين المتصرفين الذين يستغلون امتيازات إدارتهم ، بل إنه دائماً يخلى إدارته من النفقات التى تتصل بشئونه ولو كانت هذه النفقات فى سبيل الادارة العامة ... هو دائماً يستعمل فى روحاته وجيئاته سيارته الخاصة ، ومع هذا فهو متنازل دائماً عن (بدل السفر) فى جميع المهام التى يروح فيها ويغدو من أجل البنك والشركات !

لقد أصبح هذا التصرف المثالى النبيل من جانب طلعت حرب عادة من العادات التى تكوّن شخصيته . وقد كشف الزمن عن هذه العادة الرفيعة من شخصيته حين اختير لعضوية البعثة الاقتصادية المصرية التى أوفدتها حكومة مصر إلى انجلترا تبادلا منها مع الدولة الانجليزية للوفود الاقتصادية الرسمية — إذ نزل طلعت عن أجره وتكاليف سفره ، علماً منه أنه إنما ذهب ليمثل الجانب الوطنى فى البعثة . . . وكان هو المتفرد بهذا التصرف

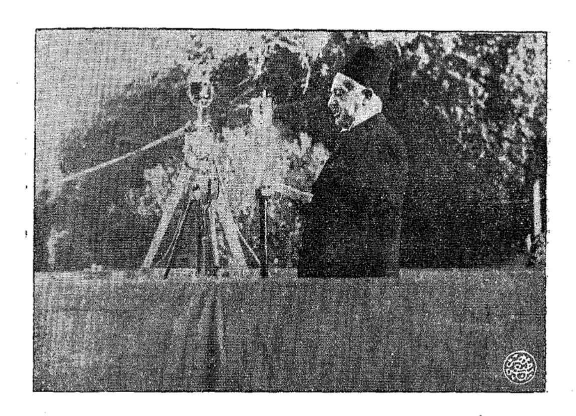
* * *

شخصية إن جهل الناس قوتها عن بعد ، فهم يحبونها عن قرب ؛ وإن قل إدراكهم لقوتها عن قرب ، فهم يقدرونها عن بعد . . . وكذلك الناس فى كل زمان ومكان يختلفون فى شخصية العظيم

---

(١) راجع ص ٣٤

الخطيب



« أيها السادة

صونوا على كر الغـــداة . ومر العشى هذا الـكهف الأمين ، وهذا الحصن الحصين »

☆ ☆ ☆

هناك فارق فنى بين وقوف الرجـل فى حفل من المحـافل ليلقى كلمـــة « مناسبة للمقام » كما يقولون ، وبين اعتباره خطيباً يكيف الموقف الذى يقفه التكييف الحق الذى ينقل به خواطره وإيمانه إلى نفوس السامعين . . . وأنت تقرأ الخطب لهذا وهذا فترى الفارق واضحاً بين اللهجتين . . . والعبارة التى قدمنا بها هذا الفصل إليك هى عبارة تلمح فيها لأول وهلة إيحاء الخطيب

كان طلعت حرب حين قال هذه العبارة يخطب فى حفلة الغرفة التجارية بالأسكندرية، وكان اليوم من أيام مايو سنة ١٩٣٥ والصيف على الأبواب ، والناس شاخصة نفوسهم إلى مسرات الصيف . فليس بديعاً من الخطيب الذى يتحدث عن بنك مصر فى سنة ١٩٣٥ أن يكثر من منطق الأرقام والأموال . . . وطلعت حرب الذى قال هذه العبارة الايحائية وقال معها « لا نظن أنكم حين تكبرون هذا البنك تكبرون فيه قوة المال وحدها . ولا حين تنظرون إليه تنظرون إلى خازن أمين يحفظ الثروة المادية وحدها ، ولكنكم أكبر الظن تكبرون فى بنك مصر أيضاً معنى الكرامة والعزة والرجاء ، وتنظرون إليه نظرة الأمل والوفاء » . . طلعت حرب هذا قد برهن على أنه خطيب

لئن لم تكن الخطابة جزءاً من هذه الشخصية العظيمة التى تتكون من نفسية كبيرة ، وذهنية واسعة ، وآثار عملية خالدة، لما خسر طلعت شيئاً بصفته ممولا ومديراً ، ومنشئاً عملياً كبيراً ؛ لكنه كان يفقد أقوى صلة بينه وبين المجتمع

لقد كانت الخطابة دائماً عدة القادة والزعماء . فما من زعامة وما من قيادة إلا والخطابة جزء منها . . وعليك أن تتصور عمر بن الخطاب أو سعد زغلول أو نابليون غير خطباء ، ثم تتصور بعدئذ التاريخ الذى لعب فيه كل منهم دوراً . . . ولقد لعبت الخطابة دورها السحرى فى حياة الشرق بكل ناحية من نواحى المجتمع إلا ناحية واحدة ، هى ناحية المال — إلى أن جاءها طلعت ، فأخذها إليه وأصبح بين المموِّلين « الخطيب » الذى ليس بعده خطيب

لهذا نرى أن طلعت قد أضاف إلى « الخطابة » شأناً من شئون عظمتها ، إذ برهن على أن هذه الخطابة التى تغير مجرى العقائد فى الدين والسياسة والعلم . هى قادرة أيضاً على أن تغير مجرى الحياة فى الصناعة والتجارة والاقتصاد .

وليس شك أن هذا الشأن الجديد الذى أضافه طلعت إلى عظمة الخطابة يضيف شأناً آخر إلى عظمته فى شخصه

هذه قضية من القضايا الثقافية ليس ينبغى أن يغمض عنها الباحثون عيونهم . فكثير من الناس يظنون أن الخطابة شيء يقطع به الناس الوقت فى الحفلات والاجتماعات . لكن التجربة الطلعتية فى الخطابة تعطينا عكس هذا الظن تماماً . فلولم تكن الخطب — الجديرة بهذا الاسم — ذات أثر فعال فى الانتاج لما عمد إليها ، واستعان بها أكبر منتج فى الشرق الأدنى

الناس يحبون المال حباً جماً . لكنهم، على الرغم من هذا الحب الذى يرتقى درجات العبادة أحياناً ، لامناص لهم من الروحية الطبيعية فيهم، التى تستهويهم إلى المجد والمعانى السامية كلها . و« الخطيب » طلعت حرب لم تفت عبقريته هذه النظرية فى تكوين الانسان ، فتراه حين وقف فى العيد الأكبر لبنك مصر يخطب فيقول :

« إن أمتنا التى عملت قديما للخلود ، وكتب لها البقاء فى سجل الأبد وتاريخ الانسانية طفل وليد — أمتنا هذه ليس كثيراً عليها أن تحفظ على مر الدهور، وتعاقب العصور، هذا البنك الذى ولد ودرج وشب فى حجر نهضتها المباركة ، لتحتفل بأعياده المختلفة عيداً بعد عيد »

أرأيت كيف تلتقى المادة بالأدب الرفيع فى خطابة طلعت ؟ ألا إنه الأديب القديم يبدو فى ثوب الاقتصادى الجديد من حين إلى حين . ولو لم يغدُ طلعت حرب بارادة من عند الله عظيما من عظماء الاقتصاد ، لكان كبيراً من رجال الأدب أو من رجال الدين . على أن استعداده الأدبى ومافيه من سمو الفكر ، واستعداده الدينى وما فيه من سمو الروح — كليهما كانا أداة هذا الخطيب الاصلاحى الذى جعل من قضية الاستقلال الاقتصادى سبباً إلى الاصلاح

انظر إليه يقول فى حفلة تكريم عبد اللطيف بك حسنين الذى كرمته

الزقازيق لمبراته وإحسانه « . . . . ولست أعرف إذا كان عبد اللطيف بك يعامل البنوك أو لا يعاملها ، ويعرف فائدة الايداع أو لا يعرفها؛ ولكنى أعرف يقيناً أنه كان أمهر من الذين يعاملون البنوك ، لأنه عامل الله سبحانه وتعالى برعاية الضعفاء والمحرومين، فكان :كلما زاد من رعايته إياهم ، زاده الله من نعمائه »[1]

ترى الأدب السليم، فى الذوق السليم، فى الدعوة إلى الاقتصاد، تتجلى فوق هذا كله سمة دينية لها روعتها وتأثيرها — ومن هذه العناصر كلها تتألف شخصية طلعت حرب الخطيب الذى تستكمل العظمة الشخصية بخطابته ناحية من أعز نواحيها

(١) كوكب الشرق في ١١ من يونية سنة ١٩٣٠

مدرسة طلعت حرب

الأستاذ — أربع حصص فى المدرسة — كلمات مأثورة من طلعت حرب — رأى التلاميذ فى أستاذهم

الأستاذ

نشأ «الأستاذ» محمد طلعت حرب أستاذاً بالفطرة والموهبة، ثم زادت الأيام أستاذيته رسوخا؛ فتعدت هذه المجموعات الصغيرة من الشباب الذين كانوا — فى شبابه — يعملون تحت رآسته، إلى هذه الجماهير الصغيرة التى كان يذيع بينها الرسائل والمقالات، ثم إلى هذه المجموعات الكبيرة التى أولاه الله رآستها، فالى هذه الجماهير الغفيرة التى أصبحت تنشد عنده القول الفصل الحكيم، ثم إلى الأمة كلها، فالى أمم أخرى تصلها بأمتنا صلات القربى!

نضجت ثقافته فى ناحيته، فاشتهاها كل طالب ثقافة؛ وصقلت التجارب رأيه، فأصبحت بعض آرائه مبادىء يعتنقها كل طالب نجاح. ومع هذا فهو يعتمد على وحى إلهامه، فكلما اعتزم أمراً عظيما من الأمور، شخص ببصيرته إلى الله؛ فان استجاب له إحساسه أقدم عليه، وإن لم يطاوعه فيه إحساسه نفر منه

على أن هذه الصفة التوكلية البارزة فى شخصية «الأستاذ»، هذه الصفة التى لا يقدرها البعيدون عن جو الجهاد بالايمان — هذه الصفة هى التى أكسبته حب تلاميذه من جانب، وأكسبته التوفيق من كل جانب؛ فأصبح ما يقول طلعت حرب عمداً أو عفواً، وما يجىء به من الأعمال عمداً أو

عفواً — هو أدنى الآراء إلى الصواب ، وأقرب الأعمال إلى النجاح ؛ حتى أصبحت آراؤه الفكرية ، ومبادئه الخلقية والعملية مذاهب اجتماعية واقتصادية يتعصب لها المتعصبون ، ويسترشد بآثارها العاملون

كثر الذين يتعصبون لمذهب طلعت فى القول والعمل ، وكثر الذين يترسمون خطاه فى العمل والجهاد ، ونبت من كثرتهم جيل جديد تفخر البلاد بانتاجه ، وأصبحت هاتان الكثرتان تؤلفان مدرسة مذهبية عملية ذات طابع طلعتى خاص

نظرة إلى بداية طلعت فى الجانب العام من حياته : إلى هذا الشاب الذى يكتب الكتب ، وينشىء الرسائل فى الاصلاح ، إلى هذا الرجل الذى يدافع بعلمه وحسابه عن حقوق بلاده ، إلى هذا المجاهد فى سبيل الاستقلال الاقتصادى للأمة ولجيران هذه الأمة ، إلى هذا العظيم الذى يجذبه الاصلاح والاحسان فى كل ميدان ، فيهرع إليه ، ويلقى فى محيط الاصلاح والاحسان بقواه جميعاً ، إلى هذا المنشىء الذى أنشأ المدينة الصناعية المحلية ، واستطاع أن يحيل أقواله أفعالا — نظرة إلى هذا الرجل فى أطوار حياته طوراً فطوراً تدلك للوهلة الأولى على أن طلعت الشاب الذى بدأ حياته العامة فى خدمة الايمان والعلم والاصلاح ليس مستبعداً أن يكون زعيم مذهب وعميد مدرسة إصلاحية فى تاريخ بلاده

غيره من كبار الرجال يقال عنهم شىء من هذا القول بعد أن يكونوا قد كبروا وكبرت أسماؤهم وصفاتهم ؛ أما طلعت الذى هيأ نفسه منذ صباه لأن يكون معلماً من معلمى الشعوب ، وأستاذاً من أساتذة المجتمع - فان إنتاجه هو الذى خلق اسمه ، وليس اسمه هو الذى صور إنتاجه فى خيال الناس . ونحن من أجل هذا نزعم أن « مدرسة طلعت حرب » مدرسة لا تتعلق باسم صاحبها ولا بشخصيته قدر ما تتعلق بانتاجه فى الفكر والارادة والعمل

إن أفكاره ومبادئه لتتسرب إلى نفوس مواطنيه فيما يتسرب إليها

من الأفكار والمبادىء منذ الجيل الماضى ، فيتأثرون بها من حيث لا يشعرون ـ شأن أصحاب المدارس الفكرية الاصلاحية فى كل زمان وفى كل مكان. وإن له فى تعليم هذه الأمة وتثقيفها منذ شبابه آراء لم تبلها عشرات السنين ، فهاهو ذا طلعت حرب يقول فى سنة ١٩٠٠ على صفحات كتابه « تربية المرأة والحجاب »[١]

« يجب أن ينظر إلى مستقبل المتعلمين ؛ وها نحن نرى الوظائف أصبحت أضيق أبواب الرزق لهم ـ فلا بد من مخرج آخر ، وهو لا يكون إلا بالترشيح للاستقلال فى العمل الحر أيا كان ، ولدينا مجال فسيح لأبنائنا العارفين ، وسجن ضيق للجاهلين . وإذا وفق الله بعض أسخياء الأمة لانشاء مدارس صناعية ، كانت لأبنائها منها حياة جديدة . ولكن النتيجة الحقيقية التى يستلزمها نجاح التعليم إنما تكون سريعة لو وجدت « إدارة معارف أهلية » تقبض على أزمة المدارس الأهلية ، وتسير بها فى طريق واحدة تضمن لها الغاية التى يطلبها الجميع . وعسى أن يأتى يوم يسمع فيه هذا النداء ، وتجاب فيه الدعوة ، وما ذلك على الله بعزيز »

يتحدث طلعت حرب عن الأعمال الحرة فى سنة ١٩٠٠ ، فيردد الشعب صدى حديثه فى سنة ١٩٢١ . وقد شاءت إرادة الله أن يكون الرجل الذى يفتح السبيل أمام الشباب عن وظائف الحكومة إلى الوظائف الحرة هو طلعت حرب !

ثم يتحدث فى سنة ١٩٠٠ عن المدارس الصناعية ، فى ذاك الحين الذى كان المتعلمون فيه لا هم يفكرون فى الصناعة ، ولا الصناعة تجذبهم إليها ؛ فيردد المصلحون صدى حديثه فى سنة ١٩٢٦ ، حين تأخذ فكرة التعليم الصناعى فى الذيوع والانتشار ، وتنال على مر السنين إقبالا بعد إقبال من جمهور المتعلمين الناشئين

---

(١) ص ٤٥

ثم يتحدث فى سنة ١٩٠٠ عن « إدارة معاهد أهلية » ، فى ذاك التاريخ الذى لم تكن فيه للمعارف فى مصر وزارة ذات شأن خطير ؛ فاذا بالحكومة تنظم نظارة المعارف تنظيما وزاريًا جديداً ، وتنشىء نظام التفتيش على المدارس الأهلية . وها نحن أولاء — بعد مرور أربع وثلاثين سنة على هذه الدعوة — نرى وزارة المعارف المصرية ، التى أصبحت من أخطر الوزارات شأناً ، تنشىء « مراقبة للتعليم الأهلي » . ومع هذا كله ، فان دعوة طلعت إلى إيجاد « إدارة معارف أهلية » ما تزال دعوة جديدة تتمشى مع أحدث المبادىء الفكرية فى العالم

ذلك أن التعليم الفنى والتعليم العالى بأنواعهما لم يصبحا اليوم من مهام الحكومات فى البلاد العظيمة بقدر ما هما من مهامّ الهيئات الشعبية الوطنية الكبرى . وسوف تظل دعوة طلعت حرب إلى إنشاء « إدارة معارف أهلية » لها هذه الجدّة إلى أن تستكمل الأمة المصرية ثقافتها ، وتكون فيها الهيئات الشعبية الكبرى ذات رءوس الأموال العظيمة تأخذ بناصية التعليم من يد الحكومة إلى يد الأمة

على أن طلعت لم يكن يوماً ما من أولئك النظريين الذين يقولون ما لا يفعلون ؛ فهو رجل صاحب مدرسة عملية تقوم برامجها على التفكير والتنفيذ معاً . . . وحتى فى الشئون التعليمية التى لم يتفرغ لها بكامل جهوده ، خطا خطوة فعّالة فى سبيل تنفيذها ، فساهم مع المساهمين فى تأسيس الجامعة المصرية « الأهلية » التى تأسست وافتتحت سنة ١٩٠٧ ، وكان طلعت حرب عضواً فيها !

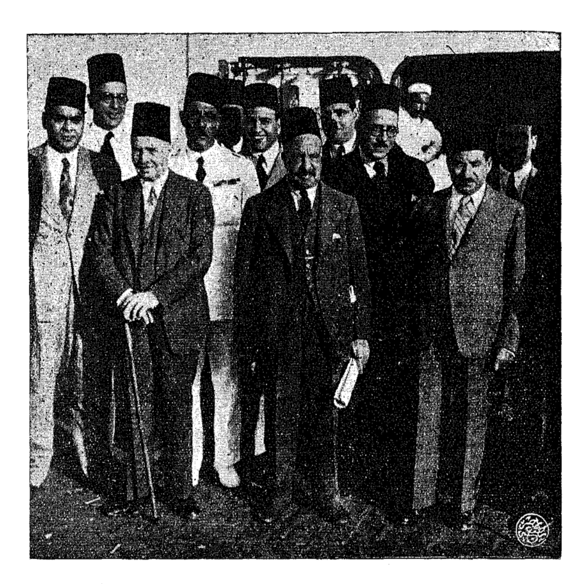
أما فى الناحية العملية من برامج المدرسة الطلعتية ، فحسبنا أن نسأل عنها أى مصرى حتى يشير إلى معهد الاستقلال الاقتصادى من هذه المدرسة — إلى بنك مصر وشركاته المتتابعة . . . وطلعت حرب نفسه قد تحدث عن مدرسته هذه إلى أبناء الشام فى حفلة افتتاح فرع من فروعها « بنك مصر —

سوريا — لبنان ، يوم ٣١ أكتوبر سنة ١٩٣٠ ، فقال :

« ..... فاننا فى مصر لم نتعاون على إنشاء « بنك مصر » لمجرد تداوله أعمال البنوك ، بل أنشأنا مدرسة عملية لتدريب المصريين على الأعمال المالية ، وتشويقهم إلى مختلف الأعمال الاقتصادية ؛ حتى تتفرع عن المدرسة مدارس ، وعن العمل الواحد أعمال . ونحن فى هذا كله لا نعمل لتحقيق غاية شخصية ، حتى ولا نعمل لتحقيق مصلحة المساهمين فى ذاتهـا إلا باعتبارها منسجمة ومتناسقة ومسايرة للخير العام — أى لصالح البلاد .... و « بنك مصر — سوريا — لبنـان » مدرسة أخرى أريد بانشائها تعويد أبناء هذه البلاد على مزاولة الأعمال المالية بنظام ودقة وإتقان »

الواقع أن مدرسة طلعت حرب تغـدو جامعة ذات كليات ومعاهد . ولقـد أنتجت هذه المدرسـة من الأعمال ما لم تنتجه مدرسـة عملية فى الشرق كله ؛ وولّدت هذه المدرسة فى نفوس الشباب من الآمال ما يحفزهم إلى شق الطرق الجديدة فى العمل ، وتدبير المشروعات الجديدة فى الخيال ؛ وأخرجت هذه المدرسة من الرجال نوابغ جداً يعتمد على جهودهم الجيل العملى الجديد ، وتنظر إليهم الأجيال المقبلة نظرتها إلى المثل الصالحة

لـكن مدرسـة طلعت حرب ما كانت لتتكون هـذا التكوين العظيم كله ما لم يكن قد آمن بمبادئها ، وروّج لبرامجها ، واشترك فى أداء رسالتها ، وعاون على تحقيق فـكرتها رجال كبراء لهم قوتهم ومكانتهم ، فى أنفسهم ، وفى أموالهم ، وفى بلادهم . وإذا كانت كثرة أولئك الرجال تحول بيننـا وبين أن نحصيهم ، فان هناك رجلين كريمين قد تأبط كل منهما ذراعاً من ذراعى طلعت فى جهاده ، وهما ولا شك : مدحت يكن باشا ، والدكتور فؤاد سلطان . وأنت تلمح أثرهما فى المدرسة الطلعتية فى انتخاب الأول رئيساً دائماً فى مجلس إدارات بنك مصر وشركاته جميعاً ، وفى انتخاب الثانى عضواً منتدباً دائماً مع طلعت حرب باشا فى مجالس إدارات بنك مصر وشركاته جميعاً



المدرســة الطلعتية

مدحت يكن باشا . طلعت حرب باشا . فؤاد سلطان بك

يقولون إن هذه المدرسة الطلعتية يستحق منشئها تمثالا من الذهب ؛ لكننا نخشى أن نجعل من هذا الاستحقاق اقتراحاً ، فنكون قد انحرفنا عن مبادىء المدرسة الاقتصادية التى أسسها طلعت نفسه . فنأمل ونؤكد أن الجيل الجديد سوف يخلد اسم هذه المدرسة بتأسيس كلية جامعية للعلوم الاقتصادية ، تحمل اسم هذه المدرسة : « مدرسة طلعت حرب »

أربع حصص فى المدرسة

تتألف مدرسة طلعت حرب من أفكار ورجال وأعمال ؛ فالفكر هو الذى يكوّن الرجال ، ويخلق الأعمال . ولولم يكن طلعت مفكراً عظيما ، لما كان منتجاً عظيماً . ولقد غمرت آثار طلعت العمليـة أذهان الناس ، فشغلتهم عن آثاره الفكرية . ولو راجع الباحثون نظرياته الفكرية لوقفوا منها على عقلية جديرة بهذا الانتاج العملى فى الحياة

اشتغلت ذهنيته بالتربية الفردية ، ثم بالتربية الاجتماعية ، ثم بالتربيـة الاستقلالية فى الاقتصاد ، ثم بالارشاد العـام ـ وهذه الأوضاع فى اشـتغاله الذهنى تدل على أن له ذهنية مرتبة ترتيباً تدريجياً سليما . . . وهانحن أولاء هنا نقـدم لقرائنا دروساً بليغة موجزة ، تمثل تطور عقلية طلعت من رجل يعنى بتـكوين الفرد ، ثم باسعاد الجماعة ، ثم بثروة الأمة . فاذا ما أصبحت يداه نبعا للثروة ، وأضحت حيـاته بركة للبلاد ، انتهى إلى تقـديم أصدق التجارب فى حديثه إلى الشباب ليـكونوا القوة الصالحة لمستقبل الوطن

١ — فى التربية والتعليم

التربيـة الصحيحة : عرف بعضهم التربيـة بأنهـا تنمية أعضاء المولود الحسّية ، من ابتداء ولادته إلى بلوغه حـد الـكبر ؛ وتنمية روحه بالمعـارف الدينية والمعاشية . فبهذا انقسمت التربية قسمين : حسّية ، وهى تربية الجسد ؛ ومعنوية ، وهى تربية الروح . ومع ذلك فان لتغـذية الطفل ثلاثة أنواع من الغذاء مختلفة الموضوع : الأولى ، تغذية المراضع للأطفال بالألبان ؛ الثانية ، تغذيتهم بارشاد المرشد بتأديبه الأوّلى للأطفال ، وتهذيب أخلاقهم ، وتعويدهم

على التطبع بالطباع الحميدة والآداب والأخلاق الفاضلة : الثالثة ، تغذية عقولهم بتعليم المعارف والكمالات ـ وهذه وظيفة الأستاذ المربى؛ كما أن ماقبلها وظيفة المرشد المتولى أمر الصبى . فالنسبة بين الرضاع ، والتربية الأولية ، والتربية الانتهائية ـ كالنسبة بين المرضع ، والمربى ، والمرشد ، والأستاذ : فكلما أجاد المربى جادت التربية

[تربية المرأة والحجاب — ص ٤٧]

* * *

تعلموا وعلموا الحساب : فهو كل المطلوب . فمعظم أسباب فشل كثير من مشروعاتنا ، وإفلاس كثير من تجارنا — الطمع وعدم الحساب أولا ، وخرم الحساب يوم الحساب . فعليكم بالحساب ؛ فمن حسب كسب . انظروا إلى مبادىء الاسلام ، تجدوها تحث على تعلم الحساب : ففى أصل الزكاة وما يتفرع منه من تبين أنواع الأموال وما حال عليها الحول منها ، ومقدار النصاب الواجب على كل نوع منها ، وفرضه على الزائد من المال بعد حجز ما على المالك من دين ونفقة العام المقبل ـ أمر يوجب عمل ميزانية بما للشخص وما عليه نوعاً نوعاً ، لاستخلاص رأس المال الصافى موضحة أبوابه وأنواعه . وعمل ميزانية لمصروفات السنة المقبلة . ولعمرى ما علم المحاسبة غير ذلك

[من خطبة له فى حفلة الغرفة التجارية ببنى سويف يوم ١١ سبتمبر سنة ١٩٢٦]

٢ ـ فى الأخلاق والاجتماع

أصبحنا متفانين فى استهلاك شرفنا وثروتنا وجسمنا وعقليتنا ؛ وكل فرد منا يشكو لأخيه تقهقره وسوء حاله ، ويلقى تبعة ذلك على غيره ، ولا يدرى أنه أول الناس فى إهمال واجبه الأقدس ! ! وكثيراً ما ترى المتنوّر منا يصف لك العلاج الشافى وصفاً جيداً ، ولكنه لايجربه لنفسه

[ص ٣٨ — تربية المرأة والحجاب]

* * *

إننا لم نقل قط بعدم تغيير عادة يقوم الدليل على بطلانها وعدم صلاحيتها ؛ كما أننا لم نقل ، ولن نقول ، أن كل عادات الفرنج باطلة ، أو أنه لا يلزم الأخذ بما يوجد نافعاً منها ؛ بل قلنا ونقول أنه يجب أن نتخير أحسن العادات وأنفعها وأكثرها ملاءمة لنا ولديننا ولبلادنا . وما نختاره منها يجب حثّ الأمة على الأخذ به واتباعه — لا فرق فى ذلك بين ما نتخيره من عاداتنا وما نأخذه من عادات غيرنا »

[ص٤٧ — فصل الخطاب فى المرأة والحجاب]

* * *

قد يعترض علينا عالم جنائى ، فيقول : أنتم تخطئون لأنه حيث يوجد التوازن الاقتصادى يوجد الرخاء ؛ وحيث يوجد الرخاء تزيد الشهوات ، فتزيد الجرائم . — وجوابنا أن هذا صحيح فى الأوساط التى انتزعت من قلوبها الرحمة ؛ فقامت البيئة الاجتماعية على الجشع والاستئثار بالرخاء فى طبقة ، والذل والاستعباد فى طبقة أخرى . أما فى مصر — والرحمة قائمة فى القلوب ، ومبادىء الدين الاسلامى تحضّ على التضامن والمؤاخاة والعطف والاحسان — فان الرخاء الناشىء عن التوازن قائم وسط بيئة أخلاقية رحيمة تؤاخى بين الناس ولا تثير العداء ، فيقلّ فيها الاجرام ولا يزيد

[من خطابه فى افتتاح فرع بنك مصر بالمحلة الكبرى فى ١٤ سبتمبر سنة ١٩٢٤]

٣ — فى الاقتصاد الوطنى

نحن ، فى هذه الدار وفى التى قبلها ، لا نستغلّ المال حباً فيه ؛ فاننا لسنا من عباده أو ممن يتعلقون بنواصيه ؛ إنما نحن نعرف أن المال قوة فى هذا العالم ؛

وأنه كما يكون قوة للشر فى أيدى الأشرار، يكون قوة للخير فى أيدى الأخيار

[من خطابه في حفلة افتتاح دار بنك مصر الحديثة يوم ٥ يونيه سنة ١٩٢٧]

* * *

نقصُ إيراد البلاد بمثل هـذا المقدار من شأنه أن يؤدى حتما إلى حرمان المزارعين من المال اللازم لتمكينهم بسهولة من دفع ما عليهم من ديون وضرائب، ومن القيام بنفقات الزراعة وتكاليف الحياة العائلية. كما يؤدى إلى ضعف عام فى قوة المعاملات، وتقليل من مجموع حركاتها فى مختلف وجوه الحياة الاقتصادية. وبعبارة أخرى، إلى ضعف قوة الشراء فى البلاد، خصوصاً وأن أربعة أخماس السكان من المزارعين، أى المصابين مباشرة بأضرار الهبوط فى أسعار القطن؛ وهم كغيرهم إذا نقصت مواردهم، قلت بمقدار نقصها قدرتهم على الشراء. ومتى قلت قوة الشراء من جانب هذا المجموع الهائل من السكان، زادت التجارة المحلية تأثراً بالكساد الذى تتعثر فى أذياله منذ شهور، وقلّ استيراد البضائع، ونقصت إيرادات الجمارك تبعاً لقلة الاستيراد، ونقصت بالتالى لهذا ولغيره من أسباب الكساد العام موارد الخزانة العامة. لهذا كان الهبوط فى أسعار القطن وما يحتمل أن يترتب عليه من نتائج خطيرة، مسألة عامة مهمة — لا تعنى المزارعين وحدهم، بل تعنى طبقات الأمة كلها، وتعنى الحكومة على السواء

[من خطابه فى أسيوط لمناسبة افتتاح فرع بنك مصر بها فى ٦ أكتوبر سنة ١٩٣٠)

***

الكمالى من المصروف هو أول أنواع النفقات التى يتحتم على كل فرد منا أن يحاربه حرباً عنيفة. ولنتشدد غاية التشدد فى تقدير ما هو كمالى، وما هو ضرورى؛ فقد تساهلنا كثيراً فى هـذا، واعتبرنا كثيراً من

الكماليات ضروريات . ولنتشدد فى نفس الضروريات ، فنقدم الأهم منها على المهم تبعاً لقدرة الفرد

[من نفس الخطاب السابق]

* * *

إحساس المنفعة الذاتية إحساس طبيعى آخر ، لا يمكن نكرانه ، ولا يصح إغفاله بأى حال من الأحوال . وهو يقضى على أرباب الصناعات المصرية ألا يعتمدوا على إحساس الوطنية وحده ، حتى يستعيض المصريون عن المصنوعات الأجنبية بمصنوعاتهم ، ويقللوا ما استطاعوا من تكاليفها ، حتى يستطيعوا أن يصنعوا مثل ما يرد من الخارج أو أحسن منه بسعر مماثل له أو أقل منه

[من حديث له بجريدة المساء فى ٧ مارس سنة ١٩٣١]

* * *

إذا قدرت قيمة الأراضى المصرية الزراعية ب ٦٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه مصرى (حسب تقدير عام ١٩٢٨) ، فان مقدار ما كان عليها من الرهون فى سنة ١٩٣٠ (بما فى ذلك القروض على المنازل) قد بلغ ٣٢٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه مصرى ، ومبلغ ١٦٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه مصرى من الرهنيات المتجمعة التى سدت منذ الحرب . ويبلغ ديننا اليوم على الأراضى والمنازل نحو ٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه ؛ وهو دين لا يعد كبيراً إذا راعينا ارتفاع مجموع قيمة أراضينا

[من مقال عن الحالة المالية فى مصر بجريدة الفينانشيال تيمز فى ٧ نوفمبر سنه ١٩٣١]

٤ — إلى الشباب

أيها الشباب ، شباب مصر الناهض :

إن صدقى[١] مثل للرجولة جدير أن تحذوه . وما الرجولة إلا بالاعتماد

(١) الطيار محمد صدقى

على النفس ، ومغالبة الصعاب ، واقتحام الأخطار ، والفوز بالغايات النبيلة

وأشرف الغايات وأنبلها قصداً ما بنيت على الايثار ، ونكران الذات ، وتقديم النفع العام على النفع الخاص ، والتذرع بالكفاية وحسن التدبير والصبر الجميل فى تشييد العوامل الفعالة فى ترقية المجموع ورفعة الوطن

[من كلمة له بحفلة تكريم الطيار صدقى
٣٠ يناير سنة ١٩٣٠]

* * *

نعم إنه يكون من الشاق على الطالب الأجنبى فى هذه المدينة الهائجة المملوءة بدواعى اللهو والمسرات أن يضغط على شبابه، ويقاوم فى هذا الوسط الجذاب أسباب الخلاعة المحيطة به . وإنى لا أستطيع أن أقسو على الشباب فأتجاهل طبيعته ، أو أنكر حقه فى اللهو وانشراح النفس والحبور : ولكن هناك لهو ـ كما يقول أهل هذه البلاد ـ ولهو . هناك لهو مصحوب باحترام النفس ، والقدرة على ضبطها . والحذر من ابتذال الكرامة ، والحرص من الوقوع فى أى سبب من أسباب المكروه الأدبية أو الخلقية أو الصحية : وهناك لهو آخر ينحدر به الانسان إلى بخس النفس قدرها ، بالضعف عن كبح جماحها ؛ وإلى تضييع الكرامة والتخبط فى ظلمات مكروه . وبين هذا اللهو وذاك فرق شاسع . على أن للهو البرىء ساعة ، وللجد فى تحصيل العلوم ساعات . والعاقل الفائز من عرف كيف يعتدل فى حياته : فلا تفريط فى الجد ، ولا إفراط فى اللهو »

[من خطابه بباريس فى حفلة الطلبة المصريين
لتكريمه فى ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٢٥]

* * *

نريد إذن عقلية مصرية متشابهة فى سموها مع أسمى الأمم ثقافة ؛ ونريدها عقلية مصرية مستقلة ، عقلية هى وليدة ماضينا الذى لا مفر عن الخروج من تأثيره فينا ، ووليدة حاضرنا الذى نسعى إلى أن نربطه بماضينا ، كما

نسعى أن نقوده ونسيره إلى مستقبل حسن . والمستقبل وإن يكن بيد الله، إلا أنه إلى درجة ما بيد القوم ؛ «ولا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»

[من نفس الخطاب السابق]

* * *

إنه من الخير ، بل هو الخير كله ، لو يستطيع الشباب أن يتغلب — ما وسعه الجهد — على غلوّ الشباب وزهو الشباب ؛ فان أكبر أسباب الفشل راجع إلى الغلو والزهو ، وإلى ظن الشباب وزعمه أنه قادر على كل عمل ، وإلى الاغارة على اختصاص غيره ، وتجاهل قدره . كما يرجع كذلك إلى استنكافه وخجله وترفعه عن مزاولة الصغير أو الحقير من الأعمال ، وإن كان شريفاً

[من خطابه في العراق في أبريل سنة ١٩٣٦]

* * *

إن الشباب وحده ليس مسئولا عن وديعة الأوطان ، ولكن الكهول والشيوخ مسئولون عن التوجيه الصحيح ، والقدوة الحسنة ، والخطة السليمة ، والمثل العليا التى يستوحيها الشباب من تجارب الذين سبقوه والذين فتحوا له باب الحياة

[من نفس خطبته فى العراق، في أبريل سنة ١٩٣٦]

كلمـــات مأثورة

من طلعت حرب

الحديث إلى الشباب يحفز الهمم ، ويجدد العزائم ، ويحبب الحياة إلى أهل الحياة

* * *

الحرية التى تقتل العصمة شر من الحجاب

* * *

لتكن لنا قوة من العلم وقوة من المال

* * *

الاحسان المنظم أعظم مفخرة يمكن أن يصل إليها مجتمع بشرى . وخير الاحسان المنظم ما قام به المجموع كواجب عامّ ، مع بقاء الباب مفتوحاً لجهود الجماعات والأفراد

* * *

كيف ينال السعادة من خصّ نفسه بالمحبة ، ولم يجعل لأخيه قدر حبه ؟ !

* * *

الحظ فى الرياضة ، وفى الأعمال ، وفى الحياة ، عامل مهم من عوامل النجاح

* * *

من حسب كسب

رأى التلاميذ فى أستاذهم

ذات مرة ، قررت إدارة الجامعة المصرية أن تنتظم دراسة الطلبة فى يوم معين ، سنسميه يوم الخميس ؛ وقررت جموع الطلبة الثائرة ألا تنتظم دراستهم إلا فى يوم معين آخر ، سنسميه يوم السبت . وسأل أحد الأساتذة عميد إحدى الكليات : « متى تبدأ الدراسة فعلا » ، فأجاب من فوره : « يوم السبت طبعاً ! »

التلاميذ فى المدارس هم أخطر العناصر : ويبدو خطرهم واضحاً فى الجامعات الأوربية الحرة ، حيث لا تستطيع الجامعة أن تنصب فى كرسى الأستاذية أستاذاً يعلم الطلبة ، وهم غير راضين عنه تماماً . وفى كل مدرسة ، وفى كل زمان ومكان ، يوجد الأساتذة الذين يعجب بهم التلاميذ ، فيتأثرون بآثارهم ؛ والأساتذة الذين لا يعجب التلاميذ بهم ، فلا يكون لهم أثر فى نفوسهم ، بل لا يعتبر الطلبة أنفسهم تلاميذ لأولئك الأساتذة !

فاذا نقلنا هذه الأوضاع النفسية الاجتماعية من المدارس التعليمية النظامية إلى المدارس الفكرية الايحائية ، لوجدنا أن صاحب المدرسة الطلعتية هو أحد الزعماء القلائل الذين تسلم كل منهم زمام ركن من أركان نفسية الشباب المصرى . ويزيد فى تقدير التلاميذ لطلعت الأستاذ ، أنه ما شغلهم بنفسه وشخصيته عن عمله وإنتاجه ؛ فهو دائماً يتكلم باسم العمل ، وباسم شركائه فى العمل : لا يبخس من أحد شيئاً ، ولا يبخس فى شىء أحدا ؛ بل لقد استطاع أن يضبط أهواء نفسه ، وأن يظهر — حتى بعد هذا كله الذى أدركه وحصله — مظهر الزاهد فى صفات الزعامة والادارة كلها . وهو الذى قال وكرر فى حفلة افتتاح بنك مصر سنة ١٩٢٠ ، وفى حفلة عيده الأكبر سنة ١٩٣٥

« . . . إننا على استعداد دائماً للتخلى عن العضوية والادارة لكل مصرى كفء يتقدم لحمل الأمانة ، مع حسن النية فى كل عمل يأتيه »

هذا كله ، وما إلى هذا كله ، هو الذى ارتفع بنسبة تقدير تلاميذ طلعت لأستاذهم . . . ومن هم تلاميذ طلعت ؟ . . . هم قادة الشباب فى كل ميدان من ميادين الانتاج ، بل هم أساتذة الأجيال الناشئة فى ساحة التربية الاستقلالية الحقة . . وما هذا الكتاب إلا هدية وهدى للجيل الجديد ، وآية تقدير من ثلاثة تلاميذ فى المدرسة الطلعتية لأستاذهم

لقد أخرجنا هذا الكتاب فى شهور ، لكن الفكرة التقديرية التى دفعتنا إليه كانت تتولد وتختمر فى خواطرنا منذ سنين ، لهذا فقد جعلنا خاتمة كتابنا ثلاث مقالات لثلاثتنا :

الأولى : محمد طلعت حرب — لحافظ محمود

الثانية : محمد طلعت حرب الفنان — لمصطفى كامل الفلكى

الثالثة : فى أثر طلعت حرب — لمحمود فتحى عمر

فهذه المقالات الثلاث — التى نشرت أولاها فى منتصف سنة ١٩٣١ ، ونشرت ثانيتها فى أوائل سنة ١٩٣٦ ، وقيلت ثالثتها فى أوائل سنة ١٩٣٤ — هى النماذج المحبوبة من رأى التلاميذ فى أستاذهم

* * *

محمد طلعت حرب

بقلم الأستاذ حافظ محمود [1]

ليس ضرورياً أن تقابل طلعت حرب باشا لتشبع نفسك من مطالعة وجه هذا العقل الجبار الذى استطاع أن يحتفظ لوجه الكرامة المصرية بالحياة. فأنت تستطيع أن تقف فى شارع عماد الدين ، أمام هذا البناء الشامخ الذى يعرفه المصريون جميعاً ، فتشهد فى تقاسيمه الفسيحة وجه طلعت حرب . وأنت تستطيع أن تدخل ساحة هذا البنك الذى يعرفه المصريون جميعاً ، وترى الحركة العظيمة القائمة ، فتحس هناك بنشاط قلب طلعت حرب . ثم أنت تستطيع أن تراجع أى حساب فى أية شركة من الشركات التى خلقها بنك مصر ، وحين تأخذك فيه الدقة المخلصة ، تدرك من تلقاء نفسك شيئاً من تفكير طلعت حرب . . . .

لست أعرف الألفاظ التى يغدقها الناس عادة على أمثال المنقذ الاقتصادى الكبير ، لكننى أعرف جيداً من معانى هذه الألفاظ ما ليس أقلّ من أننى الآن أتحدث عن رجل لا شبيه له فى التاريخ الحديث لنصف العالم الشرقى . ولست أعرف الأدوار التى تقلب فيها بالذات ، فكنت أستطيع أن أترجم له ترجمة تاريخية وافية ؛ لكننى أعرف جيداً أنه نشأ رجلا ، وعاش ، وسيعيش طول حياته يحمل فى تاريخ هذه الحياة نموذجاً من الرجولة الممتازة التى هى فى حياة الأمم نبع سعادة ورخاء

بدأ حياته العامة أديباً، أو كأنه كان أديباً ؛ وفى هذه التقدمة عزاء لأدباء مصر أن يكونوا فى مستقبل حياتهم هكذا منتجين . على أنه كان هذا الأديب

(١) المجلة الجديدة ، عدد يونيو سنة ١٩٣١ ص (٩١٥—٩١٩)

الذى يتمثل له مثلا عالياً ينشده ويسعى إليه بقلمه وقلبه وجهوده جميعاً . وأنت حين تذكر أن المثل العليا للعقول العظيمة كانت كلها مثلا غايتها سعادة الانسانية فى أى شكل من أشكال السعادة ، ورخاء المجتمع فى أية صورة من صور الرخاء — تستطيع أن تعرف من غير تمهيد، ومن غير مقدمات مسهبة ، كيف اتجه طلعت حرب فى حياة مصر هذا المتجه الذهبى الخالد

كان يعالج بقلمه فى المجتمع المصرى علله التى لا يزال الكتاب صارفين حياتهم وجهودهم فى علاجها ، لكنه كان يعالج العلل الاجتماعية فى أسلوبه الأدبى على طريقة العالم المنقب ، حتى هداه التنقيب إلى الاكتشاف العظيم ، وهذا الاكتشاف — أو المكتشف كما يقولون — هو حاجة الأمة إلى بنك وطنى خالص، يغذى حاجة المجتمع المصرى من ألوان الحياة الاقتصادية . وكأن هذا الاكتشاف كان عند المنقذ الاقتصادى الكبير وحياً يحسه ولا يكاد يدرك كنهه تماماً . فبدأ يدعو إلى إنقاذ الفلاح المصرى من إرهاق البنوك الأجنبية وعسفها ، ثم أخذ ينادى باجماع كلمة المصريين ، ذوى الأموال منهم ، على أى مشروع ينهض برغبة هذا الفلاح المسكين من غير عسف ولا إرهاق . حتى إذا ما كان المؤتمر المصرى الذى عقد سنة ١٩١١ ، ورأى طلعت حرب أن الأفكار تهيأت لقبول مقترح جديد ، نادى بانشاء « بنك المصريين » . وكانت هى الصيحة الأولى فى تاريخ « بنك مصر » العظيم ، وما لبث أن ردد هذه الصيحة العظيمة فى رسالته الخالدة التى وضعها تحت عنوان « علاج مصر الاقتصادى وإنشاء بنك للمصريين »

* * *

« إن مطالبنا متواضعة ، فنحن نريد أن نعيش مع الآخرين كما يعيش الآخرون » . — هذه الكلمة من كلمات طلعت حرب قالها منذ ثمانى عشرة سنة تقريباً . وهى كلمة تحمل فى تضاعيفها الغاية التى تمثلها هذا الرجل من زمن غير قريب ، وتعطينا صورة من هذه النفسية التى تثور فى هدوء رائع . ومع

أن هذه الكلمة البسيطة قد لا تصلح عنواناً لمبدأ من المبادىء المحدودة : ومع أنها قد تكون من أكثر الكلمات تسرباً إلى معان كثيرة مختلفة ، إلا أنها تدل دلاله قوية على أن « طلعت حرب » قبل أن يكون عمدة بنك مصر ومدير بنك مصر — قبل أن يكون لهذا البنك قوام فى الوجود — كان ذا قلب اتسع لآمال أمة ؛ وأخذ هذا القلب الكبير يصور هذه الآمال صوراً متشاكلة ؛ وهو مازال بهذه الصور يتعهدها منطقه بعالى التهذيب يوماً بعد يوم ، وسنة بعد سنة ، حتى خرجت منها هذه الصورة الحية التى نستطيع أن نشهدها كل يوم فى البنك المصرى الخالد الذى يمثل الناحية الذهبية فى حياة الوطن

« بنك مصر » و « طلعت حرب » اسمان أصبح كل منهما يدل على الثانى دلالة قوية واضحة . ومع ما فى هذه الدلالة من مجد وفخار لطلعت حرب ، فأنا أعتقد أن فيها شيئاً من الغبن أكثر من قليل . ذلك أن طلعت حرب شيء أكبر من أن يكون عمدة أو مدير بنك مصر فحسب . ولو أن بنك مصر لم يبعث فى الحياة المصرية فى هذا العهد كمأثرة خالدة من مآثر الجيل الحاضر ، لما عاش هذا الرجل مغموراً فى يوم من الأيام . وما طلعت حرب إلا قوة فى الذخائر المعنوية للوطن، من هذه القوى التى يوجهها القدر أى اتجاه يشاء ، لكنها فى أى متجه تكون لابد أن تثمر، وأن تملأ الدنيا فيما حولها من الوجود خيراً وبركات

إننى أكتب هذا الذى أقول فى لهجة غير اللهجة التى اعتاد أن يصوغها الذين يكتبون حول كل من عظم اسمه واشتهر . فأنا إنما أكتب هذا الذى أقوله لأننى أعتقد أنه الحق المحدود الذى لا نقص فيه ولا زيادة أيضاً

فطلعت حرب رجل من الرجال الذين تهمهم الحياة بجلائل الهموم : رجل لا تتحرك نفسه بآمال فرد ، ولا يفكر إلا بخواطر عدة أفراد — إنما يهتم الاهتمام كله بحاجات أمة كاملة . وسواء هيأته المقادير لأن يخطو بهذه الرغبات خطوات التحقيق عن طريق بنك أو شركة ما ، تجارية أو صناعية ؛

فهو ، قبل هذا كله ، وبعد هذا كله ، الرجل الذى تتسرب حياته الخاصة فى نواحى الحياة العامة كلها، لتكون ينبوع ثروة معنوية حيناً ، وثروة مادية حيناً . وأنت تستطيع أن تتبين هذه الناحية من طلعت حرب حين تقرأ له هذه الكلمات التى قالها فى حفلة تكريم سعد زغلول :

« لئن كنا غير أكفاء لحكومة بلادنا ، فان المهيمنين على أمورنا وشئوننا أظهروا بتصرفاتهم أنهم أقل منا بكثير ، لأنهم لم ينجحوا فى أن يذهبوا عنا تهمة عدم الكفاءة التى هم أول من رمونا بها ... أمامكم أمم العالم : فهل رأيتم أمة من بينها تترك للصدفة حبلها على غاربها فى شئونها الاقتصادية ، لا رأى لها فى الذبّ عن مصالحها ؛ وتترك طعمة للآكلين ، ومضغة لكل ماضغ ؟ أين الغرف التجارية التى أسسوها أو ساعدوها ؟ أين النقابات الزراعية والصناعية التى نظموها ؟ أين البنوك والشركات المصرية التى عملوا على إيجادها ؟ أين التشريع الذى يبقى للمصريين ويحمى مصنوعاتهم ومحاصيلهم ؟ . . تركوا المصريين عزلا من كل سلاح بين منافسين ومزاحمين مدججين بأحسن طراز من الأسلحة الحديثة : وبعد ذلك يعتبروننا لا نصلح لشىء لأننا لم نعمل شيئاً ! وهم هم الذين لم يؤهلونا للعمل ؛ بل أفسدت السياسة ما كان صالحاً لدينا ؛ فلم يشجعوا شيئاً من الصناعة الوطنية ؛ بل لعلهم وقفوا فى طريقها وقفة المدافع عن مصنوعات الخارج »

منطق فى السياسة التى أذلت المعنوية بمصر فيما حوالى الحرب الكبرى الماضية ، وفيما تلا هذه الحرب من عهد الحكم الأجنبى الغشوم ، لا يتوافر إلا لعقل زعيم مهموم بشئون أمة . ويزيد فى قيمة هذا المنطق — حين تعرف أن هذه الكلمات إنما قيلت فى أوائل سنة ١٩٢١ — أنه مفصل تفصيلا دقيقاً حسب الرغائب القومية التى كانت الحياة المصرية مسيسة الحاجة إليها : إلى بثها فى النفس المصرية كارادة ، ثم إلى استحالة هذه الارادة إلى قوة تنفيذية تنقذ الوطن من شر ما حشدته السياسة المغرضة فى طريق التقدم المصرى من عراقيل

***

هـل تحقق الأيام غاية طلعت حرب ، فنتبوأ مكاناً تحت الشمس ، ونعيش مع الآخرين ، كما يعيش الآخرون ؟ . . . لـكن ما لطلعت حرب والأيام ينتظرها أو يترقب ظروفها ؟ ! . إنه هو الذى يخلق هـذه الظروف ، فيسابق الأيام إلى تحقيق الغاية القومية التى ينشدها . فنى الوقت الذى اطمأن فيه كثير من الممولين إلى البنوك الأجنبية ، يودعون فيها أموالهم ويحرصون الحرص كله على أن تبقى ثرواتهم مخترنة عند هذه البنوك — هبّ طلعت حرب فى فئة قليـلة من أولئك الممولين بمشروع البنك الذى أنشأه فـكرة ، ورعاه خاطراً عـــذباً يسرى من رأسه إلى نفوس الآخرين من المخلصين لبلادهم، يستوحيهم معنى الاقدام . حتى خرج المشروع إلى ظاهر الحياة ، وأصبح أثراً مادياً يزداد ضخامة فى كل يوم عن سابق الأيام . وها هوذا البنك الناشىء يملأ الحيـاة الاقتصادية فى مصر عنفواناً وعزة ، وها هو ذا يتطور كل يوم نحو كمال الغاية التى نشدها طلعت حرب ، فيتحول من بنك عادى للمعاملات إلى معهد عظيم يتلقى فيه المصريون دروس الاسـتقلال الاقتصادى دروساً عملية ذات أثر سريع مباشر

ففى كل سنة شركة جديدة ، وفى كل سنة فرع جديد ، وفى كل سنة مشروع يتصل بصميم الحياة المصرية يخرجه رأس المنقذ الاقتصادى الـكبير . وهكذا يحيا طلعت حرب فى مشاريعه حياة قائد عظيم من قادة السلم ، يرسم الخطط ويقيس الأحوال بمقاييس المنفعة القومية التى تنفع أمة بأجمعها . وأنت تستطيع أن تـكشف عن هذه القيادة السلمية النبيـلة حين تقرأ طلعت حرب يخاطب المحليين فى حفلة افتتاح فرع بنك مصر بالمحلة الـكبرى سنة ١٩٢٤ يقول :

« أنتج التوازن فى مدينتكم زيادة الشوق إلى العرفان ، والاقبـال على التعليم ، بدليـل أن الملمين بالقراءة والـكتابة فى المحـلة الـكبرى يبلغون ٨٤ فى الألف ، فى حين أنهم لايزيدون فى مجموع بلاد القطر عن ٦٨ فى الألف ، وهم فى بقية جهات مركز المحلة الـكبرى التى جمدت على الزراعة وحدها يبلغون

٤١ فى الألف ؛ وفى نفس مديرية الغربية فى عموم متوسطها يبلغون ٦٠ فى الألف : فمدينة المحلة الكبرى تسبق فى هذا الباب المتوسط العام للقطر المصرى ولمديرية الغربية»

فأنت حين تقرأ هذه العبارات المعززة بالأرقام التى تدور حول الحركة التهذيبية البحتة فى حياة مدينة واحدة من المدن المصرية ، تشعر بناحية الاتجاه فى نفس طلعت حرب اتجاهاً قومياً خالصاً يتعلق بالمصلحة العامة وحدها ؛ وليس المال فى هذا الاتجاه إلا وسيلة تتوسل بها مشروعات المنقذ الاقتصادى الكبير إلى الغاية التى تمثلتها نفسه فى قوله : « إننا نريد أن نعيش مع الآخرين كما يعيش الآخرون » . . . . ولعل أبلغ ما يقال من المعانى فى عظمة طلعت حرب أنه تقمص روح الاقتصاد فى مصر تقمصاً عبقرياً نادر الوجود ، حيث أصبحت خوالج نفسه كلها متأثرة بهذه الروح ، وحيث استولد من وحى قلبه شيئاً أستطيع أن أسميه « حاسة الاقتصاد » . فهو يكاد لا يلبس ولا ينظر ولا يحس الأشياء إلا بهذه الحاسة الفذة التى هى الدليل المادى الحى القائم على عظمة طلعت حرب . فأنت تراه ، بعد أن يحدث سكان المحلة الكبرى عن أثر التوازن الاقتصادى فى حياة مدينتهم ، يعود فيقول لهم عن « المحلة » متأثر العاطفة بهذه الحاسة الدقيقة :

« إنكم تحبونها كوطن صغير لكم ، وأنا أحبها كبيئة من أحسن البيئات استعداداً لصناعات الغزل والنساجة الكبرى » . وليس فى تاريخ المجد ولا فى تاريخ النجاح إحساس يفوق هذا الاحساس الذى يوحد عواطف طلعت حرب ويلخصها فى شعور واحد ، هو الشعور بحاجات بلاده الاقتصادية ، بحيث يغدق حبه على كل بيئة تسد فراغاً فى هذه الحاجات . . . وإن هذه الفقرات كلها لهى صورة تقريبية تحبب إلينا طلعت حرب حباً يتعدى الفائدة التى تستفيدها أشخاصنا من بنك مصر ، ومشروعات بنك مصر ، إلى أعمق أسباب التقدير الذى يستحقه رجل عظيم ، ليس لشىء إلا أنه يعيش فى أمته عظيما

حافظ محمود

محمد طلعت حرب الفنان

بقلم مصطفى كامل الفلكي[1]

فى مقالة سابقة بجريدة البلاغ كشفنا عن ناحية ناصعة من نواحى طلعت حرب ، ألا وهى « الأديب المصلح » . وهانحن أولاء نكتب اليوم عن صفحة جديدة مشرقة من حياة طلعت حرب الخالدة ، وعن ناحية أخرى من نواحى عبقريته الفذة ، ألا وهى شخصيته الفنانة . فقد ملك عنان الفن ، كما دانت له من قبل مملكة المال

الفن فى حياته الخاصة :

إذا أتاحت لك الفرصة الذهبية أن تزور غرفة ذلك الرجل العظيم فى بناء بنك مصر الشامخ ، فستجد عجباً ! ستجد حجرة مزينة على الطراز العربى البديع ، فرشت أرضها ببساط من زهر زاه يسر الناظرين . فاذا أنت أدرت ناظريك إلى أعلى ، راعك نقش عربى . فاذا أنت تقدمت فى الغرفة قليلا ، وجدت رجلا مستقراً على مكتبه فى سكون الفنان ، وروح صافية تنسجم مع ذلك الجمال الشرقى البديع

هذا فنه يحيط به فى عمله . .

أما بيته فهو بيت الفنان : يطالعك الفن الرائع فى كل ناحية من نواحيه . فهذه حجرة كل مافيها جميل ، وهذه ردهة قد أثثت بالرياش الثمين . فاذا أنت وقفت بناظريك هنا وهناك ، وجدت تنسيقاً بديعاً ، ورسوماً جميلة ، تشهد لذلك الرجل العظيم بالذوق الفنى الرفيع

(١) نشرت بجريدة البلاغ فى عددى ١٢ و ١٣ مايو سنة ١٩٣٦

الفن فى حياته العملية :

من أهم أركان الفن التناسق والانسجام . فاذا نظرنا إلى منشآت بنك مصر وشركاته ، وجدنا أثر هذا التناسق بينا : فهى تؤلف وحدة فنية لا شذوذ فيها ، بل فيها توافق وارتباط

هذه شركة لحلج القطن ، تؤازرها شركة لنقله فى النيل ، إلى شركة ثالثة لغزله ونسجه ، إلى شركة رابعة لتصديره إلى الخارج — كلها سلسلة واحدة فى ناحية واحدة من نواحى الانتاج الصناعى

وهذه شركة نسج القطن ، ترسل إنتاجها إلى شركة بيع المصنوعات المصرية ، وهذه الأخرى تستغلّ فى مطبوعاتها إنتاج شركة أخرى ، هى شركة مطبعة مصر . وهذه شركة مصر للتمثيل والسينما تتم هذا التناسق ، فتعلن مجهودات العاملين

وليس من الممكن تصوير هذا التناسق بمقدار ماصوره هذا الرجل الفنان فى خطبته الخالدة يوم الاحتفال بمرور خمسة عشر عاماً على تأسيس بنك مصر . قال :

« أيها السادة : لعلكم لاحظتم ونحن نسرد لكم شركات مصر أن هذه الشركات تكون حلقات متصلا بعضها ببعض ، دون أن يكون تأسيسها اعتباطا . فالمطبعة ، والمكتبة ، والشركة المساهمة المصرية لصناعة الورق — حلقة

« وللقطن حلقة تتمثل فى الحلج والنقل والتصدير والتأمين والغزل والنسج . ويتصل بحلقة القطن أيضاً ، حلقات الحرير والكتان

« ومن النقل تكونت حلقة بين النقل فى النهر والنقل فى البحر والنقل فى الجو ، كما اتصل بهذه الحلقة مسألة السياحة ، ومن اتصالنا بالبحر نشأت حلقة أخرى هى حلقة السمك وما خرج منها من صناعة أزرار الصدف

ثم الحلقة التى تربط جميع الحلقات ، وتذيع عنها كل ما تهم إذاعته ، ونعنى بها حلقة السينما والدعاية لها »

وليس هذا فحسب ، بل إن هذا الانسجام ليتضح جلياً فى العقد الانشائى لبنك مصر حين اشترط فى مالكى أسهمه أن يكونوا من بيئة تفكيرية واحدة ، هى المصرية الصميمة حتى تتم على البنك نعمة الانسجام والتناسق ، والسعى الموحد ، للغاية السامية ، والفكرة العالية ، ألا وهى استقلال مصر استقلالا اقتصادياً تاماً

ولقد كان طلعت حرب صريحاً فى طلبه الانسجام والتوافق ، فى خطبته التى ألقاها فى ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٢٥ ، فى حفلة التكريم التى أقامتها الجمعية المصرية فى باريز له ، حين قال :

« نريد إذن عقلية مصرية متشابهة فى سموها مع أسمى الأمم ثقافة ، ونريدها عقلية مصرية مستقلة ، عقلية هى وليدة ماضينا الذى لا مفر من الخروج من تأثيره فينا ، ووليدة حاضرنا ، نسعى إلى ربطه بماضينا كما نسعى أن نقوده ونسيره إلى مستقبل حسن . والمستقبل وإن يكن بيد الله إلا أنه إلى درجة ما بيد القوم . ولا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »

روح الفن الثائرة :

وليس التناسق والانسجام هو الصفة الوحيدة فى نفس طلعت حرب الفنان ، بل هناك الناحية الكبرى التى تمتلك نفس كل فنان ، ألا وهى شعلة الفن الثائرة فى روح الفنان المجيد

ثار طلعت لأمته ، وثارت حميته لوطنه ، حتى إذا كانت الثورة الوطنية العظمى ، وقامت مصر شيباً وشباناً يعملون لمجد الوطن ، فاذا بذلك الرجل العظيم يتقدم فى الميدان ، بمقدرة مالية يتوجها حزم أكيد ، فيبنى مؤسسة بسيطة ، يخفق لها قلب مصر ، ويدعو لها المصريون جميعاً بالنجاح والازدهار

قالوا : سيفشل بنك مصر . . . فردت عليهم روح طلعت الفنان الثائر . . بل سينجح بنك مصر

قالوا : إن اللغة العربية لا تصلح لادارة الأعمال المالية . . . فرد عليهم في ثورة الفنان : بل ستصلح رغم أنف الحاسدين

وهكذا نجح بنك مصر بفضل مقدرة طلعت المالية وروحه الفنية

الفنان والمفاجآت :

من طبيعة الفنان أن يفاجيء الجمهور بين حين وآخر بشيء رائع يستره حيناً عنه ، حتى إذا ما أزاح الستار ، استخف الطرب المشاهدين فراحوا يلهجون عليه بالثناء ، وعلى صاحبه بالمدح الجميل

وهكذا خبأ حسن القدر لمصر ، طلعت حرب ، فناناً ، يفاجئها بين الفينة والفينة بأمور جلائل ، فاذا مصر كلها أبصار ترنو إلى ما أبدع ، ثم طالع به الناس

الله يعلم وحـــده كم خفق فؤاد مصر ، وكم عمها السرور ، حين رأت بنك مصر يترك داره الأولى التي كانت رغم صغرها لا يمتلكها بل يستأجرها .. إلى داره الجديدة ، وإنها لصرح عظيم ، زينه الفن وزخرفه وخلع عليه من الرواء ثوباً عجيباً . أما مجد البناء الأشم ، فذلك وحي من عظمة طلعت حرب ؛ وأما روعة الزخرف وسحر التناسق ، فتلك نفحات من مزاج طلعت الفنان

— « وإني مهيء لكم مفاجأة عما قريب . . . »

ذلك ما قاله طلعت للصحفيين منذ شهر وقليل ، وجاء اليوم الموعود ، وخف ممثلوا الصحافة ليروا . . . . « ما تلك مفاجأتك يا طلعت . . . ! ! » قيل : « توسطوا الردهة » . . . وما خطوا ليتوسطوا الردهة حتى بهرهم إعجاب شديد ، وهزهم سحر المفاجأة ! !

أهي العصا السحرية في يد طلعت ؟ ؟ . أم هو فيض فنه يجعل الردهة الزاهية تتضاعف في لمحة واحدة ؟ ؟

والبريق والعظمة اللذان كانا يكسوان الردهة حينما كانت ظلا هما بل زادا بعد ما انبسطت الردهة

وكان افتتاح ستوديو مصر مفاجأة . فهناك وسط شارع الهرم ، بين قاهرة العرب الميمونة ، وأهرام الفراعنة المجيدة ، تقوم آية من آيات طلعت

وما ظنك بصناعة السينما وهى لم تزل ناشئة فى مصر ، وبشركة مصر للتمثيل والسينما وهى لا تزال وليدة — ثم . . . . . . إذا بالستار يزاح . وإذا بالاستديو الجديد لا يشبهه فى الشرق ثان ، وتحسده فى هوليوود استوديوهات هى قياصرة السينما حتى هذا الزمان

قال طلعت باشا فى خطبة له :

« فطنت الشركة لذلك ، فأنشأت لها ستديو مزوداً بأحدث الآلات والأجهزة ، وسيكون الأول من نوعه فى بلاد الشرق من حيث العظمة والفخامة وجلال الفن »

وما أبدع تناسب الفن فى هذا الاستوديو ، إذ يقوم بين الرمال وعلى مقربة من الأهرام رمز الخلود ، وتحت شمس مصر ، وشمس مصر عبدها القدماء ، ولا يبعد عن النيل

هذه صورة الاستوديو ، فيه يخلق الفن ، وقد أنشىء بين أربع لوحات من غرر لوحات الطبيعة

توالت مفاجآت طلعت المباركة السعيدة لمصر ، ففى كل عام لمصر وقفة المدهوش أمام أثر جليل مما يجلوه لها طلعت حرب

إنه من مميزات الفنان أنه لا يصنع شيئاً إلا وكانت عليه مسحة الفن وجماله ، كذلك كل منشآت بنك مصر : فداره آية الفن ؛ وشركة الطباعة التى تتبعه لا تخرج سفراً ولا مجلداً ولا شيئاً مما تصنعه المطابع إلا بذ ما يصنعه الآخرون ، وهذه بواخر شركة مصر للملاحة ، يتجلى فيها الذوق السليم ، حتى فى أسماء البواخر تلمح جمال الفن وسلسبيل الابداع

لله ما أحلى هذه الأسماء « النيل » . . . « كوثر » . . . « زمزم » . . .

تشجيعه الفن والفنانين :

إن الفنان الحق لا يقصر اهتمامه على ما تبدعه يداه بل يعشق الفن أيا كان ، فيشجعه ويمده من روحه . كذلك طلعت حرب ، فما أخذ بيد فن التمثيل غيره ، وما بنى دار مسرح الأزبكية ، وهو آية مسارح مصر ، وصرف عليه من جيبه الخاص ما ينوف على الثلاثين ألفاً من الجنيهات إلا طلعت ، وما أخذ بيد فن السينما وهو ناشيء إلا طلعت

روى الرواة أن رجلا اسمه « العالم البقرى » كان آية من آيات الفن العربى فى التجارة ؛ وكان يعطف عليه عظيمان مصريان هما المرحوم عمر سلطان باشا ، والأمير محمد على ؛ فلما مات الأول وخرج الثانى من الديار أثناء الحرب الكبرى ، لم يجد هذا الفنان المتواضع إلا رجلا مصرياً كريماً عطف على الفن فأكرمه ، وأدخله تحت عنايته وعطفه منذ ذلك الحين ، هذا الرجل هو طلعت حرب

وليس هذا هو المثل الوحيد الذى عطف فيه طلعت حرب باشا على الفنانين بتشجيعه لهم؛ فعطفه على المرحومين احمد فهيم ، وسيد درويش ، وعلى الأساتذة عباس علام ، وكامل الخلعى ، وداود حسنى ، وغيرهم من فحول الأدب والفن والغناء والتمثيل — لا يمكن أن ينسى

أكبر مكتبة اقتصادية فنية :

قليل من الناس هم الذين يعرفون أن ذلك الرجل الكبير يملك أكبر مكتبة اقتصادية فى الديار المصرية . وقليل من الناس أيضاً هم الذين يعلمون أن لديه فى هذه المكتبة مجموعة كبيرة من الكتب والرسوم والصور الفنية ، وخصوصاً فى أعمال البعثة الفرنسية التى رافقت نابليون إلى مصر ،

وهذه المجموعة الفريدة التى يحتفظ بهـا طلعت حرب هى أصدق دليـل على نفسـية ذلك المجاهـد الفنية وروحه المتعالية فى سماء الفن والجمال

خاتمة :

وبعـد ، فقد رعى طلعت مصر ونهض بهـا ، فأخذ بيدهـا إلى الثراء ، وهداها إلى الاستقلال الاقتصادى

كذلك جعل روح الفن يخفق على مصر فى كل النواحى ، فيخلع عليها من الجمال ثياباً . وما غاية الوصف فيه إلا أنه « فنان » ومصر « لوحته »

فهو يبدع فيها، ويخلع عليها ظلالا وسحراً حتى تصير عروس الدنيا ، كما كانت فى فجر التاريخ . . ولعل من عجائب القـدر أن يكون حرب حرباً على سوء الحظ الذى لازم مصر من قديم الأزمان ، وأن يكون بعث عظمة مصر على يد طلعت حرب

حتى إذا سطر المؤرخون يوماً من الأيام تاريخ مصر وتاريخ طلعت قالوا :

وعلى صحرائها مرت يداه   فجرت ماء وظـلا وجنى

مصطفى كامل الفلكى

فى أثر طلعت حرب

من محاضرة لمحمود فتحى عمر[1]

لقد ثرنا على كل شىء فى التفكير والسياسة والتقاليد ، وشبعنا من هذه الضجات كلها . « فانما نريد ثورة جديدة يعقد فيها دخان المصانع المصرية تحية النصر للشباب المصرى » . . . وذلك يتيسر لنا ، أولا وقبل كل شىء ، بتأليف رءوس الأموال المشتركة التى تجعل الجماعات ذات مصلحة واحدة فى عمل واحد . وتلك هى المدرسة الاقتصادية الجديدة التى افتتحها ونشر لواءها زعيم مصر الاقتصادى طلعت حرب باشا . . .

أجل هذا الرجل الذى امتلأت روحه حماسة وفاضت نفسه إيماناً،فعمل بعزم الشباب لمصر الفتية ، وحقق لها من أمنياتها جزءاً عظيما

لا تقولوا: وكيف سبيلنا ، فانه لامال لنا . . . وإننا فقراء؟ . . كلا . . . بل إننا أغنياء ، وأغنياء جداً

تريدون أرقاماً ؟ إذن هاكم اقرأوا تقرير صندوق التوفير بمصلحة البريد المصرية . إنه يقول :

« بلغ مجموع الأموال المودعة فى صناديق التوفير بمصلحة البريد فى نهاية شهر سبتمبر من عام ١٩٣٣ مبلغ ٣٫٩٥٣٫٣٢٦ مقابل ٢٫٨٠٩٫٠٤٥ فى مثل هذا الشهر من السنة الماضية . والأموال المودعة فى صناديق التوفير بالبنوك ٢٫٣٨٢٫٩٣٤ مقابل ٢٫٠٥٨٫٩٣٨ جنيهاً . وبلغ مجموع هذه الأموال ٦٫٣٢٦٫٢٦٠ جنيهاً مقابل ٤٫٨٦٧٫٩٧٣ جنيهاً مصرياً »

---

(١) عنوانها « سبيلنا إلى الاستقلال الاقتصادى » ، وقد ألقيت فى ٨ فبراير سنة ١٩٣٤ بنادى نقابة موظفى الحكومة المصرية

وهذه الملايين كلها ، والتى تودع بين الخزائن الحديدية محبوسة حبساً احتياطياً لا ينتهى أبداً ، لو أنها أخرجت من سجنها ، ولو أعطيناها لزعيم الاقتصاد طلعت ، لاستطاع أن يصنع لنا عجباً :

لاستطاع أن يؤسس ستين مصنعاً تجمع شتات العاطلين، وتفتح طريق الآمال أمام العاملين ، وتجعل لنا باباً من الربح والثروة لا يغلق ساعة واحدة

وها هو ذا بنك مصر العظيم ، الذى يرج أنحاء البلاد رجاً ، وترتعد له فرائص الأجانب ارتعاداً ، ليس له من الجنيهات إلا مليون واحد . فما بالكم بستة ملايين ! ! أو تزيد ! ! !

لا تقولوا إننا فقراء فى المادة . إنما قولوا إننا ما زلنا فقراء فى الارادة الطلعتية التى تحرك هذه المادة تحريكا صالحاً

ونحن فى الواقع إنما وهبنا جهودنا وشبابنا لهذه الدعوة — إلى تحقيق الارادة المصرية العظيمة . فليشعر كل منكم أنه طلعت حرب ، وأن له إرادة وطنية تسخر بكل صعب فى الحياة . إننا نريد مصر، مصر وحدها فى كل شىء تقع عليه أبصارنا وتسمعه آذاننا وتلمسه أيدينا ؛ وإننا أخيراً قد وهبنا لتحقيق هذه الارادة جهودنا ، واعتزمنا عزم الصادقين أن نسير فى أثر طلعت حرب ، وألا نتخلى أو نتحول عن جهادنا حتى تتحقق لمصر أمانيها

فهرس الموضـــوعات

فهرس الأعـــلام

فهرس البنوك والشركات والهيئات

فهـــرس المراجع

كتب :

الرد على الدوق داركور . . . . لقاسم أمين

المرأة الجـديدة . . . . » » »

إنجيل اليسوعيين ــ العهـد القديم . . . . .

تاريخ المسألة المصرية . . . . لثيودور روتشتين

تحرير المرأة . . . . لقاسم أمين

تذكار الاحتفال بالعيد الخامس عشر لبنك مصر .

تربيـة المرأة والحجاب . . . . لمحمد طلعت حرب

تقارير اللورد كرومر . . . .

حيـــاة محمد . . . . لمحمد حسين هيكل

خطب طلعت حرب باشا . . . . الجزء الأول

» » » » . . . . . الجزء الثـانى

علاج مصر الاقتصادى وإنشاء بنك للمصريين . . لمحمد طلعت حرب

فصل الخطـاب فى المرأة والحجاب . . . . . » » » »

قناة السويس . . . . » » » »

كلمة حق عن الاسـلام والدولة العثمانية . . . » » » »

جرائد ومجلات :

الأهرام ــ البـلاغ ــ الرابطة العربية ــ الضيـاء ــ الفينتشيال تيمز ــ المؤيد ــ المجـلة الجديدة ــ المسـاء ــ المصور ــ المقطم ــ روزاليوسف كوكب الشرق ــ مجلة العلماء

مطبعة مصر ٤٢٤٣/٣٦/٢٠٠٠


IMPRIMERIE MISR
مطبعة مصر
LE CAIRE


Bibliotheca Alexandrina
0406177